محمد بنيس

شطحات لمنتصف النهار

نصوص على طريق الحياة والموت



المركز الثقافي العربي

* شطحات لمنتصف النهار (نصوص على طريق الحياة والموت)

تأليف: محمد بنيس

الطبعة الأولى، 1996

الناشر: المركز الثقافي العربي

العنوان:
□ الدار البيضاء/ • 42 الشارع الملكي (الأحباس) • فاكس /305726/ • هاتف/ 303339 - 307651/.
• 28 شارع 2 مارس • هاتف /271753 - 276838/ • ص.ب./ 4006/ درب سيدنا.

□ بيروت/ الحمراء - شارع جان دارك - بناية المقدسي - الطابق الثالث.
• ص.ب/ 113-5158/ • هاتف/ 352826 - 343701/ • فاكس/00961-1-343701/.

محمد بنيس

شطحات لمنتصف النهار

نصوص على طريق الحياة والموت

المركز الثقافي العربي

أشكر جريدة «الحياة» التي استضافت هذه النصوص على صفحاتها
بين يناير 93 ويناير 95

الإهـداء

الى خليل وصفوان

I. العهد

1. نِداءُ السيّدة

(1)

غيوم قليلة تمسحُ جنباتٍ من السماء. والضوء نازل بصُفْرةٍ لها طبقاتُ الرمل. سماء ورمل يتجمعان ثم يفترقان. على مقربة مني. في الصمت الذي يلازمني عبر الأيام والليالي. منذ تلك الأيام التي نسميها الطفولة الأولى. وأنا الآن تحت سماء هي غير سمائها. في فاس. سماء الأطلسي ندية ورطبة في آن. وسمائي الأولى متخفيةٌ بين أنحاء الصمت. لا أحد يعرف نسيجَها أو رائحتها. أنا الوحيد الذي يعرفها، لأنها تسكن العين ولا تفارقها. سماء تدنو من سقف الغرفة بنجومها التائهة. ألوان بلورية وصرخة في أعلى السقف. وأنا قريب من الفراش والعينين المغمضتين والدم والصرخة. سماء وصرخة وأنا تحت السقف. يداي رطبتان. وبالعينين وحدهما أقترب من السيدة. كنت أحس أنها سيّدتي. ولم يُعلِّمني أحدٌ ذلك. أتمدد على فراش السيدة لأصعد إلى النجوم التائهة. صمت في صمت. وأنا قريب من دمك أيتها السيدة.

(2)

بهذا أسميها وأكتفي. أخشى البوح باسمها فتصاب بما أخشاه. لست أدري ما الذي يمكن أن يصيبها ولكني أخشاه. وعبثاً أقاوم الخشية. في الطفولة الأولى. وما يليها. أحافظ على هيئة الطفولة حتى لا أسميها بغير السيدة. معاً نتعلق تلك الأيام العائرة في الصمت. ومعاً نرحل في الغربة ذاتها. من يوم ليوم.

من مواجهة لمواجهة. من رائحة لرائحة. وهي هناك. أرى إليها ملطخة بالدم. وحده الدم يعرّفني بها. وهي على الفراش. وحيدة وصامتة. والغرفة أرض خارج الأرض. وهي بدء الخليقة ونهايتها. وحيدة. وعيني تبصر، إلى الآن، صرختها. دم على الفراش والملاءة. دم من الفم والأذنين. واليدان هامدتان. بياضهما ملطّخ بالدم. وسيدتي على الفراش. وحدها. تحت النجوم التائهة.

غرفة مستطيلة فارغة. والزليج بارد. والجبص بارد. والخشب بارد. وهي في دمها. سيدتي. سقف يعلو إلى اللانهائي. لا ريح في الغرفة. البرد وأنا وهي والدم والفراش. متروكة هناك. وحدها. وبصرختها أتعلم الملامح المتبقية من وجهها. في تلك الليلة والليالي التي تليها. في الصمت والدم. دفّتا الباب مغلقتان. وعيناي صامتتان. أحبو لأقترب من المخدة وأستلقي. هادئاً كالهواء. أرى إلى السقف والدم قريب مني. لطخات حمراء على الثياب. أرخبيل من الدم والصمت والبرد. ولم تلمسها يداي. من يقول هل قبلتني أم نادت عليّ؟ من يؤكد هل أحست بي أم وضعت يدي بين يديها؟ صرختها في العينين. سيدتي. صرخة تعصر آخر ما يقاوم في الصدر. والرجلان وديعتان. واليدان منبسطتان. وأنا أقترب هادئاً من الدم والصرخة.

(3)

لماذا تركوك وحيدة أيتها السيدة؟ أسألك اليوم هذا السؤال، الذي لم أفكر أبداً فيه. ربما كانت سماء هذا الصباح. على الأطلسي. قد دلتني على السؤال. أو لربما كنت في حياتي كلها أشفق على نفسي من السؤال. أنت وحيدة مع الدم والصرخة وكفى. لست بحاجة لتأويل يبعدني عنك وعن الصمت. لا أريد أن أذكّرك بشيء. تلاشيت وبقيت الصرخة. سفَك الترابُ وظلت لطخات الدم وفية للطخات الدم. في الغرفة ذاتها. في البرد ذاته.

ولِمَ يقتحمُ السؤال غياباً وأنا قريب منك؟ تركوك وحيدة وأنا قريب منك. كل واحد منا كان يسهر على الآخر. كما لو كنت ترين بدورك إلى دمي القادم. ترين إليّ في صرخة تعلمتها من وحدتك. في اللحظات الأخيرة من حياة لم أجد من يحكي ليَ قليلاً عنها. تركوك وحدك لينسوا الحكاية. منذ البدء. والطفولة.

والشباب. وبيت العائلة. ومن كان لك يوماً. ونسوك. تركوك على الفراش. ونحن معاً على الفراش.

غريبة أنت أيتها السيدة! تظلين أمامي في لحظة لا أخت لها. لحظة ما بين المهد واللحد. في تلك اللحظة بمفردها وُجدْنا معاً. أنت على الفراش. بدمك وصرختك. وأنا قريب منك. وحيدين كنا. أنت وأنا. والسقف بنجومه يعلو بفراغه. فراغ يستولي عليك وعليّ. لا ترتيل ولا بخور. السقف العالي. وصرختك التي تدفع بالفراغ إلى اللانهاية.

غريبة أنت أيتها السيّدة! من أوصاني بالصمت في حضرتك؟ من ثبّتَ في صدري ألفةً لم يهْجُمْ عليّ فيها أي بكاء؟ من وجّه عينيّ إلى دمٍ هو لي مسكن به أقاوم كلّ دم؟ ولكن من أين تأتيني كل هذه الأسئلة على الأطلَسي، في منتصف النهار؟ ألأنّ القرب منك أصبح شفافاً أم لأنّ النداء هو النداء، في الليل والنهار؟ أيتها الأسئلة. كنت قريباً منها. وكنا وحيدين. في الفراغ تكبر الصرخة ثم تكبر. لأبصرها مرة أخرى تخرج من الدم. من جسدك. من الفراش والملابس واليدين الهامدتين. أبصرها من دون فزع. صرخة تتموّجُ بشيء من النشيد والأنين. في الصمت. وظلمة الغرفة. والسقف العالي.

لحظةٌ سديمية لا مَرَدَّ لها. فيها أنت وأنا. معاً. على الفراش. كأنها بداية الخليقة ونهايتها. كل ثنيّةٍ فيها تنسبط صمتاً لا يشبه الصمت. بين المهد واللحد. معلقة بدمها الوحيد. وأنت سيدتي. تنفذين إلى التذكر والنسيان. في صمت الغرفة والنجوم التائهة.

(4)

تلك اللحظة لا ثانية لها. بمفردها ترافقني سحابةٌ قرمزيةٌ ذاتَ سكينةٍ بعيدة الغور. تضاعف في الأعضاء حَرّاً وزمهريراً يتبادلان الرحمة. تلك اللحظة لا بَعْدَ لها. ولا أتذكر نهاية السهر، جنباً إلى جنب. اللحظة اختطفتها العين لتحمل الجرح إلى الأبد. في الطفولة والطفولة. من سماء فاس إلى سماء الأطلسي. وعبر المدارات التي لم أكن أتوقعها في امتداد الطفولة.

وفي صباح ما، لعله صباح الليلة نفسها. لعلهُ صباح ليلة أخرى لم تبتعد

عنها تأكيداً. وقف أشخاص في وسط البيت بانتظار نزول صندوق طويل مطليّ بالزعفران. وفي يد أحدهم حبال من القُنّب المفتول. لم أر إلى الصندوق. ولكن لون الزعفران على الخشب لا يزال مشتغلاً في الحواس كلها. لم أسمع صياحاً ولا ترتيلاً. رأيتهم يغادرون البيت. من السفلي يخرجون إلى حيث لا أدري. ولم أرَ الصندوق. ولم أسأل. ولم أبك. ولم أبحث عن مكان بينهم.

كنت واقفاً على رجلين قصيرتين. ومدّ لي أحدهم حلوى. لأسكت ربما أو ربما لأنسى. وكنت في الصندوق بغير عِلم منّي. أمام عينيّ الزلّيجُ وأنا واقف وفي يدي الحلوى. خرجوا والحبال في يد أحَدهم. ورأيت لون الزعفرانِ ولم أرَ الصندوق. غادروا البيت من الباب السفلي وفي عيني سحابة قرمزية.

ذلك الصمت صمتي أم صمتك؟ وهل أنت التي وضعوك في الصندوق حقاً؟ وبأي ماء طهّرُوك من دمك؟ في ذلك الصباح الذي كانت فيه سواري البيت عاليات حتى زرقة السماء. صمتي يظللني. وحيداً. ولم أر إليك بَعْدَ اللحظةِ الليليةِ في غرفة معلقة بالنجوم التائهة. هل وضعوا عليك الوشاح الذي تستحقين؟ هل منحوك الوشوشة الضرورية لتحتمي من صمت طويل؟ وهل كانوا أوفياء لوداعة بها يحملون جسدَكِ المنهوش. سيدتي؟

(5)

لحظة متأبدة وأنا في الصمت. صرختك أسمعها الآن، ومنذ الأيام القصية، كأنها صرخة على وحدتنا معاً. في حياة جرّبْنا معاً قساوتها. بأي ميزان نَزِنُ هذه القساوة؟ لا أحد منا يعلم عن قساوة الآخر شيئاً. ولا غيرُنا يعرف عن قساوة حياتنا شيئاً. صرختك، التي أسمعها، تكتنز العذاب كله والقساوة كلها. أيتها السيدة!

في الوحدة أو المتاه. في الحر أو الزمهرير. وينزل النداء في الصدر. لا أحد يسمعه. ويعتقدون ما يعتقدون. علينا أن نعتني بالصرخة وحدها. لا شيء غَيْرَ دبيبها في اليد وهي تكتب إليك. صامتةً غيرَ مستسلمة. مسافرةً في بعيدك الذي أجهله. من غير اسم ولا صفة. بعيدٌ يدلني على البعيد. في الدم والصمت والصرخة. سحابةٌ قرمزيةٌ يتدلى النداء. على شاطىء الأطلسي. قريباً من مكاننا

الوثني. صخراً وماءً وسيّداً في أعلى الهضبة. واللحظة تترسّخُ في اللحظات. عبر ولادات مفاجئة تتسرب إلى الأعضاء والكلمات. من مغارتها تنهض اللحظة وتدنو منك ومني. في المتاهات التي لا حدّ لها غير المتاه. بين الدم والصمت. يتجددان وينشبكان. سحابةً قرمزيةً. والصرخة دوائر تستعيد تكوينها في تمجيد الفراغ. من ليلة إلى ليلة.

وأنتِ أيتُها السيدة!

أضع عليك الوشاحَ حتى لا تضطرب عينٌ وهي ترى إليك. ومن غير ندم أصاحِبُ الحُمّى. فصرختك هي التي علمتني ما أرى وكيف أرى. وفي صرختك حُمّـاي التي توسّعُ ليَ المدار. من ليلة إلى ليلة.

2. غُنْبَازٌ لفَجْر بيرُوت

(1)

لبيروت في الدخيلة منازلُ وعلى جسدي وشُوم. منذ ذلك اليوم الذي انتقلتْ فيه طفولتي إلى اضطراب ولادتها الثانية. من الجامع الذي كان الفقيه يعلمني فيه كيف أحفظ القرآن على اللوح. المكسو بالصلصال. إلى المدرسة الابتدائية التي أصبحت لي فيها دفاتر وكتب وأقلام ومحبرة أتقاسمها مع زميلي الغائبة عني صورته الآن. ذلك اليوم. في حجرة بطلاء أصفر مفتوح. وسبورةٍ سوداء معلقة أمام العين. ومُعلِّم بالبذلة الأوروبية. وهو يأمر التلاميذ. واحداً فواحداً. بالقراءة. ضوء الشمسِ كان قريباً من النوافذ. وهواء بارد يتسلّل إلى الساقين. عيناي على الكتاب. على الصفحتين المبسوطتين بين يديَّ وأنا أرى ما لم أكُن متعوّداً على رؤيته في الجامع. كِتابٌ مفتوح وعلى الصفحة صورة غريبة. عيناي مُركّزتان على الصورة ولا أرى غيرَها. لا عنوان النص ولا النص. الصورةُ وحدها. غريبةٌ. وضوءُ الشمس يخرجُ منها. وبيت بسطْح من القرميد. والأرز. وصفوفٌ من النباتات الخضراء. والوادي أخضرُ مُشْبَعٌ بصفرة بطيئة. أرى إلى الصورة. أرى ولا أتذكر ما قلت آنذاك في نفسي. الصورة معلقة وحدها في العين. ولم يسألني أحدٌ عمّا أراه. الصورةُ كانت تراني. وجهاً لوجه. معروضةً لأُطيعها برؤية صامتة. وحدها تلك الصورةُ. في ذلك اليوم الذي انتقلتْ فيه طفولتي إلى ولادتها الثانية.

(2)

شيئاً فشيئاً تعلمتُ كلماتٍ: الوادي والشحرور والضيعة والكعك. الصورُ كانت تعلمني. والنصوص كانت تعلّمني. الصورةُ الملوّنةُ. على صفحة بيضاء. نقلتْ عيْني إِلى الغريب عنها. هي المتعوّدة. على اللّوح الخشبيّ المكْسُوّ بالصلصال. أو الأوراق الصفراء لكتاب القرآن الذي يلازمني في البيت. ومعْمَارُ فاس غريبٌ عن الصورةِ أيضاً. لأرى في الصورة ما لا أعرفه. والكلمات لا أفْهَمُها أيضاً. وعلى الغلاف «طُبع في لبنان». كتاب المطالعة اللبناني كنتُ أقرأه في مدرستي الابتدائية الحرة. وهي إحدى المدارس التي أسستها الحركة الوطنية المغربية لمواجهة سياسية استعمارية كانت تريد إبعاد المغاربة عن اللغة العربية. هكذا كانوا يقولون.

ولبنانُ أمامي على مقعد الدراسة صُوَرٌ ذات غرابة آسرة. الكلمات تخرج هي الأخرى من لبنان. الوادي والشحرور والضيعة والكَعْك. إنّه الكعْكُ. الصورةُ والكعكُ. ولا أبلُغُ مذاق الكعْك ولا طعْمَه. ولا أسألُ أحداً عن الكعك. إنه مجرد صورة. قادمة من لبنان. وللكلمات رنين آسرٌ بدوره. منها تبدأ عوالِمُ الطبيعة وحيواتُ القرية. أنا ابن مدينة فاس بأزقتها الضيقة. وبناياتها العالية حتى السماء. يحملني الكتاب اللبنانيُ إِلى القرية والطبيعة. أناقة مناظر تتوالى. أمام عين مفتونة بالغريب الذي تراه لتتعلق به كأنه مدارها الأقصى. في نهاية الحُلْم. وعبْر الصور والنصوصِ يتكاملُ لبنان في العين. لا أمامَهَا. ينفذ إِلى العين لتُولَد عين غريبة. وأنا أولَدُ في العين وفي الصور والنصُوص.

تعلُّمُ الروية هو ما يجعل الأشياء تقترب منك. هذا ما يؤكد عليه نيتشه. وبرؤيتي إِلى الصورة الصاعدة من بخار التكوين كان لبنان يقترب مني. يسري في الدم مع الكلمات. ثم مع الكلمات التي تحولت إِلى نصوص ثم إِلى أسماء. شيء من لبنان أخذ يجري معي بين أزقةِ فاس. المساجدُ والأضرحة والأسواق تتخللها القرى اللبنانية. لبنانُ في فاس أو فاسُ في لبنان. لست أدري تماماً. ولكن الكلماتِ أصبحت راقصةً. رقصتُها صباحيةٌ تولد مع الشمس. على عشب أخضرَ يرتفع مع الوادي. والقصائد تظْهر بعد قلْبِ الصفحات. أحفظها ليقترب مني الشحْرُور كما تقترب الغابةُ والفلاحُ والضيعَة.

(3)

لم تكن تلك نهاية الاضطراب. في السنة الموالية انتقلتُ إلى مدرسة حكومية تعتمد كتباً مدرسية من تأليف وإنتاج مغربي. غابت عني صورُ لبنان. قريتُها وطبيعتُها. ولكن لبنان كان حفَر في الدخيلة منازلَه وترك على الجسد وشومَه. من يملك قدرة على محو ما رأيتُ وما قرأت؟ لا كتاب بمستطاعه ذلك، فيما العين اكتسبتْ أسْرَارَها. واسْمُ لبنان قريب من العين. تلك المشاهد، في الكتاب اللبناني، تحافظ على رقْصَتِهَا الصباحيةِ. لم يَنشطِرْ جسدي. إنه، بالأحرى، ساكن بين كونين وبين رقصتَين.

واسترجعتُ لبنانَ مع جبران. كان ذلك في عِزّ المراهقة. لغةُ جبران لا تشبه لغةَ غيره. وها هو لبنان يتسع في كتابات جبران. يعودُ الشّحرور بأجنحتهِ المتكسرة، والخضرةُ تعلو حتى تكتمل الغابةُ برُعاتها. تتوحّدُ سكينة الليل ببزوغ الشمس والأشباحُ بالملائكة والأحلام. بيروتُ تظهر مثلما يظهر الحب والجمال والموت. دفعة واحدة يعثر لبنان على معابره في الجسد. كلُّ خلية تنهض وتصيح: أنت ميلادي، فتردد السكينة: أنت ميلادي. ضبابٌ تندفع بين ثغراته خطوطُ شمس صافية كأنها السلسبيل.

لم يخدعْني جبران. تلك كانت لحظةَ تجدُّد الميلادِ عبر لغة غريبة عن لغة الكُتّاب المصريين، الذين كانوا، إلى جانب اللبنانيين، يعلمونني لغة عربية حديثة. للبنانيين الأناقة وللكتّاب المصريين البساطة والوضوح. للأولى الإبداع وللثانية التعلُّم. كل منهما تؤدي وظيفتها. وأنا بيْنَ اللغتين أبحث عن جسدي كما أبحث عن العالم خلالهما. مدار شاسِعٌ وزوابع. اختراقُ الحدود. وكُلُّ شيء يتشكّلُ من جديد. ظُنون تصارع اليقين. مستحيل يواجه الكائن. ولم يكن لي بعدَ ذلك استقرارٌ وإقامةٌ في المطمئن.

هكذا أصبحت مهيئاً لاستقبال الشعر العربي المعاصر، قادماً من بيروت إلى باب السنسلة بفاس. عبر الدار البيضاء. لم أكن، حقاً، أفكر جيّداً في هذا المسار الطويل. من داخل بيروت إلى مينائها. ثم إلى مرسيليا ومنها إلى الدار البيضاء. ثم إلى فاس. مرور بكامله. عبر البحر الأبيض المتوسط، بين حوريات غُوليس. قريباً من شواطىء اليونان. وترانيم دانتي، من أسفل قبرص. إلى بحر الظلمات وحدائق هسبريدس بين طنجة والدار البيضاء. أي عبور شعائري لهذا الشعر العربي

المعاصر من بيروت إلى فاس، حيث يعرضه المكتبيون على رفوف مجاورة لمدارس أو بيوت لا تزال تتذكر تاريخها الأندلسي من خلال النقوش الجبصية والخشبية والزليج! هل هو عبور لتحية الشعراء وأساطيرهم، من لغة إلى لغة، ومن زمن إلى زمن؟ أم هو عبور جسدي في شعر أهداني بيروت بأفقها الكوني؟ لم أكن، حقاً، أفكر في كل هذا المسار. ولكني أحسست بشيء منه، أسميه البعيد.

(4)

لبنان البعيد يسكنني. شعرياً يسكنني. أُقبِلُ على قراءة بدر شاكر السياب وخليل حاوي وعبد الوهاب البياتي وصلاح عبد الصبور ثم أدونيس. أترقّبُ وصول مجلتي «الآداب» و «شعر» في الوقت ذاته الذي أترقب «مجلة المجلة» و «الفكر المعاصر». ظلال تنزعني من صلابة الجدران وتأخذني إلى حيث لا أدري. والشعر العربي المعاصر من بيروت يبدأ رحيله إلى كل البلاد. بيت رحيم. تأتلف فيه عصابة عاشقي زمن عربي طالع من أنساغ الرماد. لغة الكآبة والصبابة. نشيد تستسلم له الأعضاء. تفتح اليدان أزرار القميص. تشد الكُمَّ إلى الساعد. واليدان. تفتح اليدان خيط الحذاء. تخلع الجوارب. حركات الجسد تنتظم. شيئاً فشيئاً. دقات على الأرض وتهدُّجُ الصدر. ارتماء اليدين ينتظم. عوليس سبَتْ دمَهُ حُورياتُ البحر. جسد خفيف يطوف بالكلمات ليطوف بالليل والنهار. عرقٌ واليدان. تحتد الأنفاس مع احتداد وقع الأقدام. عوليس أو أدونيس. فجرُ بيروت أو بخارٌ لأوّل النهار.

وكيف تصل قصيدتي الأولى إلى بيروت؟ أدونيس البعيد في بيروت ينادي الشبيبة عبر «مواقف». ونحن جميعاً قريبون من النداء ومن بيروت. تصل القصيدة إلى بيروت. من صرخة الزّليج في فاس إلى يد طيبة في بيروت. أمزق الأوراق على طريق «البطحاء» والجسد الخفيف يرتفع مع الهواء ليشم رائحة بيروت.

(5)

هل الحرب أكبر من بيروت؟ ومن منا لا يموت في بيروت؟ من يفرّق بين الهواء والجدار في بيروت؟ أيها المدافعون عن بيروت. في حرب ضد فجر

بيروت. اتركوا مكاناً بينكم لجسد خفيف تأكد أن الفجر بيروت. رسائل أو صمت. تحية أو اقتراب من أجل بيروت.

أدونيس، خالدة، محمود درويش، إلياس خوري. جميعاً حرّضوني على زيارة بيروت لأرى حرب بيروت. وبين الحواجز في بيروت كنت أستحضر صورة لبنان في كتاب المطالعة، وأعمال جبران والشعر العربي المعاصر وصوت فيروز. لا أريد ذكر شيء من ذلك. بيروت القبائل لا فجر بيروت. مسلحون ومُهَجَّرُون. بطاقات الهوية. ضحكات تختلط بالرصاص. شباب يستعرضون أسلحتهم على السيارات العسكرية. سهرات في البيوت يتوحد فيها الشعر بالصمت أو بأسئلة الحداثة. وكل شيء، في بيروت. عمارات تُهدَم وعمارات في حُمّى البناء. أعراس ومآتم. كتب تطبع في المخابىء. صحف يقرأها الناس في وقتها المعتاد. وأصوات الطلقات النارية قريبة من الجسد الخفيف.

هل الحربُ أكبرُ من بيروت؟

كيف لي أن أعطي جواباً على هذا السؤال القاسي، الذي صاحبتني طبقاته الباردة؟ أنصتُ الآن لأهل لبنان وَهُمْ يتأملون فجر بيروت. أو يتأملون الجهات التي يلتئم فيها لبنان. أنصت. فقط. لأن صورة لبنان. على الصفحة البيضاء لا تزال معلّقةً في العيْن. وليست مجردَ صورةٍ هي الآن. زمَنٌ برُمّتِهِ يتجمّعُ في الصورة لأراهُ. وجْهاً لوجْهٍ. نتبادلُ الإنصاتَ في اختلاف الانكشاف والانحجاب. فزمنُ الجنازة لم يكن سراباً.

فجْرُ بيروت يتداركُ أنحاءه لنراه، لا على ما كان بل على ما سيكون. بين عُلُوّ الجبال وامتدادِ البحر. كلُّ مدينة عربية تبتعد عن نفسها، وأنا الآن أمام البحر. لي فاس ولي بيروت ولي القاهرة. لم يفرط جسدي في نسيان ما يجب نسيانه. وأنا الآن وجهاً لوجهٍ أمام صورة لبنان. باب الغرفة مفتوح. هواء باردٌ. والنداء البعيدُ يَسْتَقِرُ في سكينَةِ الغروب، متوجهاً، نقطةً فنقطةً، إلى يد يُضيء عزلَتَهَا فَجْرُ بيروت.

3. لوْلاَ المكَان

(1)

تبدأُ الكتابةُ بالمكان. لنُسَمِّ ذلك حكمةً أو قانوناً أو جُرحاً. تسْميات تنتقِلُ فيها الذاتُ من حالةٍ إلى حالة. وبين الحالات مُشتَملٌ لا يفضي إلى الصمت. كذلكَ خبرْتُ علاقة الكتابة. بالمكان. منذ اليوم البعيد الذي اكتشفْتُ فيه أن لي يداً تجرؤ أصابِعُهَا على حمل القلم إلى فضاء غريب عنها. الكتابة والمكان. فِعْلُ الكتابة يتقدّمُهُ المكان أو فِعْلُ المكان في الكتابة. عناوين يمكن تصريفها عبر لُعبة بها افتتح الخليلُ بن أحمد طريقته الشخصية في وضع معجم للكائن اللغوي وممكنه في آن. ولنا أن نتعلّمَ منه قليلاً لكي نتوه بين الحكمة والقانون والجرح.

حالات لذاتٍ نادراً ما ننصت لصرختها. أو لرُبّمَا اعتبرناها أنيناً يستحق شفقةً أقلّ من الشفقات الأخرى. ولا تطلب الصرخةُ من أحدٍ شفقةً. هي نبتةٌ وحشيةٌ تطلع من شقوق الجسد. لا للأنين ولا للشفقة. صرخةٌ فقط. تخرج مع الكتابة كما لو كانت عنصراً تكوينياً لها. ينعقد في مكان. مجهول من الجسد. ليترك أثره على مكان مجهول في الكتابة. من المجهول إلى المجهول تتدحرج الصرخة. والمكان يترصدها. عند منعطفٍ مَا. لعله المجهول أيضاً.

(2)

ولا نخترعُ المكان. إنه شرطُنا في الوجود على الأرض. تقذفنا إليه السلالات. من غير علم أو استشارة. المكان. الذي مجّدتْهُ الحركات الوطنية.

لا يستحقَ التمجيد دائماً. فرخَمَتُهُ غير أكيدة. يمجدونه تراباً وسماءً لا إنسان بينهما ولا تاريخ. وكلما اقتربت اشتدَّ الهجير. واشتدَّ حتى لا تراب ولا سماء. مجرد لهيب. واكْتُبْ ليبدأ المكان في الظهور. من تحت الكلام يصعد اللهيب. خالصاً هذه المرة. لينتشلك من النشيد. واكتُبْ. في حفرة اللهيب يداك. والصدر. والحنجرة. والصرخات التي يعرفها وحدهم أهلُ المكان.

من عصر إلى عصر. يشتدُّ اللهيبُ لتشتدَّ الصرخة. نبتة مسمومة لا شرقية ولا غربية. عمودية تصعد. من الكلمات إلى الكلمات. صرخة فيك، منك، حولك. صرخة تخرج من اليد لتعود إليها. تخترق المدارات بوشمة مطعونة. لا أحد. الأفق رصاصي واليد يتعدد لهيبها. المكان. حنجرةٌ معلقة بين زمنين لهما الصرخة ذاتها واليد ذاتها. واكتُبْ لتحترق الألياف حتى آخر النخاع. لا وعْدَ لها في الحياة والموت. مجرد لهيب هو المكان. وهو سيدك. لم تخترْهُ ولم تخترعْهُ. هنا ألْقَى بِك الأحفاد والأجداد، لتنكَتِبَ في الاحتراق. وتكون ما لا بُدَّ لك أن تكون. حالات تسْتَبِدُّ بكَ ولا تعرف من منكما يطيع الآخر. ولا تبتغي معرفة شيء. الصرخة بمفردها تضع السرَّ بين الثنايا. واليد تثور عليك. في الزمن الذي تجهله. ومن الجهات التي تجهلها. تهجم عليك جميعها دفعة واحدة، وهي تحمل الصرخة بين الثنايا. من شقوق الكتابة ذاتها تأتي الصرخة. توأمان فاتكان. لا قبلَ ولا بعدَ. في الثنية المكسوة بالبياض والهجير. في المكان الأول للكتابة.

(3)

وهل المكان ألَمٌ مغربي؟ ليس تخصيص الألم بالمغرب مؤكداً. الألم مهاجر بين الأمكنة. كذلك قرأناه في النصوص والأعمال. ولكن المغرب مكاني. ألمهُ مترسّخٌ في يدي. في الأزمنة التي نكاد لا نعرف عنها شيئاً. هناك يعرّش ليستولي على العابرين بيدٍ تنتسب لها يدي. آيادٍ تتضامن في الألم لأنها خبرتِ الصرخة. حمراء أو زرقاء. غسقية أو شفقية. هي نبتةٌ فقط. تصاحب جسد العابرين.

اقرأْ صرخةَ غيرك ولا تسأل عنها. واكتُبْ صرختك ولا تتكتّمْ. هكذا تقول

الكتابة وهي تهجم عليك. مرّةً تتمنّى ليدك الكيَّ. مرّةً تربطها بحبل المشنقة. والصرخة لا تطمئن. من حالة إلى حالة تختلي بوشْمَتِها وتنصت للغياب. أيّ صرخةٍ تتسع لهذا المكان!

عند المنحدر يأخذ المكانُ شكله الأقْسَى. حفرةٌ للهيب. راضياً أو مرغماً. هذه الحفرة التي سرقت يديك في ليلةٍ يمزقها السعار. والشهوةُ أقوى من يديك. لأَطِفْهَا قليلاً وانشُرْ عليها رحمتك. طُفْ بها في اللحظة المكينة. حاصِرْ بها انغلاقَ المكان. هي الأمْرُ وأنتَ الوديعةُ. وجّهْ ضراوتها إلى حيثُ يصعد اللهيب وتنضجُ الصرخة. وجهاً لوجْهٍ.

وسؤالُكَ مباشَرةٌ لاضطراب الإقامة. هذا المكان، الذي يمجدونه، لِمَ يستعصي عليك؟ على هذا النحو تقودني الكتابة إلى سؤالها عن المكان. ومن السؤال تنتخب الكتابة حالاتها. لأن المكان مبتدأُ الكتابة. وأسعى راضياً أو مُرغماً نحو عزلة أقْبَلُهَا. هل هناك ما يعوض المكان؟ كثيراً ما سألت. وكلما اقتربت من الجواب. نادت عليّ الحفرةُ واستولى اللهيبُ. على الخطوة الأخيرة. هل السؤال هو السؤال؟

للصرخة تاريخُها، كما للعين واليد. كل ما يرتطِمُ بالمكان يستحم في نهر التاريخ. أشياء تبدّتْ للْيَدِ وهي تحفر السطر المأهول بِسَاكني البياض. لا أحدٌ أتى من هناك. من مكان له أن يعوض المكان، فيكذّب اليدَ أو يكذّب الصرخة. العابرون يذكرون ذلك جيداً ولا يتكتّمُون. قديماً أوْصَوْا يدي بصرختها ولَمْ يَمْضُوا. إنها ترافقهم كما هم يرافقونها. تواصُلٌ في الحفرة واللهيب والصرخة. معاً ننزل إلى حيث تستدعي الكتابة النزول. هو اختيارنا الأسبق. لأنها الكتابة التي لا يتخلّى عنها المكان.

(4)

من ظَهْر المهراز ننحدر صوب الأطلس فالبطحاء فالصفّارين. خط شاقوليٌّ تستحوذ عليه متعرجات الشهوة بغُبارها. إثنان ينقسمان إلى واحدَيْن. على طريق المنحدر الذي ظلَلْنَا نحلم بتبديد مهاويه فيما هو المنتصر على الدوام. يبددنا وينسى فِعْلَهُ فينا وفي غيرنا. خط للسؤال الذي أيقظنا على المكان. هاويةً فهاوية.

وصديقي لا ينظر إلى شيء محدد. إنه منشغل بالحديث عن المكان الذي يَتسِعُ ليختطفنا. نحن والمجنونين مثلنا بما نجهل مصدره. يتفحّصُ التاريخَ لينتشر على أكتافنا نداءُ العابرين. يفتح جريدةً ويشير إلى شراسةِ المكان. يترنّمُ ببيْتٍ ولا ينسى وجهاً كان قبْلَنا. هل نتوقف أم نستمِرّ؟ ويستبعد السؤال فجأةً لأنه ليس سؤال الكتابة. ويحذرني من هذا النمط من الأسئلة التي تعتقل الكتابة في ركن الإرادة. فالكتابة تختارك بقدر ما تكون قد تهيأت لها. وهي تشرع في التجسْدُنِ دون سابق رؤية للمكان. يسيل دمها على الكتف الوحيدة والشهوةُ مسراها.

عنفُ المكان، حين يكون المكان مُحاصَراً بالنهي وأشباهه. هذا العنف أوّلُ ما تتعرّف عليه اليد في امتدادها إلى الصمت. وألَمُ المكان المغربي مضاعفة للعنف. حتّى لا سبيل لغير الصرخةِ. من جسد تصل إليه عبر جروح العابرين.

(5)

لوْلاَ المكَان. ما الذي يؤهلني. أنا المغربي. الكاتب باللغة التي أعشقها. لتبديل مصائر الكتابة والتصرف في جغرافيتها؟ سؤال قديم أيضاً. وقد لا يكون مُجْدياً. إنه سؤال القدماء الذي تحافظ عليه اليد كلما هجمت عليها صرختها. في الليلة التي تحتمل بدايةً ما. سؤال من الذات إلى الذات. في أول رمادٍ يجود به اللهيب.

لا أعرف ما الذي سيحدث لولا عنف المكان. بهذا أتجنب حتميات لم يعد لي شأن بها. على أن عدم المعرفة غير مبرّرٍ للمساواة بين أمكنة الكتابة. ذلك مؤكد. تدلنا عليه مصائر الفرديات أو مصائر الجماعات. ومن حقي ألاّ أساوي بين الأمكنة. لأنها غير متساوية فعلاً. تاريخٌ برُمّته. بقبائله ومعتقداته وحروبه. بل بأعلامه وحصونه. صاغ الأمكنة على ما هي عليه. في صيرورتها اللانهائية التي تترك. ببطء. أثرها على المكان. هناك وهنا الدليل. وقائع لاحتميات.

يصمت صديقي وهو يواصل النزول. أنا الآخر أصمت. ولا أسمع منه ما نستأنف بهِ رسم جغرافية المكان. الأزقة الضيقة تقترب شيئاً فشيئاً منا. ونحن معاً متواطئان على الاستمرار في السير. كما لو كنا قرّرْنا السير قبل أن نقرر الكلام.

يبدو ذلك. ومع الأزقة يتواصل الانحدار. أبواب خشبية بمساميرها وخرصانها في الوسط. ليس كل من يدق على الباب يدخل الدار. نجتاز الأضواء والعتمات. دهاليز تتوسطها الأقدام في عنفوانها. سقوفٌ واطئة وارتعاشات آذان.

لولا المكان. تأكدت من أن صديقي انتهى إلى الصمت. به يقرأ جهة محجوبة للمكان. ربما كنت لم أبلُغ بعدُ الضوء الذي به أستطيع رؤيتها. جهة في الكتابة ذاتها. أو لربما في الجسد واختبار العابرين لمحيطهم. نتابع صمتنا باتزان متخاذل. وأحياناً نضحك. بدون سبب مقنع. نضحك فقط لأننا تعبنا. والمنحدر طويل. مسافة أغنية وصلت قبلنا من القاهرة أو بيروت. باريس مكان معتمٌ أيضاً. رائحة في الكتب أو الصحافة.

لولا المكان. من الأفضل أن تعتاد صرختك. مارِسْهَا بالعناد. حتى في صمت صديقك. وصمت العابرين. فهي لا تنتظر مكاناً غير مكانك. تحت منتهى النهي. في غرفة معزولة. هي نقطة المنحدر القصوى. الكتابة لا تهدأ. والمكان لا يهدأ. وأين أنت. يا مريد الكتابة؟

4. صداقَاتٌ مَحْجوبَة

(1)

في تلك الأيام القديمة. بفاس. تعلمتُ تطويعَ جسدي لعلاقات مُمنهجة مع الناس والأشياء والطبيعة. أيام قديمةٌ وقليلةٌ. في آن. ولكنها كانت كافيةً لينصبَّ سلوكي في قالبٍ له صرامتُه. المدينةُ كلّها كانت تعلّمني. العائلة والجيران. العائلة والأقرباء. العائلة والجامع. العائلة وسِوَاها في الأسواق والطرقات المؤدية إليها. أو في المساجد المتاخمة للبيت والأضرحة التي تحتمي بها العائلة. تعلُّمُ ما لا يجبُ فعلُهُ يَسبقُ ما عليَّ فعْلُهُ. قواعد بهيئة سرير بُروكيسْت. الزائدُ. المُعيب. ما لا يحسُن. مآلُها البتر. أنت تقتُلُ وأنا أدفِنُ. هذه هي حكمةُ الأب للمربّي. للفقيه في الجامع. والمدينةُ كلُّها متفقة على قواعدها. السابقون أعدُوها ونسّقُوا بينها لتسري في دم الذراري. إنهم الأموات الحارسون للمدينة. خارج الأسوار ثم داخلها. والفضاءان معاً مسكونان بالموتى وكلمة الأمر والأضرحة والقباب والطاعة.

(2)

وعلّمتْني فاس أن أهاب المجاذيب والمجانين وأحترم حالاتهم. لذلك عندما أقول فاس أقصد ما تعلّمْتُهُ طوعاً أو كرهاً. أشياء أتسقت في غفلة عنّي وارتحلت مع الأيام إلى سبيلها. مع المجاذيب والمجانين الذين تعلمت هيبَتَهُم واحترامَهُم. معاً كانوا يتقاسمون ولاية المدينة. بدرجات.. المجاذيب أولياء الله.

ولا ينطقون عن الهوى. حتى ولو كان نطقُهم مجرد صرخة. والمجانين أولياء المجهول. المقدس والمدنّسُ يتصالحان في المجنون. ولا يفرق أحدٌ بينهما. وبالهيبة فالطاعة يعلن أهل فاس عن فاسيتهم. للمجذوب والمجنون.

أنا الآخر كان المجذوب لي بداية الهيبة والطاعة.

في مدخل بيت الجيران كان على مصطبة يقيم. لا والد ولا ولد. مفرد منذ أن عرفته. صامت طيلة النهار وبغتة يتكلم بما يريد. ولا يكلّمُ أحداً بعينه. يتكلّم. لا أتذكّر شيئاً من كلامه بقدر ما يكبر في صدري صمتُهُ. ذلك الصمت المشبع بالفراغ. هناك لا يزال مقيماً وأنا أسند ظهري إلى حائط البيت المقابل. صامت أنا وهو صامت. يغمض العينين وأنا أمامه. أرى إلى شيْءٍ يجب أن أبقى بعيداً عنه. المسافة هيبة. لم يكلمني يوماً. هناك مع الصمت فقط. والزليج بلوْنيه الأخضر والأبيض. مربعاتٍ مربعاتٍ. يحيط بجسده ويرتفع. وهو في وسط الزليج والصمت. متكىء ومغمض العينيْن.

تلك كانت بذرة أولى لعلاقتي مع فئة من مجتمع فاس التي هيأت لها قواعد المدينة هيبة الإقامة. فاس مدينة الأولياء. إدريس الأول. القادم من الشرق إلى زرهُون. يصبح ابنه إدريس ولياً على فاس. منذ عثورهم على الفأس لحظة حفر أسس البيوت الأولى للمدينة إلى الآن. في منتصف الليل يحضر. صحبة وزرائه. إلى ساحة «النجارين». جميعاً يجلسون. ويتفقد أحوال المدينة. لا ينسى إدريس مدينة فاس. وهم يسمُّونه مولاي إدريس. بالقبة الخضراء. في مركز مدينة الأولياء. والتجار. والحرفيين. والعلماء. والآفاقيين. والخارجين على الطاعة. والماجنين. واللصوص.

(3)

وحرُودة؟ هل هي مجذوبة أم مجنونة؟

بقطّتِها ذات الفرو الأسود والأبيض. وخواتمها المجمعة في أصابع اليدين. ومَنْصُوريتها المحزومة بقطعة من الكتان الورديّ. تعرّفتُ على حرُودة، وهي تصرخ في وجوه الأطفال. أو تغازل عابراً. تشْتُمُ متى تشاء وتضحك متى تشاء. حرُودة. جسد نحيلٌ وكهولة متمرّدة. بُصَاقٌ وعَكّارٌ. والقطة على الكتف

اليُسْرَى. النساء يهبْنَها كما الرجال. والقاموس تتساوى لديها كلماته. والجهر بالجنسي. حرُودة تشْتُم. في الهواء. تتوجّهُ إلى اللاأحد. ويعتقد القريب منها أنها تقصدُهُ. اللاأحد. وأنا بين الهيبة والإلذاذ. الأطفال يزداد صراخُهم. وهي تضحك. في رأس الشرّاطين. ببقايا طقم أسنان صفراء. والقطة تنتقل إلى الكتف اليمنى. والدماليج باهتة الإشعاع. والخواتم ببقية من أحجارها الزجاجية.

وتنتفض حرُودة. سمعتْ شتيمتَه وحاول الهروب. جرَّب أن يفلت من قبضتها. هي المتمردة. انتفضت حرُودة أمامه. جذبته إلى سقّاية الماء. تحت المسجد المعلق. ورفعت المنصورية بحركة يد عنيفة. أنظر إليّ. أنا حرُودة. أنا حرُودة. رأيْنا. رأيت. واشتدت هيبتي. حرُودة جبارةٌ ومتمردة. النساء يخضعن لها كما الرجال. وصراخ الأطفال لا يؤذيها. مجذوبة؟ لا. مجنونة؟ لا. هي المرأة التي تحررت من غير نفسها. تواصل جولتها. قريباً من القبة الخضراء. مجذوبة أو مجنونة.

(4)

اقترابي من المجانين تزامن واستحواذ الشعر عليّ. يوماً بعد يوم. ولا أعلم هل كان ذلك نتيجة اقتران الشعر لدي. آنذاك. باللغة المجنونة، المدهشة، الغريبة، المناقضة للمعتاد والمعيار. أم أن الطرقات اختارت لي بدورها مسار الاقتراب. طرقات فاس كانت تؤدي إلى المجاذيب أو المجانين. وفي مرحلة انتصار المراهقة وانتصار الذات. تتبعْتُ آثار المجانين عبر الطرقات. لا أهجم على أحد. فقط أسْتَسْلِمُ لِلَمَعَان الشرود. حين يمرُّ بي مجنُون. وأنا أتفقّدُ شيئاً مِمّا لا أعرفه.

من أشار عليّ أن ذلك الشخص. الذي اختار أن يكون قبالتي. هو المجنون. الناطق بكلام الطير؟ هل هي شمس الصباح متدلية على صنوبرة غريبة في الطريق إلى «بُوجْلُود»؟ هل هي ضحكات القرميد الأخضر في نهاية الجدار؟ ربما كان ذاك أو هذا. لن يفيدني تأكيد. الشمس والصنوبرة والقرميد وأنت الواقف قبالتي. صامتاً وتبتسم.

- إلى أين أنت مسافر؟ قال لي.

ـ إلى طنجة، أجبتُ. فيما السفر بعيد عني وطنجة بعيدة.

ـ إلى طنجة؟ سألني ثانية.

ـ إلى طنجة، أكّدت. ولا أدري كيف نطقت بطنجة ولا سبب ترديد اسم طنجة بالذات. صوت آخر غافلني ونطق بها على لساني. صوت من بعيد الغياب.

ـ الحافلات موجودة، ولكن طنجة غير موجودة. هكذا صعقني بابتسامته وكلماته المتسللة من بين ثنيات وجهه الضحوك.

انصرفتُ وانصرف. من دون انتظار أو تحية وداع. في اتجاهين متعاكسين انصرفنا والصعق يشملني. مَن هذا الصوت الذي كلمني؟ والصوت الذي تكلم عبر لساني؟ ثم الصمت المفاجىء كأنه أول الخلاء. خطوات تليها خطوات. في الخلاء. والصعق. والكلمات الفاتكة. والجغرافية الباطنية لعالم لم أتعوّذ بعْدُ عليه. شيءٌ من الحُمّى. هذا المجنون. الحكيم. شاعر الكلمة اليتيمية. طنجة غير موجودة. والْتفِتْ إلى صدْرِك. بحفرته الفارغة.

كان عليّ أن أتوقّف عن القراءة لفترة. حتى أنصت لهذا الولي الفاسي في أواسط القرن العشرين. عارياً إلاَّ من كلمته اليتيمة. هو ذا المجنون يَحُلُّ ضيفاً على المجذوب. صمتان في صمت. هيبتان في هيبة. هل هي بداية الطريق أم نهايته؟ في السفر إلى طنجة والسفر إلى الكتابة. معاً. يترافقان. في الخلاء الذي رضيت بغوايته. ذلك الصباح. والشمس. والصنوبرة. والقرميد. وطنجة غير موجودة.

وأنت، أيضاً. كيف ناديت عليك، من وسط مقهى الرونيسانس؟ لم ألتقِ بك من قبل. تيهانك هو ما قرّبني منك. عندما ناديتُ «آجِي» وجئتَ صارخاً. أخذتَ الكرسي واتكأتَ. تصرخُ وأنا أرى إليك. بقميصك السماوي. وشعرك الحليق. تصرخ في الطاولة. وفي الأرض. تصرخُ وتضحك. تتوتر عضلاتك. تتنفّسُ طويلاً وتضحك لتصرخ.

ـ ماذا تشرب؟ سألتك.

ـ شيء، لا يحتاج للهضم، أي شيء. كان ردُّك فورياً وصارماً.

ـ قهوة بالحليب؟ حددت.

ـ لا قهوة ولا حليب. اطلب لي شيئاً لا يحتاج للهضم. أجاب هذه المرة.

ـ إذن، خذ أَتَايْ. بالنَّعْنَاع. لعله يلائمه، قلت في نفسي.

ـ لا. الماء. الماء فقط. واجهني بحدة.

طلبت كأس ماء. وفاجأتني. فتحتَ أزرار القميص وعرّيتَ صدرك.

ـ ألا ترى؟ قلتَ لي، وتابعتَ:

ـ لا قلْبَ لي. لا كلي ولا كبد ولا أمعاء. صدري فارغ. بطني فارغة. قادوس في الحلق. ثم البئر. أشرب الماء فينزل في البئر. وفي البئر أنام. أنا وعيشة. أختي. ننام في البئر. والماء لا يحتاج إِلى هضم.

واستمر في حديثه عن جسده الذي ينام ولا يموت. ينام مع الغروب ويصحو مع الغروب. يصحو مع الغروب لينام. ولا يموت. وأنت ستموت. قال لي. وأنت تكلمني وأنا صامت. في مكان يغيب عني روّادُهُ. كلماتك وحدها تمتلىء بقشعريرة تخطف البصر.

(5)

من أين أتيتَ؟ أنتَ وهُوَ. أنت وهم جميعاً. أولياء ضاقت عنهم المدينة. فاس والسؤال عن الذات. وعنك أيها التائه بين الطرقات. من الجذبة والجنون إِلى الكتابة. مجنونان. لا. مجانين. يسكنون متآخين في السريرة. ينهض ويقرأ القصيدة. وهي تشتُمُ. وهو صامت. وتحت الطرقات طرقاتٌ أخرى. صداقات محجوبة. تفتحُ أزرار القميص. وعلى الجدران تكتب بالفحم إشارات مائية. وهم يطاردونك. باسم القانون الذي يجهلك. يتناسون الهيبة ويرمونك خارج المدار. لأنهم لم يَعُودُوا منتمين لأسرار الساكنين. وأنت توصيك المدينة. عليك أن تُودِعَ صداقاتك المحجوبة حيث لا أحد يطاردها. بين القناديل. والأناشيد اليتيمة.

5. ذاكِرةُ الضّوْء

(1)

من أين يأتي الضوء؟ منْ بياض الجِير الحارّ أو من تموّج مراتب الاخضرار؟ سقط عليّ هذان السؤالان بغتة، ذات يوم بعيد، وأنا عائد من جولة قمتُ بها وحدي إلى بساتين وِيسْلاَن، الواقعة خارج سور فاس العتيق، من جهة باب جْديد. احد الأبواب الكبرى التي كانت، فيما مضى، تُغْلق مساءَ خشية هجوم مفاجىء على المدينة.

أثناء العودة، من تلكَ الجولةِ، أحسست بأن الضوء أصْبَحَ وهو يتذبذب في الخلايا ينساق نحو التعدد. وبأنه يتحوّلُ، ببطء، إلى أخٍ يمكنني العثور عليه في أكثر من مكان. كنت أحس، أيضاً، بأن الانتعاش والدُّوَارَ يتآلفان. في أعضائي كلها. يتبادلان المواقع ثم يضيعان. شيء غريب حدث ذلك اليوم الربيعيُّ. فالضوء يتّسِعُ وعيناي تتسعان. الضوء يحيط بي وأنا أسيرُ على مهَلٍ. متجهاً نحو عتمات آخر الظهيرة. وهي تتضح شيئاً فشيئاً. بين الأزقة الضيقة.

لم أعرف. حقاً. ما الذي هداني لوضع السؤالين. ربما كانت حالةُ جسدي هي السبب. ربما كان فِعْلُ الوحْدةِ التي امتلأتُ بها في منطقة لم أكن متعوّداً عليها من قبل. سؤالان ما زلت أحافظ على رَنينهما، بالانتعاش ذاته والدُّوار ذاته. وعندما استقبلني السؤالان لم أكُنْ متهيئاً لهما. ولكنهما لم يبعثا فزعاً في الشفتين أو العينين. الضوء وحده كان يَستوْلي عليهما ويسكنهما. كذلك أحسست، في مراهقة عشتُ، لاحقاً، تمرُّدَها على ما يمنعُ عنّي أن أكون أنا.

فهل كان السؤالان أوليات تمرُّدٍ على حدود الضوء التي امتثلت لها عيناي في سنواتها الأولى؟

(2)

سطح البيت والجير. من السُّفْليّ كنت أصعد الدرج التي تكاد تبلغ الستّين. أصعد مرافقاً جدّتي لسقْيِ أُصَصِ الغُنْبَاز والفَنّ والعَطَرْشة. عندما ترفع يدَ المزْلاج، وتُخرج رأْسَهُ من الثقبة بحركة خفيفة، كنتُ أتراجعُ إلى الوراء، حتى تنفتح بوّابةُ السّطح الخشبية وعليها واقيةٌ من القصدير. الباب ينفتِحُ وتوّاً تغلُو حرارةُ الجيرِ. بياضٌ حارٌ. لا ترى عيْني غيرهُ. بياضٌ يُغطّي البَلاَطَ. يمتد أفُقيّاً ولا يصطدم بنهاية سُور البيْت أو سور الحلْقةِ. هادئاً وأنيقاً يتشبّثُ بالسُّور. والسور تبتعدُ نهايتُهُ وتبتعد. لن أبلُغَها. وبياض الجير يتعلقُ البعد ويرتفع أمْلَسَ حتّى يستوي مع زرقة السّماء. جنباتُ السطح كلُّها. والبياضُ.

هكذا استسلمتْ يدايَ للضوء، وفيه عيناي ضَاعَتَا. ضوْءُ الشّمْس يمتزجُ بالجيرِ الأبيض. هما مادةٌ واحدة. لا عِرَاكَ بينهُما أمام عيْني. يدٌ تلْمسُ الضوءَ ويدٌ تتّكِئُ عليها كتفي. الضوء يسْتقرّ على ظهر الكف. تتحرّكُ وهو مُسْتقر. والضوْءُ يحرّرُ لون البشرةِ كما يحرّرُ لوْنَ الجير. بلَى. كلُّ ما يمسُّه الضوْءُ يتّقِدُ ويقْتربُ منَ العين. حتّى الظّلُّ منسوجٌ من الضوْء. نفحاتٍ يسْري في أعْضاءِ الجير والظلّ والضوء.

والبشرَةُ تتورّدُ. أباعِدُ بيْن أصابع اليد الخمسة فيتّبعُ الضوْءُ مَسَالكَهُ، حسب ساعات النهار. شاقولياً أو منحرفاً أو مائلاً. عجباً. هذا الضوء. يخْرجُ من بياض الجير وينبسطُ على كفّي. إنّهُ خفيف. فراشةٌ على كفّي. ولولا رؤية العيْن والحرارة لما تأكدتُ منه. أخفُّ من الهَوَاء. ويُغطّي السطح بكامله. أطوف بالجير وبالبياض. والضوء مستقِرٌّ علينا جميعاً. نحن أصدقاء. الضوءُ والجيرُ والبياضُ وأنَا. لا أحدٌ مِنّا يُزعجُ غيرَه. أنبطِحُ فأرى الضوْءَ يتدفّقُ على أزْهار جدّتي وعلى القرميدِ الأخضر فوْقَ بوّابة السّطح. أنجذبُ لرؤية أخرى فلا يحضُر غيرُ الضوء. يخرُجُ من الجير. ضوْءٌ وبياض. في السطح والأيام التي رتّبَتْ لي ذاكرة الضوْء.

(3)

ولِمَ السُّؤالان انبثقا ذلك اليوم، وأنا عائد من الجولة بيْن بساتين «وِيسْلاَن»؟ يكفي أن أُقِرَّ بأنّي لسْتُ أدْرِي. ومُهمّتي تنفرُ من الإصرار على الجواب. حدث ذلك. فقط. ولن أدافع عن شيءٍ ما. علموني أن أقْبَل دائماً بالاتهام، ومراهقتي قادتني إلى التمرُّدِ على ما لم أجِدْ فيه أنا. ببساطة وعفوية أيضاً. والسؤالان أباركُهما. دائماً. كلما تذكّرتهما وتذكرت ضوء ذلك اليوم. وهو يضيف إلى رؤيتي رؤية ثانية. تتسع بها العين لتكبر ويكبر معها تاريخها وذاكرتها.

ذلك اليوم في وِيسْلاَن. فضاء القمح واسع وهارب في آن. السنابل تهتز مع الهواء. والضوء أخضر مصابٌ بالدُّوَار. من بعيد لبعيد. يتوالى اهتزاز فضاء القمح ومعهُ تتبدّل مراتب الضوء. من الأعالي ينحدر ضوءُ خضرةِ أوراق الزيتون لامعاً، كما لو كان منسوجاً من قشور الزّبرْجَدِ والزمرّد. مترقرقاً ينحدر لينساب أمام الرؤية الثابتة. أشجار الزيتون تتخلل جانباً من فضاء القمح. على اليسار. ومن البُرْج المَرينيِّ ينحدر الضوءُ الأخضر. ويتيه. مراتبَ مراتب. زيتوناً وقمحاً. هضبة ضوئية لا نهاية لها. والضوء مُتسِعٌ. ينحدر إليك ليلْبَسَكَ وتَلْبَسه. بعُنْفِ لذةٍ تسْرِي في الأعضاء. حتى لا ترى غير الضوءِ الأخضر يشملُك فتنْسَى أن لك جَسَداً مُفارِقاً. لا شيْءَ غير الضوء.

وأبادر. بغير إرادة منِّي. إلى المشي بخُطًى بطيئة. أجتاز سكة القطار. الرابط بين ميناء الدار البيضاء وتونس العاصمة. أتشبث بالتراب وأرتمي وسط القمْح. يعلو بي التراب وسنابل القمح تتسلّقُ صدْرِي. تعْلُو بيَ الأعالي وأمامي مُتّسَعُ خُضْرةٍ سامقة. أشجارُ الرُّمّانِ والبرتُقال والبرقُوقِ والليْمونِ. ضوء أخضر يكثف إشْعَاعه بألوان الأزهار. كوْنٌ من الضوْءِ الأخْضَرِ يدنو منّي. أفُقاً يبْني أفُقاً. ولي كلُّ هذا الاخضرار. بأيِّ يديْنِ أضُمُّ هذا الضوء وبأي عيْنين أشرَبُ. أنا الآن سكران. خضرةٌ في المدى وخُضرةٌ في الأفق. والضوءُ أمواجٌ تنفجِرُ في داخلي. يتأكد صمْتي من أنني لَسْت هُنَا. يداي أغصَانٌ من الضوءِ وجذْعي سيقان قمْح. هو ذَا اخضرارِيَ يتْلُو عليَّ صمْتي ونِسْيَاني وغيْبُوبَتي. كوْنٌ من الضوْءِ الأخْضر يسْتَوْلي عليَّ فأطيع. في الأقاصي التي لا أعرفُ عنها شيئاً. هناك.

ذبذباتٌ تتولّدُ وكُلّي أرى. تولُدُ في ضوْءِ ذلك اليوم. هناك أودعتُ جسَدِي بين مراتب الضوْءِ الأخضر. وما بي حاجةٌ لأعْرِفَ. معْرِفتي نسْياني. وغيْبوبَتِي رُؤْياي. الهواءُ روحٌ مجنونةٌ تحرك الضوءَ. والأخضرُ يدور. قمحاً وأشجاراً. كوْنٌ يدُور. وأنا نقطة ضوء خضراء. أسْطَعُ اخضراراً وأدور. أتفتّتُ ضوْءاً. أنحَلُّ في مُرْتَمَى الصَمْتِ وأدور.

(4)

انتعاشٌ ذلك اليوم ودُوَارٌ. ولن ينْزَعَ منّي أحدٌ ضوْءَ ذلك اليوم ولا ضوْءَ اليوم الذي قبله. ميلادان بين حدائقِ الضوْء. إنهما ملائكتي وأسمائي. موشومان على كتفين شفّافتين. أراودُهُما كلما أيقنْتُ أنهما خفيفتان. لا لأسْتَرجع طفولة بل لأصونها عن الابتذال. في الصمت الذي يضيء. من ممرّاتٍ إلى مَمرّات. كلما أيقنْتُ أنهما وحيدتان. أهمس في الأطفال الذين كنت: إليّ أيها الأطفال تعالَوْا. تَعالَوْا وادخلوا واحداً واحداً. لتشْهدُوا على فُقدَاني.

ذلك اليوم واليوم الذي قبله. ذاكرةُ الضوء. وأنا لاَ أدري. قليلاً قليلاً كنتُ أختطفُ حريتي وأُفْسِحُ لعيْني في مدارات الضوء. فاسُ الضوء. ليس سهْلاً أن تتعلّمَ ضوْءَ فاس، من العتمات، التي تأوي إليْها المدينة. تُضاعف الأضواءُ حيْرةَ السالكين. متاهُ الضوء هي فاس. بمُجرّدِ ما تأخذك المسارات وتختفي فيها. كأنك لست من هنا لست من هناك. سالكاً زَنْقاتٍ وأسواقاً. فاقداً لخطّك المستقيم من باب إلى باب. تضيع. لأن ذلك سرُّ فاس، الذي يجهله السالكون المتعجّلُون، الذين لا يسْتحقّون ضوء العتمات.

(5)

المداراتُ تكْبُر بين البيْتِ والجامع ثم بين البيت والأسواق. شبكة من الضوء تسْتَوْلي على المدينة. من بين شقُوقِ السقوف القصبية. المنتشرة في عموم الأسواق، تنفذ قطرات الضوء حادّةً لتصل السماوات بالأراضي السبْع. تطهّرُ السالكين من تَعَبِهِمْ وهم لا ينتبهُون. تنزل القطراتُ ياسميناً متجدّدَ الحالات. أبيض وأصفر. ينزل ولا يسْتقِرُّ. ينزل ليلْمعَ على الوجوه والألوان والأصوات. من العطّارين إلى الشرَابْلِيّين إلى الطالِعَة الصغيرة أو الطالعة الكبيرة. كما تشاء.

من ضريح إلى ضريح. وداخل كل درب مساقط أضواء تخترق العتمات. قفْ ولا تتعَجّلْ. أسْنِدْ رأسَك إلى الحائط واترُكْ قلْبكَ عنْدَ مساقط الضوء. خُضْرَةٌ تنْحَني من الأعالي. حتى لا تكون وحيداً. من هنا مرُّوا. جميعُ أجدادك. أنْتَ تمُرُّ ولَنْ يمُرَّ أحدٌ من أحْفَادِك. في هذا الضوء الذي اكتسَتْ به حضارةٌ أحاطتْ بخصر الكون. قطراتُ الضوءِ التي ألْغَتِ الحاجزَ بين الداخل والباطن. تجْرِي في دمائي. وتَجْرِي في قصائدِ الملحون. على بابِ ضريحِ. منْ سِرَاجِ إلى سرَاج.

6. المطْبعةُ ومخْلُوقَاتُها

(1)

أكثر من ثلاثين سنةً قضيتُها في المطبعة. عمُرٌ عجيبٌ أو هي حكايةٌ عجيبة. والسنة الواحدة من تلكَ السنوات تبدو لي، اليوم، وكأنها قرون شختُ وولدتُ فيها بدون انقطاع. كل مطبعة بيتٌ تتعدّد غرفُهُ وطبقاته. بهندسته الشخصية التي واكبت الحضارات، القديمة والحديثة. بيوتٌ سكنْتُها حتى أصبحْتُ أحد أفرادِ عائلتِهَا. والعائلة قد تكون، أحياناً، عبارةً عن قبائل مهاجرة. يتقاربُ الوقتُ الذي قضيتُهُ في المطبعة مع الوقت الذي خصصته للبيت. حيواتٌ كانت، على الدوام، تسْتدرجُنِي لحكاياتها الصغيرة. العابرة. أو لأوضاعِهَا المركّبة البالغة في التعقيد. وهي، في حالاتها المجتمعة، دفعتني للإِحساس بأني أبحرتُ في مراكب من عُهودٍ متباينة. معها يصبح الطبعُ بحراً متبدِّلَ الأمواجِ والسماء والألوان والشواطىء.

وأنا أحبُّ البحر. عتبةُ المطبعة شبيهةٌ بعبَّاراتِ أو جُسَيراتِ المراكب والسفن. بمجرّد ما أضعُ قدمي اليمنى أو اليُسْرى (لا بأس!) على أرضية المطبعة تستولي عليّ مخلوقاتُها. وفي الوقْتِ ذاته أجدُني أنشقُّ على ذاتي؛ شقٌّ يتخلَّى عنِّي، لينطلقَ إِلى ناحيةٍ ما. آلة. أو طاولة. أو صُوَر. أو قلَم. أو حركة يدٍ؛ وشقٌّ يتيقّظُ ويشْرَعُ في قراءةِ المستحيلات. حيث الآلياتُ أو الأعمال أو الأوامر تمنحُ للمطبعةِ مسارَهَا الاعتياديَّ في طلبِ الربح الذي لا يعبأ بغير الربح. هذا الانشقاق في الذات فسْخَ الأعصاب قبل أن يخصها بلحظة انتشاء. وهي تشهد على ميلاد صفحة أو لون أو مجلة أو كتاب. بمخلوقاتها السعيدة.

(2)

عجيبُ الحكايةِ تعلمتُ كيف أخفيهِ بين ثنية الكلمات. لأن أغلب أصدقائي، من الكُتّاب المغاربة، لم يختبروا المطبعة ولم يقتنعوا بالذهاب إليها إلاّ اضطراراً. أوْ هُمْ يضعُونَها في مرتبة المتعارِض مع حياة المبدع التي تمتد من البيت إلى المقهى. قد يكون لهم الحقّ في ذلك. ولست متأكداً من أن تجربة آلام المطبعة المغربية ملزمة لهذا أو ذاك حتى يقترب من آلام الثقافة والكتابة في المغرب. أنا الآخر عاشق للمقهى. حيث يمكنني الجلوس هادئاً لأقرأ صحيفة أو صفحات من كتاب. أما الكتابة فلا أتذكر أنّي مارستها ذات يوم في مقهى.

مع ذلك يظل عجيبُ الحكايةِ عجيباً. يبدأ في الصّاغَةِ. سوق الشاي بامتياز. دروب الصاغة متقاطعة ومتقابلة. كل منها يؤدي إلى سرداب معتم لا تنفذ إليه الأضواء الخفيفة إلا من فتْحَاتٍ معلّقةٍ في أعالي الأسوار. وعند رأس الدرب المقابل للحارةِ بابٌ وطئتُ عتبتَهُ صحبة صديق صباي أحمد الرّايس، ابن الحاج عبد الكريم الرايس، رئيس جوق البريهي للموسيقى الأندلسية. إنه مطبعْجِيٌّ أيضاً. هو وأخوه. والأبناء يعملون جميعاً في المطبعة.

ما العلاقة بين الموسيقى والمطبعة؟ سؤال لم أطرحه أبداً على الحاج عبد الكريم. باب المطبعة من خشب الأرز المنقوش بزخارف نباتية، وزيتُ الدهن يحافظ على لمعان نتوءات الحفر، جهة جمعة الضوء. على الأرض مربعاتُ الزلّيج. والمجاز طويل وضيق. ثم في النهاية مدخل تتسع بعده فسحة المكان. تزاويق الجبس وتزاويق الزلّيج. آلات قليلة من حديد تتحرك بعضُ أجزائها من غير هدير.

هذه مطبعتي الأولى. الرّجْل تضغط على الدوّاسة. واليدان تنخفضان وترتفعان بسرعة وأناقة. يد تضع ورقة على لوحة خشبية ويد تختطفها بجاذبية لا تعرفُ مصدرها. بيضاء تنزل الورقة على الخشبة وفي أقل من لمح البصر تُطبَعُ عليها الحروف الرصاصية بسوادٍ صارم. عيني لا تتوقف عن الرؤية. حروف مثبّتةٌ ودوّاسة تعْلُو وتسْفُل. بطاقة زيارة. بطاقة دعوة. ورقة دعاية. فاتورة. ولك ما تشاء من خطوط التزيين. الرقة والسمك. الأشكال الهندسية المحدودة الأضلاع. زخارف للإطار. وأمرّرُ أصابعي على الورقة. نتوء تكاد لا تراه العين. تحس كأنه يجري تحت رؤوس الأصابع. أو يهدأ قليلاً. يستسلم لدفء الأصابع

والبصمات. جلد يحتَكُّ بجلد. والورقة مستقرَّةٌ بين يديك. الحروف تنعُمُ. تستطيل إلى كلمات. والمطبوع مخلوق أليف. عينان ناعستان. عنقٌ قرمزيٌّ. فرْوٌ من حرير. تتبادل وإياهُ النبضات. الدفء. وشيءٌ مَا يهجّجُ الكلمات.

(3)

تابعت الدراسة فيما أحمد تابع العمل في المطبعة. نحن مطبعْجِيَّةٌ، كان يقول لي، أباً عن جد. أزوره أحياناً. مخلوقات تتشكّل في أحجام. والأحجام في أوراق. والأوراق في دفاتر أو كرّاسات. أتغيّبُ طويلاً لأعود. أتفقّدُ هذه المخلوقات. والمطبعة لعبة. لكنها لعبةٌ ماكرة. بين جسدين. بين المعلوم والمجهول. دفءٌ وشُعَاع.

مرّةً فاجأني بانتقال المطبعة إلى مقر جديد بالطالعة الصغيرة، قرب باب بُوجلُود. إنها الآن تحمل اسم «مطبعة النهضة». هكذا يتكوّم التاريخُ على ذاته لينتفض. لطخةً على الصُّدغ الأيمن. بابٌ ضخم يوهمك أنه باب ضريح. مقوّسٌ. والبوّابتان ضلعان خشبيّان عاليان. واجهة زجاجية في العمق. وتنعطف يميناً لتقف وترى. بناية قديمة عارية الجدران. آلات وغبار. آلات وصناديق وأوراق. من عهود متنافرة. معرض لتاريخ المطبعة. آلات تشتغل وأخرى معطلة. والآلة هنا كهربائية. تجذب المقود فتشرع الأوراق في الطبع. الحروف المعزولة تنضمّ إلى بعضها. قضبان وقوالب.

في هذه المطبعة، وبالآليات الأولية، يمكن طبع ديوان أنيق. بهذا نفث السّمّ في دمي. أحمد. وهو يضحك. ألاَ تؤمن؟ لنجرّب ديوانك الأول. لم أصدق، ثم قلت: لِمَ لاَ؟ في الليل نصفّفُ الحروف المتّزنة. صفحتان أو ثلاث صفحات. وفي النهار يتم السحب. كان شهرٌ كافياً. تراكمت الأوراق المزدوجة. ورقتان مطويتان. أربع صفحات. وها هو «ما قبل الكلام» ينبسط على الطاولة. بحجم الدواوين الصادرة عن «دار الآداب». هذا ممكن حقاً. في «الطالعة الصغيرة» أيضاً. أرى إليه وأشعل سيجارة.

(4)

من فاس إلى المحمدية. يمكننا إصدار مجلة. «الثقافة الجديدة». بالآليات الأولية دائماً. خبرتي ساذجة والموارد المالية محدودة. وفي الدار البيضاء، بحي

الفداء، عثرت على المطبعة الملائمة. فقيرة. وأثمان مشجعة. مرة صاحبني إليها ضياء العزاوي حتى يتأكد. كنت أقضي جل وقتي في هذه المطبعة. حتى أحُدّ من التأخر في الصدور. ملصق الطماطم المصدرة إلى الخارج أسبق دائماً في الطبع من المجلة أو الكتاب. نفاد الورق أو المداد شيء عادي. وهيئة «الثقافة الجديدة» تتناوب في الحرص على صدور المجلة في موعدها. أيام من الانتظار من أجل هذا المخلوق الصغير. المدهش. والنسخة الأولى بجعَةٌ أو سنجاب. بعد قليل سيغادر المطبعة ليرتحل إلى بيوته عبر جميع مناطق المغرب. حتى في أزفُود أو بركان. خفيفاً يطير إلى البلاد الأخرى. هذا المخلوق ممكن. ومخلوقات به شبيهة ممكنة أيضاً. أكثر أناقة.

من مطبعة إلى مطبعة. من مركبة إلى مركبة. واللعبة ماكرة. ممكنة. قاسية. يوماً بيوم. المطبعة والبيت والعمل. مثلث عنيد. والممكن شعار المرحلة. يجتمع أشخاص ليؤسسوا مجلة. بيتٌ حميم. لم نكن نصدق ذلك من قبل. مطابع تقليدية تنشأ فيها مخلوقات تمنح الثقافي هذا القليل الضروريّ لهيئته. المجانين وحدهم صدقوا ثم توافد اللاحقون. نطبع ونصرخ. نطبع ونغني. نطبع ونتمزق. نطبع والمخلوقات تهاجر. بعيداً بعيداً. حتى لا أحد يعرف مجهول خط هجرتها.

(5)

التصفيف هو الجُمْلَةُ الأولى في طبع المجلة أو الكتاب. على غرار الجملة الأولى أو البيت الشعري الأول. مصير العمل برمته محدد في هذه الجملة الأولى. لك أن ترى إلى كثير من الأعمال ثم تنسى. التصفيف إبداع حقاً. أنواع الخطوط. أحجامها. مقاسات الصفحة. مكان الهوامش. الأبيض والأسود. الحروف بمفردها أم بمصاحبة الخطوط. علامات الترقيم. الصور والخطاطات.

على طاولة التركيب المضاءةِ بالنيون يسترسل خط المصير. ورقة التركيب جُمْلَةٌ هي الأخرى. كل كلمة تحتاج لمكانها المحدد. وأي اختلال أو اهتزاز يدمّر بنية النص بكاملها. لا تتسامح مهما بدا لك الأمر هيّناً. كما في الكتابة تماماً. وكل شيء نص. هذا ما تعلمته. من الكتابة تعلمت بعض أسرار الطبع

ومن الطبع تعلمت بعض أسرار الكتابة. والعين تتأكد وتهذي. مهيأة للالتفاف على الخطإ الذي يفتح، أحياناً، مسالك أخرى لبهاء المخلوق.

الورقة بشَرَة. ملْمَساً ولوناً. عند السحب يستبدُّ بي ارتجاج متوتر. أستَلُّ الورقة لأرى أوّلاً. البياضَ الكاسحَ. الممتدَّ. العين ترى. والأصابع خفيفةً تلمسُ الورقة. إنّني أحس نبضاتها تختلط بنبضاتي. صقيلة وهادئة هي الورقة. زغبٌ تلمسه ولا تراه. يفيض حليبه وأنت لا تراه. والكلمات تنتظِمُ في سهُوب. أعضاء تتناجى لترقص. خِصْرٌ وصُرّة. نحافةٌ منحوتة. وصفحات الشّعْرِ طافحة بشهوتها. بياضٌ وبياض. ورقةٌ تَعْذُبُ. ورقةٌ تهْمِس في عينيْكَ اخْتضِنّي. ورقة تهجُمُ عليك. ورقةٌ في ورقة.

والغلاف حيرةٌ متوقّدة. ليس إزاراً للحجْبِ بلْ وشاحٌ للكشف. غِنَاءٌ يفتِكُ دبيبُهُ حتّى لا أنْتَ هُناك ولاَ هُنَا. يحفر مجْرَاهُ إليك. واللوحةُ أخْتُ العنوان. يبحثُ كل منهما عن غيره. ينشبِكَان. يتآلفان. يتغاويان. هسيسٌ خاطفٌ أو وشوشةٌ لأعضاءِ الكتاب. عزْلُ الألوان. التركيبُ. السحبُ. مراحل أترصّدُهَا بكامل الشوق والرهبة. والتقنيون يفهمون ذلك جيداً. تلك ضربة النرد الأخيرة. واليد التي تنجز الغلاف تنادي على اليد التي تركت على الكتابَ إمضاءها. ويصمت الدهشةِ. شيئاً فشيئاً. تترقّبُ الكتاب. تنفرِد به، جليساً، هذا الكتاب.

7. شيْخ يُكَلمُ الأزْهار

(1)

لشبابي في فاس صباحاتُهُ وأُمسياتُهُ. كان ذلك واضحاً تماماً. جسدي ينضبط لتحوّلات النهار والليل. بيْن درجات الضوء والعتمة تتبدّلُ أمكنة إقامة جسدي. كما لو أن تلك الدرجاتِ سِرُّ أحْوَالي. باطمئنانٍ أنْدمجُ فيها وأتموّج. أهتدِي بجغرافيتها الكتُومةِ في رحيلٍ ينتهي دوْماً بالرّحيل. رحيلُ إقاماتٍ أنذهِلُ فيها بهدوء النّاسكين. صباحٌ وصباحٌ. والأمسياتُ نشيد أبديٌ بين تاريخ حيطانٍ ووجُوهٍ لا تفصح لي بالضرورة عن زمنها.

الظّلُّ خُلوةُ جسدي. بين الجنان المتصاعدة من باب الخَديدِ إلى باب جْديد. طريق لذوبان نقطة واحدة. نقطة حجاب لا ينكشف بعده غير الصمت. من هنا إلى هناك. شيئاً فشيئاً أغادر عابرين بكلامهم وخطاهم شبه السريعة ليستقبلني ظِلُّ أغصانٍ تترامى في نداوةٍ معبّأةٍ بعبيرها. خضرة في الجانبيْنِ وفي الأعالي. ترتفع وتميل طبقاتٍ طبقات. خضرة تنحدر من حيث لست أدري. وضوء هذا الأخضر لا نهائي. يكسوني بصمت أندلسي.

ظُهْراً ينشأ هذا الضوءُ الذي يكون جسدي مهيّأً له بعد عودتي من الدراسة. لي ما يكفي من الوقت لأرحل في هذا الضوء بصحبة شاعر ألتقي به في الصمت. لا أحد يعلم شيئاً عن هذا اللقاء. وحدي أتوجه إلى صمت ذلك المكان المضيء بخضرته وأزهاره. عند أوّل منعطف أتبادل وجسدي بطءَ الخطوات ثم استراحةَ الأنفاس. لن يطاردني شيءٌ هنا. حَقّاً لن يطاردني. وأنا متأكد من ذلك.

خطوات تحت انحراف الظلال. وفي كل خطوةٍ قليلٌ من الصعود في تِلٍّ متفرّدٍ. خرير مياهٍ في بعض الجنبات. طيورٌ تنسجُ لانفتاحِ السماءِ مدًى شفّافاً هو هذا الفراغُ الحكيم. خطواتٌ نحوكَ أيُها البستانُ الذي تتنزّلُ فيه طمأنينةٌ بها يحتفي جسدي. سيّارات نادرة أو شُرفاتُ نساءٍ منهمكاتٍ بترانيمَ وأيديهنَّ تطرّزُ ما لاَ أراه.

(2)

بابُ البُسْتَان لوحةٌ خشبيةٌ مغطاةٌ بقصدير. بابٌ متكئة على جذْع شجرة توت. ظلال تحتها ظلال. يَمرُّ الغرباء أمام الباب ولا يرونَها. بابٌ شبحيّةٌ على حدود العتمات. هادئاً أدفَعُها بكفَيّ لاجتياز العتبة وهادئاً أعيدُهَا لوضعية الاتكاء على شجرة التوت. بابٌ هي، في الوقت ذاته، منغلقة ومنفتحة. بابٌ لِلْمَابيْن. برْزَخٌ يجتازُهُ العارفونَ بسرِّ الباب.

عجيبةٌ هي هذه الباب. لا خرصةٌ ولا جرس. ادفَعْهَا قليلاً وهادئاً تقدّمْ. لا تعْنُفْ بها. لا تضْطرِبْ. شيءٌ مَا أسَرَّ بهِ لكَ ولا تعرفُ كيْفَ أتى وألْقَى بنفْسِهِ في ناحية ضائعةٍ من جسدك. لعلّهُ ضوْءُ العتمةِ. لعلّهُ الجُلّنَارُ الذي يُفْسِحُ لعينيْكَ في سُطُوعه. لعلّهُ أنْتَ أو أنا. الحاضِرُ أو الغائبُ. مَنْ يدْرِي. تلْكَ الباب. تنفتح لك ولعشيرةِ العارفينَ القاصدينَ الوَالِهِينَ. وأنْتَ أنَا.

صَرِيرُ البابِ نَاعِمٌ. صَرِيرُ البَابْ.

تقدّمْ. ها هُوَ الجُلّنَارُ جمرةُ الظّهيرةِ في عُنْفُوانِ أفُولِها. سقيفةٌ قصبيّةٌ مُهوّاةٌ تستريحُ عليها داليةٌ يتّقِدُ اخضرارُها بضوءِ آخرةِ النّهَارِ. والشيْخُ بيْنَ زُهورِهِ لا يُبَارِحُها. بجلْبَابِهِ الصوفي. كالعادة. هناك منشغِلٌ بما لا تدْرِي. حين تراهُ أوّل مرّةٍ. وتراهُ ثانيةً. ولا تقْدِرُ أنْ تُدْرِكَ ما تفْعَلُهُ يداهُ بين الزهور. التي تحيط به. ولا تتركُ أحداً منه يقترِبُ. أو يشوّشُ على يديْه.

تقدّمْ، إذنْ، أيُها المريد. وأتقدّمُ. بصحبتي شاعِرٌ. هو الآخر هادئٌ. لعلّهُ كان المشيرَ عليَّ بِكامل هُدوئي. وأنا أدفَعُ البابَ. لم أميّزْ بيْنَ إشارتِهِ وغيْرِهَا منَ الإشاراتِ الصادرة عن مجهولاتي. أتقدم بخطواتي البطيئة نحو فضاء مُسَوّرٍ بعَازِلاتٍ قصبيّةٍ مقصُوصَةٍ على عُلُوٍّ قصير. تطوف بها نباتات لا تغادرها نجومُها.

بألوانها البيضاء الورْدية الحمراءِ الشمسية الزرقاء. قرنفُلٌ سعيد يطوف النهارَ كلّهُ والليلَ كلّهُ بالعازلاتِ القصبية. خطٌّ من السّوْسن أمامك. ومِنْ فوقك الياسمين بيضاءُ وصفرَاء.

هذه مقصُورةُ ابن زيدون. يقول لي الشيخُ هامساً مِنْ فرط وداعته. وعند السوسن لوحةٌ خشبية بتزاويق نباتية وفي وسطها بيتان شعريان لابن زيدون. لوحاتٌ خشبية مماثلةٌ في الاستطالةِ والتزاويق عليها أبياتٌ لأبي نواس وابن سينا. إنها مقصورة الشعر والشعراء. يحضرون فيها من بعيد إلى بعيد. وتحت سماء فاس يلتقون بالعابرين. شعرهم موقِنٌ من خلودِهِ. أمامي وأمام غيري.

مساء الخير يا أصدقَاءَ الشيخ.

مساء الخير أيها المتّحدون بالضوء.

مساء الخير في مقام صفائكم.

مساء الخير.

أختار حافة المقعد وأجلس منتشياً بأنفاسي الطليقة في ازْرِقَاقِ الوحدة والصمت. ولأَدةٌ وابن زيدون يتناجيان قريباً من نافورة ماء. نيلوفرٌ ونسرين وحبَقٌ وسوْسَن. خدٌّ على خدٌّ. غير مبالييْن. والشيخ هناك. يتكلّمُ مع أزهاره المنبسطة على امتداد منحدر خفيف. تدنو منه الألوان والرياحين. يدندن بأصوات مبهمة ويحرك يديه. وبصحبتي شاعِرٌ أتعلّمُ منه سرَّ الرؤية وانتخابَ الكلمات.

(3)

إنه سِيدِي الشّاوِي. وليٌّ من أولياء الأزهار. عرفته، أول ما عرفته، في بستانه بين الأزهار. بجلبابه المغربيّ وطربوشه الأحمر التركي. يكاد لا يغادر بستانه منذ رؤيتي له في المرّة الأولى. يوم كان في الخمسينيات من عمره. قامة متوسطة ونحافة. يقيم بين أزهاره في «باب الحديد». شيخ يعيش بين شَعْبٍ من الأزهار. أوضاعه في البستان وحالاته لا تتبدّلُ كثيراً. هي هي ذاتها. منذ تلك الأيام التي لا تُفارقني نفحتُها. يشتغل بالسقي. يقتعد مكاناً بجانب الأزهار. يجني النعناع ليهيىء الشاي. أو يقرأ في كتاب.

منذ أن عرفته وهو على هذا النحو. ضيوف البستان، العارفون، نادرون على الدوام. أحياناً أقضي الساعات وحيداً. وأحياناً أقتسم وغيري مقصورة ابن زيدون. غريب هذا الشيخ! لم أره يوماً يسأل وافداً أو مغادراً. إنه هناك. حيث عليه أن يكون. يدندنُ أو يصمت. وفي لحظاتٍ تحسّ أن الأزهار تتبعه بألوانها ورياحينها. طواويس طواويس. ألوانٌ مذهبةٌ. تسمق مع هبوب آخرةِ الظهيرة. متسلقةً تضيء. وعلى الحوافُ تضيء. تطيع ابتسامته وتضيء. أزهار تمشي باتساع ضوءٍ تحمله أراجيح كلمات لا أحد غير الأزهار يفهمها. تملأ آخرة الظهيرة بتراتيل متواصلة مع امتدادِ أُفُقٍ أملسَ. لا حنين هنا. لا نحيبَ. أزهارٌ تتراقصُ فوق كتفيْ وليّها. أليفةً. نديّةً. تمشِي لتعبق. ابن زيدون. خدٌّ على خدٌّ. نيْلُوفَرٌ يُضيء. وأنا الذي رأيتُ الشيخ يكلم الأزهار. رأيت. شعْبَ الأزهار يتدفق من سواقي الماء. من حِضْنِ التراب. ومن كلامِ الشيخ. رأيتُ ورأى صاحبي. والوقتُ منذهِلٌ. أنا الذي رأيت.

(4)

أكثر من ربع قرن مضى. الآن. على زيارتي الأولى لبُستان الشيخ الشاوي في «باب الحديد». كل مرة أعود فيها إلى فاس أحرص على اللّقاء بوليّ الأزهار. قد يكون آخرَ ذاكرةٍ أندلسيّةٍ في فاس. من يدري؟ أعود بالهدوء ذاته إلى الصرير ذاته والزهور ذاتها والصمت ذاته.

الشيخ هو الشيخ. أصدقاؤه هم أصدقاؤه. في لقاء لي به، صحبة جاك ديريدا، فوجئتُ ببناء غرفتين متجاورتين في نهاية الجهة اليمنى للبستان. وعلى مقدمة إحديهما أبيات شعرية.

هذه الغرفة بناها الشاعر مفدي زكريا، رحمه الله، من ماله الخاص. فيها كان يقضي أيّامه كلما قدم إلى فاس من الرباط. كذلك صرّح لي الشيخ وهو يصب الشاي ويقدمه لدِيريدَا ولي. يصمت قليلاً ثم يسأل عن أحوالي. يحكي عن بعض العارفين الذين لا يخونون ظهيرتهم، فيما عيناه تكلمان الزهور. ثم يشير بأصبعه إلى هناك. حقول «ويسلان». حيث كان الشاعر الجَنوِي. الإيطالي الأصل. يراجع دروسه أو ينظم شعراً بعربيةٍ خالصة.

(5)

زياراتٌ تتوالى والشيخ محافظٌ على اطمئنانه. يقدّمُ لي مذكراته. أوراق مرتبة بأناقة. صور نادرة كان يجمعها منذ شبابه. أو قصاصات صحفية تاريخية. ملوك. وزراء. أدباء. مقيمون عامون للدولة الفرنسية في عهد الحماية. ثم يستفيض في الحديث عن الوزير الذي ادّعَى الجنون. بعد أن حضر مؤتمر الجزيرة الخضراء وأُرْغِم على قبول شروط الحماية، تمهيداً لاحتلال المغرب. خرج الوزير شبه عارٍ أمام أهْلِ فاس ليبرّىءَ نفسه. والحديث عن الجنون يتمازج بالحديث عن الأمواتِ. والأزهارِ. والماءِ. وبقيةٍ منْ فاس.

8. عِصَابَة

(1)

بِشَغْشعَةٍ وقليلٍ من الصخب، كنتُ أختفِلُ بتلك العِصَابة. عثرتُ عليْهَا ذات مرّةٍ في آخر الدرب. يتوافد أفرادُها على البيت العالي في الأوقات المحددة. من أحياء بعيدة، أحياناً، يتوافدون. دُق الخرصَةَ أو الجرسَ وتقدّمْ. بيتُ الشّامِيّ بعزصَةِ الطّاهريين يسْتَجِيب لهذه العصابة المنظّمة في مواعيدها وطقوسها. خمسة أفراد أو ستةٌ. ثم نتحلّقُ حوْلَ طاولةٍ فيما الكتُبُ تحيطُ بِنَا والموسيقى الكلاسيكية ليستْ غريبةً عنّا.

عصابةُ قُرَّاء. تتراءى اليوم أمامي ومعها تاريخ ثقافي للمغرب الحديث. لا أبالغ في شيء. تاريخ القراءة يتكامل مع تاريخ المجتمعات التي عرفت تداول الأبجديات. والقراءة ذات صلاحية في أن تكون مرْصَداً لأوضاعنا العربية العامة. القراءة في المدرسة والبيت. القراءة في المكاتب والطريق. القراءة في الحافلة والقطار والطائرة. القراءة في قاعات المطالعة. القراءة أثناء الانتظار. القراءة في المقهى. القراءة حتّى منتصف الليل. أمكنة وأوقات بعيْنِهَا نقيس وجودنا فيها بمقدار ما يتحقق له من القراءة. هذا ما علمتني إياه تلك العصابة، ثم تأكدت من كل شيء.

(2)

هذه العصابة تشبه عصَاباتٍ أخرى في فاس وغيرها. ولربما كانت القرويين قد ورّثتْنا هذا الالتفاف الجماعي حول القراءة. ربما أيضاً ما ترسّخ، شيْئاً فشيْئاً،

في المغرب الحديث. حيث كانت كتب النهضة الثقافية في مصر تصل إلى المغرب عن طريق تطوان. وتصل، في حالات مباشرة، إلى فاس. بفضل ما عُرِف آنذاك بالبريد الإنكليزي، غير الخاضع للرقابة الفرنسية.

لهذه العصابة ولاءاتُها. أعضاء لهم ولاءٌ لطه حسين. وأعضاءٌ لعباس محمود العقاد. وآخرون لفكتور هيجو. وقلة لبدر شاكر السياب. كان الولاء يعني اتّباع طريقة كاتب في قراءاته. كما في الطريقة الصوفية تماماً. وخاصة في مظهرها الشعبي. على نحو التّيجَانيّين والحَمَاذشَة وعِيسَاوَة. لكلِّ طريقةٍ حُجَجُها. وأوقاتُها. ورؤيتُها للثقافة والمجتمع والشرق والغرب. القراءة والحياةُ متفاعلتان. ونحن مراهقون. نقرأ ونتجادل. نقرأُ ويفعل كل واحد مِنّا ما يشاء. إعجابٌ أو سخرية خفيفة. ضحكات في مبتدإ المساء. تلتقي العربية والفرنسية. ورباط الحيّ أو المغامرات الغرامية أسبق على كل رباط.

كان الولاء لعباس محمود العقاد متميزاً عن غيره. وأعضاء هذا الولاء أكثرنا جرأة في رفض متابعة الدروس النظامية في الثانوية. إنهم يقرأون في بيوتهم. وبانضباط يقسمون ساعات اليوم. يستيقظون متأخرين، على عادتهم، ثم يشرعون في قراءة أي كتاب، مع إعطاء الأسبقية للكتب التي تنتقد الغرب أو تلك المختصة بالدفاع عن الثقافة العربية. ومن بين هؤلاء الأعضاء من كان شديد الإعجاب بالعقاد. دون أنْ يقرأ له كتاباً. أو يتّبع نمط حياته في القراءة. إن العقاد، في هذه الحالة، نموذج المعتمد على النفس الذي يحتقر مقاعد الدراسة بالثانوي كما يحتقر الحصول على الشهادات. أي شهادات. يتحدّى الجميع بذكائه وعبقريته.

(3)

كنتُ واحداً من بين أصغر أعضاء العصابة. رغم أن عمري كان يتجاوز ست عشرة سنة. شيء عادي آنذاك. كانت العائلات الصغيرة عادةً ما تمنع أبناءَها من متابعة الدراسة، مقاومةً منها للاستعمار. أنا الآخر كان أبي ألحقني بمدرسة النَّبْلِيدَة، سنة 1954 أو 1955. لا أتذكر تماماً. ثم رأى زوج عمتي في منامه رؤيا تشاءمت منها العائلة. فلم أعد في اليوم التالي للمدرسة. سلة القصب اليدوية

ظلت معلقة بأصابعي وأنا أرى إلى ما فيها. بيضة مسلوقة. كسرة خبز. بضع ثمرات.

أدق بقوة على بوّابة دار الشامي حتى يسْمَعَني الموجودون هناك، في أقصى البيت. غرفة المكتبة لصيقة بجدران بيضاء صامتة. بجدران عالية. وقبل بلوغ العتبة تعيّن لك الأصواتُ طبيعةَ الجلسة. أصوات في نهاية دهليز. أصواتٌ تهيىءُ صوتَك. أنت لست تدري مسبقاً ما سيكون عليه صوتك. الأصوات الأخرى هي التي تُهيِّئُكَ، ثم تحضُر بحريتك. قد تختار مقام الصمت، وتكون مع الموسيقى وحيدَيْن.

غرفة المكتبة واسعة بكتبها. في هذه الغرفة المحدودة المساحة تلتقي بمن تشاء من المؤلفين وأعمالهم. أغْمِضْ عينيك وانطِقْ باسم واحد مِنْ أشهر الكُتّاب أو الأعمال، ثم افتَحْ عينيْكَ لتجده بين يديْك. تحرص العصابةُ على توفير كل أنواع الكتب المفيدة والضرورية. بالإعارة والشراء والتبادل والسرقة. وأنت هنا تختار ما تختارُ. وفي سرعة مذهلة تكون قرأت الكتاب.

كان بإمكاني أن أكتفي بالتحية العابرة لأفراد العائلة. ثم أنعزل مختلياً بالكتاب. إنه مجنون. هكذا يُسرُّون لبعضهم دون أن يصرحُوا لي بشيء. مجنون الفلسفة. مجنون الرياضيات. تسميتان عوضتا مجنون الدمياطي، كتاب السحر الذي كان منتشراً بين خواص المتصوّفة. ومنذ بداية الاستقلال كثُر مجانين نسَبَ الناس جنونَهم للفلسفة، وهي تسأل عما يحرم الدينُ السؤالَ عنه، أو للرياضيات التي لا يجاري دقتها إلاّ أصحاب العقولِ والمخاخ الضخمة. تلك هي صدمة المعرفة الحديثة في المجتمع الفاسي.

ربما كنتُ مجنون الفلسفة في نظرهم. بعد أن غيرتُ بعُنْفٍ شعبة الرياضيات بشعبة الأدب. ولكني أشك في ذلك. فهم لا يدركون هذا النمط من التفاصيل. إنني بالأحرى مجنون القراءة. ولم أكن أستحق هذه التسمية النبيلة. القراءة وطدت عزلتي فيما عزلتي بدورها وطدت القراءة. وتحت طبقاتِ العزلة تختفي الكتابة. ولا أحد اطّلَع، من العائلة، على ذلك. بلى. إن الكتابة أقصى مراحل العزلة! والكتابة، في الوقت ذاته، غضب لا ينتهي. غضب أتى ليحرق الموانع. واحداً واحداً.

القراءة في أعْلَى غرفة بالبيت. دُرجٌ قليلةٌ وها هوَ السطح. القراءة والعزلة. القراءة والصمت. وهذه القراءة هي التي دلتْني على ما لستُ أنا. ثم إنّها غالباً ما خلطت بيْنِي وبين غيْري في النصوص الأدبية والدراسات التحليلية. على أنها أيّدَتْني، تأكيداً، في البحث عن ذاتي. صامتاً أو متحسّراً. كئيباً أو منتشياً. كانت القراءة ضرورة ميلادي الجديد. الذات. هنا. كانت تعبث بقواعد الامتثال. كيفما كانت متداولة في المجتمع. من أجل علاقة أخرى أساسُهَا حريةُ أن أكون مختلفاً لا مُتماهياً. قادراً على الاختيار لا مستجيباً للأوامر. شاكاً متصعْلِكاً. أو مهاجراً في بلادٍ وبين أقْوَامِ ولغاتٍ وثقافات. أُومِنُ، ليْلاً، بما أشاءُ. وأنكر، صباحاً، ما أشاء.

(4)

عصابةٌ ممجّدةٌ. بين الحي ودار الشباب في البطحاء كنا نقيم. جمعية ابن خلدون كانت تؤالف بيننا هناك. كما كانت الكتب تؤالف بيننا هنا. وفي نهاية النهار مواويل مصرية أو عراقية أو أندلسية. حسب الصدفة. والحالات. لا نحتم موعداً للقاء. هناك أو هنا. بقدر ما تكون عودة آخر النهار جماعية. وفي الطّالعة الصّغِيرة نمرُّ من مكتبةٍ إِلى مكتبةٍ. نطّلِعُ على العناوين الجديدة الواصلة من بيروت والقاهرة. أو نبحث عمّا افتقدْنَاهُ من قبل.

لم يكثر عدد أعضاء العصابة. أعضاؤها هم أعضاؤها تقريباً. ولا أتذكّرُ أننا تخاصمْنَا في يوم من سنواتنا الأولى الأساسية، بل حتّى عندما استبدّت بنا السياسة، لاحقاً. ظلت المودةُ بيننا محافظة على توازُنِهَا. وذلك العدد القليل من الأعضاء قد يكُونُ أكْسَبَنَا مناعةً. ولِمَ لا نقولُ إن ولاءاتنا الثقافية كانت مجردةً عمّا يتعارض والثقافة. بفعل البعد بيننا وبين القاهرة أو بغداد أو باريس أو بيروت. ربما. ربما. وفترةُ التكوين. ألمْ تكُنْ مؤثرةً في ذلك الصفاء الذي أهّلَ كل واحدٍ مِنّا ليقرأ بحريّةٍ لا مجال معها للاتهام بما باغتني، في السنوات الموالية، من أحكام أصدرها اليسار على قراءاتي؟

حقاً. تلْكَ العصابةُ المخلصة، دون علْم منها، لتقاليد القراءة الجماعية في المغرب الحديث. بدءاً من الثلاثينيات، التي دخل فيها إِلى المغرب كِتَابُ

مشرقيٌّ لا يشبه الكتب المطبوعة في المطبعة الحجرية بفاس، والمتداولة بين طلبة القرويين. كانت عصابةً تتلقّى سِرَّ البحْثِ عن الكتاب وقراءَتِهِ ومناقشته. وبانتمائي إليها كنت، بعلْمٍ مني، أصاحب حريتي القاسية.

(5)

ألاَ تستحقُّ هذه الجماعة كلمة عصابة؟ كم هو مطمئن هذا السؤال! تلك الأيام، بين 1965 و 1967، كان كل واحد من أعضاءِ العصابة مدعوّاً للمزيد من القراءة. نترك العائلة ونسْتسْلِمُ للعواصف. مريدون ضاعَ عنهم شيخُهُمْ. يستحضرونه ويقاومون. بين عتمات الأزقة وأضوائها يحملون كتباً هي ما يملكونه لافتتاح عالَم آخر وحياةٍ أخرى. غبطةً واقتداراً. يحملونَ كتباً. ليسرقوا أبجديّة حريتهم. ولاَ ينامون.

9. قُبّةٌ منْ وَرَق

(1)

كان لا بُدَّ أن تمُرَّ سنوات قاسيةٌ قبل أن أتأمّلَ ذلك اليوم، الذي وجدتني فيه تحت قُبّةٍ من ورق. سنوات قاسية. لا يكفي نعتٌ كهذا لبلوغ مخابىء الحريق، وهي تتسع في جسدي، دماً وأعصاباً. ولو أنني استبدلت «قاسية» بـ «مُدمِّرَة» لضاعفت من تلاشي الكلمات أمام مخابىء الحريق، التي نادراً ما اقترب منها أحد. كلُّ شيء كان يتطلب مني صمتاً به أخفي ما يخفيه غيري. أو به أخفي فائض الحريق تحت قبة من ورق.

بأي معنى كان التأمل ممكناً؟ ألم يكن التأملُ إعلانَ حربٍ على البديهيات والمسلمات؟ وكيف تتأمل وحدك وتحارب وحدك؟ لا بأس. هكذا أقول. وأختلي بالصمت. حَقّاً إنه صمت التائهين في طرقات لا منعرجات لها أحياناً. لن ينصت سواك لهذا الصمت ولن يطلَّ على مخابىء الحريق. عليك فقط أن تقول نعم. وتُطيع. حتى ولو أنك كنتَ رفضتَ كل شيء. وأنت تبحث عن كلماتك الأولى. حتى ولو كنتَ بقُوّةِ غضبكَ فتحت لنفسكَ طريقاً جديدةً سمّيْتَها المتاه. قل: نعم. هذا ما يمليه عليك الآخرون.

ولا يتْبَعُ جسدي إلاّ ما يشاء. يقاوم ويقاوم. لأن الكتابة لم تكن بحثاً عن امتياز ما. تسمية الذات في زمنها سابقة على كل ما تتهيأ له الكتابة. والجسد يطالب بحرية لا حدَّ لها. هي حرية الكتابة أيضاً. من حيث لا أعلم. فقط هناك هذه الوشْوَشات التي تدافع عن صفائها، بين اضطراب الأوضاع والمقاصد.

والمطالبة بحرية كهذه تظل عسيرة على الدوام. لا تنازل ولا تفاوض. رهان حياة برمّتِهَا. في مكان لم يكن لي اختيار أن أولدَ فيه. سفر بدون قرار. والهواء حادٌّ.

(2)

ذلك اليوم من 1969. على مقربة من ساحة محمد الخامس بالمدينة الجديدة. أعمدة ذات سطح دائري والباب مغطاة بسقيفة. لون سُكَّرِيٌّ شبه مغموق. على الجدران الخارجية. وفي الداخل أضواء بُرتقالية تبدو من بعيد وكأنها فراشات. طاولة دائرية قطرها يقارب قطر الأرض (من صنعك أيتها الطاولة؟ من صمّمَك؟ من حَمَلك إِلى هُنَا؟ مَنْ بنَى لكِ دائرتَك؟ ومن طمْأنَك؟) واجهات وضعوا بداخلها فخّارياتٍ ونماذج من أثواب فاسيّة. أُطُرٌ عديدةٌ وعتمةٌ تطوف بها رائحة غريبة.

إلى هذا المكان، الذي كنت تعرفتُ عليه من قبل، صاحبت أوّلَ أصدقائي من الكُتّابِ لحضور اجتماع تأسيس فرع اتحاد كُتّاب المغرب بفاس. في الوسط كان الرئيس عبد الكريم غلاب. القادم من الرباط. ثم أغلب الحاضرين من شُبَّانِ فاس. عز الدين التازي ورشيد بنحَدُّو إِلى جانبي. محمد برادة في الجهة المقابلة، قريباً من الرئيس. وأحمد المجاطي يعلّق بهمْسٍ على كل كلمة ينطقُ بها غلاب. ثلاثة أجيال تلتقي في قاعة واحدة. وعددنا جميعاً لا يتجاوز خمسة عشر شخصاً. مع ذلك حضرْنَا إِلى هنا. لنعلن عن بناء قبّةٍ.

كان نشر أعمال تافهة كافياً ليبحثوا عنك ويبلغوك دعوة شفوية ثم يلحُّوا عليك في حضور اجتماع التأسيس. والشرط الفريد لاستحقاق الدعوة هو أن تكون منهم أو، على الأقل، ألاّ تكون مختلفاً معهم. وهم ممثلو أحزاب سياسية وطنية معارضة. قل لي ما انتماؤك السياسي أقُلْ لكَ أيّ كاتب أنت. قاعدة كان عليَّ أن أتعلم صيغتها الأولى من رولان بارت، في السنوات القليلة اللاحقة.

حضرت لأنّي لم أكن مختلفاً معهم. في مقهى الرّونيسانْس بلّغني بنحدُّو الدعوة. وألحَّ. إيَّاك. كرّرها فَطمأنْتُه. لست متأكّداً من موقفي العميق، ولكني ربما كنت أستشعر ضرورة العمل الجماعي، في الثقافة أوّلاً. أبحث في الذاكرة فلا أعثر على غير هذه البقايا المتلاشية. غريب! شيئاً فشيْئاً أنْسَى تفاصيلَ كنتُ

أكترث بها في سنواتي البعيدة. ثم ها هي تطير حول رأسي كما لو كانت ألْوَاناً مُدَمَّاةً. الذاكرةُ والبصَرُ صنوان. عدمُ تذكُّرِ ما كنتُ أفضّلُهُ، في تلك اللحظة، يكاد يقربُ من صعوبة رؤية الأشياء. دخان أو بياضٌ ما يُغْلِقُ على الحالة. وأقول «ربّما». بها أتحرّزُ من قيمة وفاءٍ لا معنى لها.

(3)

دعوْني وألحُّوا فحضرتُ. في البدء صاحبت أصدقائي إلى ذلك المكان بنفس عزيمة الذهاب إلى المقهى. هناك نلتقي. نتبادل الأخبار. نتصفح بعض الجرائد. ونتحاور كثيراً حول الأدب والفن والفلسفة والسياسة. بدون خطة مسبقة. ما نكتبه أو نقرأه قد يكون منطلق الحوار. ضحك وسخرية يتخللان الحديث. ومرّاتٍ نتأوّهُ تحيةً لامرأة تتحدّانا شهوتُها. والمقهى بيتُنا الجماعي.

عند المدخل اصطدمتُ بعتمة المكان. بناية مُغْلقَةٌ من الجهات كُلّها. والقبّةُ العاليةُ مغلقة هي الأخرَى. تقدمْتُ وكان بودّي أن أتراجع. ولم أدرك آنذاك أن هذه الخطوة الأولى كانت تحمل في أحشائها مصيراً سيلازمني حتى مخابىء الحريق. تقدّمت لأني كنت متورّطاً بموافقتي على الحضور. ولنفرض أنّني تراجعت، فكيف كانوا سيتصرّفون معي؟

تقدمت نحو الكرسي. عتمة المكان يابسة. جلست بهدوء وصمت. في حضْرةِ الكُتّابِ وحدهم. لأول مرّةٍ ألتقي بالكُتّاب دون غيرهم في مكان مغلق تستبد به عتمةٌ يابسة. وجهاً لوجه. للكُتَّاب رئيس ومستشار وكرسيٌ وأناقةٌ وصمت. كلمةٌ تتلُو كلمة. كُتّابٌ يلتَقُون في ظرفٍ تاريخي لبناء قُبّةٍ تاريخية. والكلماتُ تضغط على صدْرِي. العتمة صخرةٌ عنيفةٌ وأنا هادىء في مكاني. وقارُ المتكلّمين أقْوَى مِنّي. عليَّ أن أحافِظَ على الانضباط، أنا الذي عشقت فوضاي. وعليَّ أنْ أظلّ صامتاً، أنَا الذي لم أترك أبي يفرض عليَّ الصمت!

نسيت كلَّ شيء مِمَّا تداولُوا فيه. نسيتُ اسمَ مَنْ عيّنُوه كاتباً عامّاً في فاس. ولا أخترعُ نِسْيَاني. ما استقرَّ في الجسد هو عنف أسئلة الوجود والكتابة والمغرب الثقافي. أسئلة كانت الدهشةُ فاتحتها. ثم كان الندم. ثم كان الحريق. سنوات قاسيةٌ كانت تلك اللحظةُ ميلادَها. ولن يدري أحد، لأن الخطابَ يُتْقِنُ ما

يشاء. مجداً وولاء. ببطء صاغتْنِي أسئلة وصغتها. وفي تلك اللحظة. في ذلك المكان. كنتُ أحسُّ بهزيمتي الأولى. عتمة وقبّة وصمت.

(4)

حضرْنَا لبناء قُبّة صغرى، بعد أن تعلّمتُ من السابقين عليّ كيف أغادر قبّة السلطة. جاء الرومانسيون العرب ليكرّسُوا حرية الذات. ورغم شحوب هذه الحرية في المغرب الحديث فقد كانت الثقافة المتداولة ترشدني. بين حرية الذات والالتزام بقضايا المجتمع والإنسان كانت وضعيتي تتحدد. وغادرت قبّة المجتمع. لم يوصني أحد بذلك. تنكّرتُ للقباب بحكم أنها نقيض ما يمكن أن يصبح عليه كاتب عربي حديث. وفي تلك اللحظة. في ذلك المكان. حضرتُ لبناء قبّة أخْرَى. أدركت بعد فترةٍ قصيرة أنّها قبْرِي. لا تعارُضَ بينها وبين القبَابِ السابقة. مِنْ مُتَخَيَّلِ تلْكَ القباب بنوْا للكُتّاب قبّتَهُمْ. قِيَمُ السلطة ذاتُها. قيمُ الواحدية ذاتُها. قِيَمُ تبعيةِ الثقافي للسياسي ذاتُها. نمطيةٌ تحافظ على سُلالَتِهَا.

خمسة عشر شخصاً. من أجيال ثلاثة. حضروا لبناء قبّة يستودعونها خلودَهُم. لكل منهم حزبه وطائفتُهُ. والأهم في اجتماع التأسيس هو الفريق الذي سيختطف مقعد الكاتب العام. ما أسئلة الثقافة؟ ما العلاقة بين الأجيال؟ كيف نرى إلى اللغات؟ أين هي الوظيفة الحضارية للمثقفين؟ لا تُضِفْ أيَّ سؤال. لم نحضر لنبحث عن طريق أخرى لحريتنا. حضرنا. لأنهم أرادوا.

(5)

تكاملت الحياة اليومية في الجامعة مع حيوات قريبة في اقتناعي وإقناعي بالعمل الجماعي. الثقافة عمل جماعي أيضاً. ومن خلال ذلك كان ما كان. اتسع اندماجي في اتحاد كتاب المغرب. مؤتمر ومؤتمر ومؤتمر. والقبة، التي بنيْنَاها ذات يوم في فاس، لم تعد قبّة عالية في الرباط. السقف واطىءٌ والمساحة ضيقة. لِمَ جئتُ إلى هُنَا؟ ولِمَ أستمرُّ في المجيء؟ ترافق هذان السؤالان والفعل الذي لا يتوقّف من أجل زمن ثقافي، ينهدم فيه ما يفصل الكُتّاب عن بعضهم بعضاً. بالعربية والفرنسية. من المتحزبين وغير المتحزبين. في المشرق والمغرب. بين الكُتّاب والفنّانين. بيْنَ الكُتّابِ والقُرّاء. تحرير الطاقات من اعتقال

له الحالات كلُّهَا. والسؤالان ينكفئان على ذاتهما حيناً ثم ينبثقان من جديد. وخشيّان. ثم لا أحد يسأل عن هذه القبة من ورق.

من ورق. حقاً! سنواتٌ مرّتْ قبل التأكُّدِ من أنّ ما بنوْهُ كان إلغاءً للثقافة. قبّة أوْهَام. يأتون بما يستطيعون حتى يُلْغُوا مستقبل ثقافة لم تتحرّر من ماضي اعتقالها. عجباً! كل كلمة ناصعة وجذابة. في الخطابة ومشاهد تبادل الغواية. هادئون. أنيقون. يبتسمون عند الحاجة، تحت قبة من ورق.

وكان عليّ أن أفهم ما أنا مُطَالَبٌ به. الامتثال أو الإلغاء. لم أختر هذا ولا ذاك. في الصباحات والليالي. خياناتُ الأصدقاء كنتُ أتَلَقّنُهَا، لأعود مجدّداً إلى عزلتي، وحيداً، أمام أسئلة تنطفىء شيْئاً فشيْئاً، هنا، على شاطىء الأطلسي. وأنا أحاول أن أتأمل رُكْناً معتماً من حياةٍ سَمّيْتُهَا الكتابة.

10. الصُّدْفَةُ وخدَها

(1)

لم أعرف في صبَايَ ما يُمكن لي تسميتُهُ بالحياة الشعرية. في البيْتِ أو خارجه. ولا أتذكّرُ أنّ أحداً تحدث، طيلة تلك السنوات، عن الشعر أو أنشد شعراً. هذه فاسِي التي عشتها إلى حدود المراهقة في مطلع الستينيات. هناك الأناشيد. أجل. الأناشيد الوطنية. كنت أردّدُها، مع الآخرين، في احتفالات ومناسبات سياسية تسْتولي علينا فيها خُطبٌ وتصفيقات. جميعاً نردّدُ الأناشيد بقاماتنا القصيرة وأيدينا التي تهتزُّ لوحدها ثم ترتفع. الصدر. الحنجرة. الحلق. وها هو النشيد يُسلّمك للنّشيد. أنفاسٌ تتواصل في الهواء الذي يتبقّى لك من الزحام.

عندما كنتُ أقرأ عن حضور شاعر عربي، في الحياة اليومية أو السياسية، لبغداد أو دمشق أو بيروت أو القاهرة، كانت الدهشةُ تسْتبدُّ بي. وعندما زار نزار قباني فاس، لأول مرة، سنة 1966، لم أصدق أن الشعر يمكن أن يفجر مكبوت الناس على ذلك النحو. وفي بغداد اصطدمت بجمهور مجنون بالشعر حقاً. للكلمة الواحدة، أحياناً، سلطة أقصى البكاء والانتشاء. وفي بيروت أدركت أن الشعر مُقدّمٌ على الحرب. وأن الشاعر، رغم كل شيء، أقوى في الذاكرة وطقوس النبالة من أي شخص آخر. في القاهرة التقيت بالشعر في الأماكن العامة. يتدفق على ألسنة الناس. صاعداً من الصدر. به أعضاء الجسد كلُّها تضحك. أو تتأسّى.

أمّا أنا. في فاس. فقد كان عليّ أن أنتظر دخول المدرسة الابتدائية لأقرأ نصوصاً شعرية لغير المغاربة. الشعر هناك. في قاعة الدرس. وبإلقاءٍ سقيم. فالمعلّمُ يعامل القصيدة الشعرية كما يعامل موضوعاً في التاريخ أو العلوم الطبيعية. شرْحُ الكلمات والحفظ والاستظهار. لا وجود للشعر في حياة الناس. أغاني محمد عبد الوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش هي مصدر الثقافة الشعرية. والمعجَبُون لا يميزون بين القصيدة وغنائها. الأغنية بمفردها تفيض بالارتعاشة الناعمة. بين كؤوس الشاي في جْنَان السبيل أو في فنادق الحرفيين. وحتى علال الفاسي، الذي لازم الشعر في مراحل حياته المختلفة، لم أسمع، يوماً، أنَّهُ ألقى شعره على الناس. ولا أحد من أقربائي حدثني عنه كشاعر. إنه الزعيم السياسي فقط. يُلقي الخطب السياسية. وآراؤه السياسية هي وحدها التي كان الناس يتداولونها.

(2)

الصدفة وحدها هي التي قربتني من الشعر. في ثانوية ابن كيران المُعَربة. كان أستاذي محمد أبو عسل، الشمالي القادم من القاهرة، مدرسي لمادة الرسم. رسم الجُرة. كان الرسم يستهويني كما كانت الموسيقى. في السنة الأولى 1962، كان الامتثال لأوامر الأستاذ أسبق من المصاحبة. وفي السنة الثانية، وبعد نقلنا إلى خارج أسوار المدينة القديمة، ومعاقبتنا على حبنا للغة العربية بالدراسة في ثكنة عسكرية معزولة بالطرفِ المجهول من المدينة الجديدة، متاخمة للضواحي الريفية، كنت من بين المرافقين لأستاذي، الذي اكتشفت لاحقاً أنه رسّام. لوحات في غرفة مغلقة. لا يعرفها إلاّ الأصدقاء، الذين أصبحت واحداً منهم. يرفض عرض هذه اللوحات على غيرنا. وهناك، في الغرفة الخشبية بالأطلس، الحي البعيد، كان الموعِدُ يتجدّدُ للحديث عن الرسم، وشيئاً فشيئاً أصبح الشعر سيّدَ الكلام. أستاذي الرسام شاعرٌ أيضاً.

تضاعفت الصدفة. في السنة ذاتها. أستاذة قريبة من أغلب تلاميذ الفصل. تتنازعها الأناقة والفوضى. إنها أستاذتي خناثة بنونة. رحيمة ووديعة. والاحتجاجُ لغتها السامية. كانت تدرسنا الاجتماعيات. التاريخ والجغرافية. ولكن الدرس كان أرخبيلاً على الدوام. فيه من الماضي بقدر ما فيه من الحاضر. وفيه من

الحنين بقدر ما فيه من التأمل والتفجع. شامخة ومتمردة. على وضعية الأنثى ووضعية أمة وحضارة. تسخر من كل ما يستحقُّ السخرية. إبنة روحية لعلال الفاسي. وحفيدة عائلة «استقلالية» لا تتنازل عن إخلاصها لحزب الاستقلال.

لم نكن نعبأ بما كانت ترويه لنا عن هذا الحزب. فعواصف السياسة كانت عواصفنا نحن أيضاً. ولكننا تعلمنا كيف ننصت إليها. وكان تفوّقي في الدراسة يقربني أكثر فأكثر من فضائها الوجودي وحسّها المأساوي. وأنا الذي بدأت أسكن حالات الشعر كانت أذني الثالثة رفيقتها. القراءة والقراءة. لا توقُّفَ أبداً.

كنت أصارع الأزمنة. أنا الآن مراهق. والشعر بعيد عني. بعيدٌ جداً. أقرأ الدواوين وأحفظ القصائد التي تترك في الدخيلة دبيباً ما. كان القرآن في الصبا. وكانت نصوص لبنانية في مدرستي الأولى. وها هو المتنبي وأبو تمام وامرؤ القيس وابن زيدون وأبو القاسم الشابي. قصائد تنبسط أمامي وكأنها كون آخر. حياة تتخلّص من صمت المدينة. ومع خناثة بنونة حوار حول الشعر والأدب والحياة والموت. نحْنُ وهُمْ. جسمي منقسم على نفسه. رأس مأخوذ بالرياضيات. وغيرُهُ منذهلٌ بعَوَالِم الضوء. في النصوص والدخيلة معاً.

(3)

من أين أتت هذه الصدفة؟ كيف انعقدت في مكان معزول تماماً. عن مدينة ومجتمع؟ فاس عاصمة العلم. لا تصدقوا هذا القول تماماً. كان حتّى كان. فاسُ، في حديثها، تنصّلَتْ مِنَ الشعر. العلم والفرنسية والمال. هذا شعار المدينة. لدى الفئات المتناحرة تأكيداً.

الصدفةُ. الصدفةُ وحدَهَا.

في تلك الثكنة اهتديتُ إلى مجنونيْن بالشعر. تلميذان في الفصل. في السنة ذاتها. أحدهما عربيدٌ. يتناول الحشيشَ ويشكُو من ساقه. والثاني يحفظ المعاجمَ عن ظهر قلب. فاسيّانِ. منبوذٌ وابْنُ خياط الجلاَبيب. ولم يُشاركْنا فاسيٌّ أكْبرُ منَّا سناً. كان النّقاشُ بيْنَنَا محتدِماً، أحياناً، بخصوص مختاراتِنَا الشعرية. كان الأول يفضل الخمريات والغزل. وكان الآخر يتباهى باستْظهَار «مقصورة» حازم القرطاجني. وكنت ضائعاً بينهما. أحفظ شعراً ولا أكتب شيئاً.

أسْتَسْلِمُ للشعْرِ الذي لا سلطانَ لي عليه. من القديم أو الحديث. ليس يهُمّ. هناك وحدَهُ هذا العَقْدُ الذي تَأسس صامتاً، بيني وبينه.

كُنَّا نهُزُّ عروشَ ظِلِّ لعنتهُ المدينة. ونضحكُ في عِزِّ السديم. لم يَلْتَفِتْ إليْنا أحدٌ ولم نُخْبِر أحداً. حُزنٌ يُعيد تشكيل قسماته في دخيلة لستُ مسؤولاً عنها. بمفردها تزوغُ وتنحرف باتجاه تمرُّدٍ كنتُ اختبرْتُ لحظاتِهِ العنيفة منذ أيامي الأولى. هو الآن يهبُّ عليَّ بصعْقٍ لا مَرَدَّ لَهُ. وأنظُر إليْهِ. شقيقِي في الوحدة التي تلازُمنِي. خارجاً على فقدانٍ. خارجاً على جفافِ مدينةٍ. وخارجاً على الأزمنة التي رشحَتْني في هذا المكان.

نصٌّ هو الشعْرُ. أمنحُهُ جسداً لاَ يئنُّ. أفسح له في الليْلِ كي يضيءَ، فجْراً، في موْعدِهِ. الدواوينُ تَفْتَحُ لي بلاداً لا نهاية لها. وأصدقائي في الشعر يتوافدون عليَّ مُبتسمين. آباءٌ وأجدادٌ. سُلاَلَةٌ أوصتني بالصمت.

(4)

والصدفةُ لا تتوقّفُ عن ميلادٍ جديدٍ. أستاذ غريب درّسَنَا في الحصة الأولى قصيدةً لصديقه عبد الكريم بن ثابت. لم أكن سمعت عن هذا الشاعر الفاسيِّ. أستاذ العربية هذه المرة، ينحدِرُ من عائلة أرستقراطية كان لها القرارُ السياسيُّ في بداية القرن العشرين. المهدي المقْرِي. ربما كان منتسباً للمقّرِي التلمساني، الأندلسي. من يدْرِي؟ لم تبْقَ مِنْ أرستقراطيته غيرُ لمحات أناقةِ الجلباب والطربوشِ الوطنيِّ والمشيةِ وجلساتِ الشراب. يقرأ علينا قصائد لمحمد بن إبراهيم وعبد الكريم بن ثابت. أو المتنبي وجبران. أحياناً يستشهد بخمريات شوقي أو أبي نواس. بصوت متهدج يقرأ الشعر. ويلْعَنُ العلوم. العربيةُ والشعرُ. هما نهايةُ المعرفة.

في سنة 1964 كانت صدفة وجودي بين تلامذته. هو الوحيد الذي كان الشعرُ لديه يمثّلُ الحياة. بدون تنازل. غريب ووحيد. ابتسامتُهُ متاهة. كان جدُّه هيأه لغير زمنه. مقابل كل قصيدة يحفظها كان يحصل على ورقة خضراء. عشرة ريال. ثم أصبح الزمن يَنْفرُ من الشعر. سنوات من العبث والضياع. وفي فجْر ليلة نسيتُها اقتحم مئذنة وألْقَى شعْراً بدل الآذان. ثم مِنْ عَلَى سور سكة الحديد ارتطم بالدّمار الكبير.

عنفوان الشعر المفْتَقَد. في القريبين مني، كان زمنٌ آخرٌ استودعَهُ في حالةِ المهْدِي المَقْرِي. ومآله من مستقبل الشعر أتى. ليْلاً فلَيْلاً. وأنت وحدك. والقطار يفتّتُ جسدك. نتفتّتُ فيكَ وبكَ ومعكَ. في تلك السنة الهاربة في جحيم الذاكرة. وأنت تعلّمُنَا شعْرَ الحياةِ المتلاشية. أعضاءٌ تضطرب. إحساسٌ يتشوَّشُ. وخطُّكَ المغربي آيةٌ تضيءُ سَوَادَ اللّوْح.

(5)

الصّدْفةُ. الصّدْفةُ وحْدَهَا. في مدينة كان شعراءُ الملحون يغادِرُون مجْدَهُمْ. متُونُ الفقه والنّحْوِ تُنَفِرُنا بمنظُوماتِهَا من القرويين. والهجرةُ بُدُّ الباحثِ الغريبِ. يصْطدِمُ بالشّعْر صدفةً. في فصْلٍ مُعلّقٍ. بظهْر المهْرَاز. قريباً من الحقولِ والنهاراتِ الصامتة. يحضِنُهُ القادمُونَ منْ شمالِ المغرب. ولا شيء يُدلُّكَ عليْكَ أوْ عليْه. إنّه اللقاءُ بحتْفٍ مُبكّر. ولا تسْأَلُ أحداً. ولا تُخبِرُ أحداً. يوماً بيَوْم تتأكّدُ مِنْ ذلكَ، في مدينةٍ عليْكَ أن تؤالفَ أضرحتَها. ولا تصرخ. سيتولّى آخرون السخريةَ منك. ومنْ عربيتِك. وأنت بيْنَ جنُونيْن. ومجنُونيْن. ولكَ الدمارُ الكبير. صمتاً. لن تُنقذَك منهُ أخوّةٌ محلُومٌ بِهَا. أنْتَ مجرّدُ خادِمٍ لهُمْ ولهُمْ. آمِين!

1967 .11

(1)

أربعة أرقامٍ لتسمية سنة لها هوْلُ الزلزال الذي لم يسْكُن بعد. زلزالٌ أصاب جسدي وما بعده، مثلما أصاب غيري. جسدي، الخارج من حمى المراهقة، لم يسعد بميلاد شبابه. فجأة كان الانتقال من الطفولة إلى الشيخوخة. زلزال فتّتَ الأعضاء. واحداً فواحداً. لم يبدأ بعُضوٍ مخصوصٍ لأتعرّف على نهاية محتملة تركت علامتها على عُضوِهَا المختار. لا شيء من ذلك. أعضاء بكاملها تفتّتَتْ وفاضت بالدماء التي لا مَرَدَّ لها. الجسد أشلاءٌ مسحوقة. بِدمها الأول. في القرار الخفي عنّي. حيث هي وأنا مشوهان. مسلوخان. أنينٌ بمفرده يدلُّ علينَا. في الطبقات السفلى من الأنين.

لست بحاجة لأعيّن حرب 5 يونيو (حزيران) حتى يبرز زلزال 1967. ستة أيّام تختزل السنة بتمامها. لم يحدث غير الزلزال. قبله كانت الأيام هي الأيام. وبعده أصبح الزلزال كل الأيام. هذا الهول الذي مَحَا ما عليه أن يمحو. في اللحظات المعدودات. كما لو كانت لحظات موت سريعة. خاطفة. مأهولة بأصناف الدمار، الذي يصيب، في آنيته، الأسافلَ والأعالي. دمار إشعاعي من كل الجهات. لا فتنة فيه. لأنه لم يسمح للفتنة أن تتكوّن. ولم يستنجد فيه عضو بعضو. لهيب رماد. لهيبٌ يُرْمِدُ جسداً في لمح البصر.

بهذه الأيام الستة تتسمى السنة بتمامها. وأي إضافة ممكنة، إذن؟ أبحث في الذاكرة فلا أعثر إلاّ على الرماد الوحيد. وأتفقّدُ الحواس فلا يصيبني غير

الرماد الأولي لجسد لم يسعد بشبابه بعد. في الرّماد عثرت على جسدي المراهق يتفسّخُ. كومةٌ مُغْفَلَةٌ. لجسَدٍ مُغفَل. لا يُثبتُ ولا ينفِي. يتبدّد فقط. مُغْفلاً. منفلتاً من تحديد الزمان والمكان. هل أنْتَ العربيُّ؟ هلْ أنْتَ العربيُّ؟ هو ذلك الأنين الذي ترى به إِلى رمادك. أمامك. خلفك. جسدك. ظِلّك. أندلسك. مصرك. فلسطينك. هل أنت العربيُّ؟ هل أنت العربيُّ؟ حقاً، هذا الأنين.

(2)

أوّلُ وشمةٍ سياسية على جسدي انهرقتْ، تتمثل في وصول نبإٍ نفي محمد الخامس. أجهل كيف وصل النبأ من الرباط إِلى فاس. ولكن السنة مؤكدة. 1953. كان عمري خمس سنوات. وأنا أقطع قنطرة الرصيف، عائداً من دكان جدي، بائع الحطب، في رحْبَة الزبيب، مقابل جامع الرصيف، وفي يدي أحمل سطلاً صغيراً من «الهندية» (ثمرة الصبار).

صراخُ الناس علاَ دفعة واحدة، وتحوّلَ طبقة رصاصية. النبأ وصِيَغُ الاحتجاج. فوق رأسي. والأقدام مسرعة. الازدحام يشتدُّ وأصوات ارتطام أبواب الدكاكين. بكيتُ لأنّني وحْدِي. والمسرعون مسرعون. لن يراني أحدٌ بين الأقدام. والجلابيب. والصراخ المتضخم. السطل يكاد يسقط من يدي. وبكائي أقوى مني. ساقان نحيلتان. قصبتان جافتان. وأنا أستغلُّ الفجوات بين الأرجل لأسرع أنا الآخر. ألتجىء إِلى باب درب خوفاً ممّنْ لا يرونني ويدوسون. أشباحٌ بجلابيبها. عمامات وطرابيش. أتوقف في المنعطفات. وبكائي هو البكاء. بين ضيق الأزقة والأسوار المنتهية إِلى السماء. أتحاشى الأرجل وأمشي بطيئاً. أخشى على السطل وعلى قامتي القصيرة. أحافظ عليها وأنفلت. من زقاق إِلى زقاق. والازدحام يخف كلما اقتربت. وعند دخولي البيت أحكموا إغلاق الباب بالمزلاج ومنعوني من الخروج لأيام.

كان عليّ أن أفهم ما جرَى. والوشمة تسيل على البشرة. كنت خائفاً، أحياناً، من مغادرة البيت. أو من المرور أمام الجنود السينيغاليين. الوشمة ببطء عجيب تستقر. المظاهرات في الأزقة الضيقة. كل يوم تقريباً. وجُمَلُ الاحتجاج تنحفر على جسدي. لا تؤثر على اللعب. في البيت أو في الدرب. والكونُ محصور في بعض أزقة وأصوات وخطوات. ثم لا شيء بعْدَ هذا.

(3)

بين 1953 و 1967 مدارج ارتقيتُ بها طفولةً شاحبةً ومراهقة مضطربة. وفي القاهرة كانت أحلامي تتشيّد بُرْجاً فبرجاً. ومن خطابات جمال عبد الناصر كنت، مع نخبة من أصدقائي، أتعلم حاضراً ممنوعاً منه في وطني. ومستقبلاً يجمعني بعروبة جديدة وزدتُها فلسطينُ المحررة. نعم. الأحلام في القاهرة والقلب يؤالف بين فلسطين والمغرب. القاهرة مركز الرؤية إلى عالمي الذي كَبُرَ معي. من خلاله كَبُرَ الماضي والمستقبل معاً. والماضي رجِمُ المستقبل. أما الدم والحزن فحالة تتصاعد مقاومتها.

صوت القاهرة. صحف ومجلات القاهرة. كتب القاهرة. أفلام القاهرة. موسيقى القاهرة. هذه حدائق الحلم. معلقة فوق الأسوار. وعلى الشبابيك. إنها نقيض اليومي فينا. شمسٌ تنبعث من تحت التراب بأجنحة تحملنا إلى حيث سنقيم. غبطة هي ميلاد كوْنٍ على أبوابِهِ أسماؤنَا. نديةً وخفّاقة تستريح من دم وحزن. ومن حِدَادِ لأزمنَا، نحن مراهقي الستينيات، يوماً بيومٍ. القاهرةُ مأوايَ القريب. أصادفها كلَّ صباح في الصحافة المغربية بقدر ما أعَاشرها في القادم مباشرة من مصر ولبنان. ولا حجاب بيني وبينها. حتى ماء النيل أشرب منه على الشاشة. بالأبيض والأسود أو بالألوان.

عندما كنت أسمع أو أقرأ كلمات «العروبة»، «العرب» أو «العالم العربي» كان الأُفق ينحني بطيبوبة وينام طائعاً على كتفي. أفق بحدائقه المعلقة. أتبادل وإياه ذبذبات حلم يتّسِعُ ليتسرّبَ عبْرَ الخلايا. ونحن معاً. نترافق بمودّةٍ أبدية متجددة. صباح مساء. هي مسعاي الوحيد بين أزقة فاس. ظلال النشيد تغمرني. مودّةٌ وصفاء.

(4)

ستة أيام. حقاً. ستة أيام. مهووساً في البيت والأزقة وفضل الدراسة كنتُ. بلحظة شحَنَهَا البعيدُ الراسخُ في دخيلةِ عوْدتُهَا على انتظارِ لحظة ميلادٍ هي نطفة الضوء. في الساعات الأولى كان الجسدُ متوثباً وضاحكاً. هي ذي لحظة كوْنٍ يتشكّلُ بيْنَ يديَّ آنيةً مِنْ خزف الفخّارين. والساعات الأولى تفيض بحلم

ترافقتُ وإياه. لن يمنعني حاجزٌ. تتوافدُ الأخبار وأنا متوثبٌ. نصف جسدي العُلْويّ يصطدم بعارضة الشباك وأنا أنبىء العائلة. مصر. مصر. سلْسِليني يا مصْرُ في فرحي وفي خلاَصي. نهرُ الشوق أو نهرُ البعث. وأنا أصعد الدرج لأرى الجيران في السطوح. وسماء مصر قريبة من عينيَّ وأصابعي.

تتوالى الساعات الأولى. وأغضب مِنْ أبي. الذي يبادر بما يناقض الساعات الأولى. حربٌ بين أبي وبيني. لن أستسلِمَ للمناقِضِ. وقويٌّ أنا بصوَاعق الحُلْم. بعواصفِهِ وأمطاره. أباركُكَ أيها الحُلْمُ وأحفظُكَ تحت الجلْد. مضيئاً وراقصاً. أنتَ وأنَا. معاً. نترافقُ. لا أسْوَار ولا أبوابَ. أباركُكَ وأتّحِدُ بكَ وأخْلُد إِليك. صباحَ مَسَاء.

الساعات الأُولى تتشقّقُ وتتمزّق. أنباء أبي تنتصرُ عليَّ وعلى حُلْمي. أُبعِدُها عنّي فيضيقُ الفضاء. أدْفعُها بقوّةٍ أقلَّ فيشتدُّ الحصار. بدايةُ نزيفٍ وألَمٌ في الرأس. دُوَارٌ يصعد ببُرودَتِهِ من أصابع القدمين. والحلم يرتجف. وصخرةٌ بيْني وبينَه. وأمواجٌ. وبَحْرٌ يمتدُّ ويعْنُفُ. وسلاسِلُ جبليّةٌ ومحيطاتٌ. والأنباءُ تنغرِسُ في العظم وتشرب من دمائي. لِمَ الحُلْمُ يغرق في مياهٍ لا سكينة لها؟ لِمَ الأُفُقُ يتبدّد؟ لمَ الساعات ليست ساعات؟ ومن ينفصِلُ عن الآخر؟ أنتَ أمْ أنَا؟ النزيفُ يتضاعف. التصدُّع الكبير. الزلزالُ الكبير. ومعاً. نغرق. في توالي الساعات. وفي جسَدٍ يشيخ.

(5)

ستةُ أيام. والزلزال كلُّ الأيام. سؤال أتى من المجهول. هل أنْتَ العربيّ؟ يدهمُنِي ثم يعود ويدهمُني. نهاراً وليلاً. في غرفتي التي غلّقْتُهَا ولا أستجيب لنداءٍ أو رجاء. صمتٌ وحده. وأنين. أنا المعلّقُ الآن على الرّماح. مسحوقاً ومشوّهاً. في حُفرةِ غرفةٍ حارّة. كومةٌ من رماد أمامي. أُشْعِلُ السيجارة ولا أخْشَى غضب الآخرين. مهما كانوا.

ستة أيام كانت كافية لشيخوخةٍ مبكّرة. وأشك فيك وفي نفسي. ليتني هناك كنتُ لأرَى وأفهم. في شوارعِ القاهرة وصحُفِها وكتُبِها. متأكد أنَا من البُعْدِ والنّزيف. والأيّامُ القديمةُ تنداحُ على أرضية الغرفة. أفتح كتباً فأقرأ الأنين. هل

هو الشرقُ أم هُوَ الغرب؟ هل هو الماضي أم هو الحاضر؟ هل هو الواقع أم هو الخطاب؟ هل هو نحنُ أو هُوَ أنا؟ هلْ هُوَ العِلْم أم هو الأدب؟

و 1967 ميلاد شيخوخة مبكرة لستُ مسؤولاً عنها. معارك صغيرةٌ كنتُ خضْتُها مع الوقْتِ وأهْلِهِ منْ أجْلِ أن يثبُتَ حُلْمٌ أرى إلَيْه منكفئاً في قرارةِ الماء. صمْتِي عنيد. أيام ستّةٌ هي كلُّ الأيّام. في الماضي والمستقبل. منهزِماً ومنهزِماً. تحت ألويةِ دمٍ وأنين.

والكتبُ بارِدَة. أحاول أن أقْرَأَ فتتمزّقُ الأمْعَاء. وَلي النّزيف. أتجنّبُ الكَلاَم. لأن ما تعلمتُ النّطقَ بِهِ غريبٌ عن النّزيف والزلْزَال. الصمت وحده. ذاكرتي مشوّهةٌ تماماً. وأنا في غرفةٍ ضاقتْ عليّ. بالكتُبِ. والكلام.

12. الكهف

(1)

من دلّني على هذا المكان؟ من قادني إليه في وقت لم أعُدْ أتذكره؟ من أقنعني بأنه بيتي الشعريِ والثقافي؟ بأيِّ قدمٍ خطوت نحوَهُ: قدمُ التمرُّد؟ قدَمُ الهَديرِ؟ قدمُ الصَمْتِ؟ قدمُ الألْفَةِ؟ أم قدَمٌ تبحثُ عَنّي؟ لمْ تعُدْ ذاكرتي شفّافةً إلى حَدِّ اليقين بما كنت. أثرٌ يترسّخُ وأثرٌ يتلاشَى بدون رحمة. تلك القارَاتُ والمحيطاتُ، التي وهبْتُ لها جسَدِي، فعلتْ بالذّاكرةِ ما تشاء. وأرَى، الآن، إلى نفْسِي في اضطرابِ الأمْكنة المتقطعة. فراغٌ يحتدُّ في الخلايا. يبْدُو ليَ أني شخْتُ، شخْتُ حقّاً. فِعْلُ المنافي المتواليةِ يهيل على ذاكرتي طبقات النّفَايَات. والرأسُ شظايَا. الصوتُ شظايَا. هل أنَا الذي عشتُ شدّةَ المنْعَرَجاتِ إلى هذا الحدِّ الذي افتقدتُ فيه خريطةَ المتَاه؟ الصمتُ المستحيلُ بمفرده يلْطف بي. والنارُ الأوّليّةُ شمعَدان مِنْ نُحَاس.

أسألُ، إذن، لأقتربَ منكَ أيُّهَا الكهفُ الطيِّبُ العطُوف، في البُعد والبُعْد. أبحثُ عن قليل من رائحتكَ لتتّضِحَ الأنفَاس. ضجيجٌ مُهْلِكٌ يشقُّ جبهتي وأنا أسألُ أو أبحث. في أي زمن عثرتُ على ذلك الكهف ونزلتُ فيه من إفْريزٍ لإفْريز؟ لقد اختلطتْ عليَّ الأزمنة. واختلط عليَّ الناس. واخْتلط عليَّ الأمواتُ والأحْيَاء. واخْتلطَ عليَّ الخيالُ والواقِع. واختلطت علي الحقيقةُ والوهم. واخْتلطَ عليَّ أنَا ومَا لستُ أنَا. وأنْتَ أيُّهَا الكهف مضيءٌ بوحْدَتِكَ وقَشْعَرِيرَتِك. زمنُ الألفةِ بكَ وفيكَ لم يعُدْ زمنِي. ولا أعْلَمُ هل أنَا نَادِمٌ أمْ غير نادمٍ. على الألْفَةِ والوحْدَةِ معاً.

(2)

لمْ أنسَ كُلَّ شيْءٍ. بقيَ لي مَا بِهِ أمُوت. بطيئاً بطيئاً. قُبالةَ المحيطِ. والأمواجِ برَشاشِهَا العَالي. في نتوءات المدَى البحْريِّ أختطفُكَ أيها الكهف. عبر أشجار وأضواء منطقة معزولة بالمدينة الجديدة. بيوتٌ حديثة بطابق واحدٍ أو بطابقين، تحمي الطبيعةُ طمأنينتها. أشجار الزيتون تنشىء لك السردابَ. ونباحُ الكلاب ينبهك على نوعية المسَار. لا تَخش شيْئاً، ما دمتَ بعيداً عنها. فهي مقيّدةٌ بسلاسلَ خفيفةٍ أو حبالٍ من الحلفاء. مَسَارٌ شبهُ عريض بإسْفلتٍ قديم. يكاد يكون فارغاً من المشاة. وفي نهاية ظلالِهِ فندقُ زَلاَغ. تسمية الفندق مبررةٌ بالبهْو الزجاجيّ المقابل لجبل زلاغ، المنتصب في الشمال الشرقي للمدينة، بسَفْحِهِ الأخضر وارتفاعه الأنيق.

لهذا السّرداب أقواسُهُ اللانهائية. أشجار الزيتون وظلالها تخترعُ الأقواسَ فالأقواسَ فالأقْواس. لا تَفطِنُ باللحظة التي تسْتحوذُ فيها عليكَ الأقواس. تغشاك الظلالُ والألوانُ وأنتَ تمشي بقامتك العَموديّة. ظلٌّ يُولّدُ ظِلاً والخُضرةُ تنشبك في العينين. ثم لا تدْرِي بعْدَ ذلكَ كيف تهُبُّ عليكَ الأقواسُ. وأنْتَ تُبطىءُ في المشي. أو وأنت تقف عند العتبةِ الأولى للمنْعرجِ المبارَكِ المفْضِي إلى الكهف. الظلال والأشجارُ تلعبُ على كتفيك. واليدان مُنبَسِطَتَان. القلْبُ أملسُ وضَاحِك.

حشائش مدخل الكَهْفِ دائمة الخضرة تقريباً. وظِلُّ الصّبَاحِ مُنْعِش. خُطوات فقط، وها هي العتبة الثانية. واطئة وشبهُ ممحُوّة. مستطيلٌ أليفٌ من الإسمنت. إنهُ قطّةٌ صِينيّةٌ تحافِظُ على غفوتِها. بفرْوهَا الرّماديّ. تَغْفُو وتسْتلِذُّ بقطراتِ الماءِ المتبقيّة منْ فصْلِ الشتاء. عتبةٌ تقذِفُ في أنْفَاسِكَ الألْفةَ وأخْلاَطَ اللّذَائذ. لك أن تَخْلَع نعْليْك وتَفْتح أزرار القميص. لاَ تَطأْ عتبتَكَ بالحذَاء. حَذَارِ أنْ تدُوس. أنتَ وَاقِفٌ على بَابٍ مُضاءةٍ بالصّمْتِ والعتمات. مِنْ هُنَا عَبَر عَابِرُونَ بَعْدَكَ وقَبْلَكَ. خشبٌ بطلاَءٍ أزْرَقَ بَاهتٍ. خشبٌ وصمْت. وأنْتَ تَخْلَعُ نعْليْك. أمام الباب.

(3)

في 1968 كانت بداية تشكُّل عصابةٍ جديدة. إنّها عصابة الإنتاج الأدبي والفني. في تلك السنة كنتُ التحقتُ بالجامعة. في ظهر المهراز. من عصابةِ

القراءة إِلى عصَابةِ الإنتاج. عائلةٌ متضامنة في البحث عن ذاتها. في القصة والشعر والرسم. نكاد نكون من سن واحدة. وأفراد هذه العصابة قادمون من جغرافية موسَّعَة. نواتُها فاسيّون، ثم آخرون من شفشاون وتطوان وأصيلا والقنيطرة ومراكش. عصابةٌ مُمَجّدة. تختلِفُ عن عصابات أسلافنا في القرويين، التي يفصلنا عنها جيل أكمل، بالأساس، دراسته العربية في القاهرة ودمشق وبغداد، أو، الفرنسية، في الرباط وباريس.

عصابتُنَا كانت رحِماً لتشكيل جيل جديد. قلقُنا أَكْبَرُ مِنَّا. كنا غادرْنَا توّاً مدينتنا القديمة لنختار مقاعدَ لنا في مقهى الرُّونيسَانْس. بين الضوء والهواء والصحف والنساء والكتب الفرنسية. كان التمرُّدُ صيغةً من بين صيغ البحث عن سنِّ الرُّشْد. ثم كان أصدقاؤنا الشعراء والقصاصون والرسامون قادمين من مدنٍ وقُرى نائية. وصداقتُنَا مع أهمّ أفْرَادِ هيئة أساتذتنا قوية. تتسع الطاولات، في المقهى، أحياناً، لتشمل العصابة الموسّعة.

بين مقهى الرونيسانس والكهف كان محترفُ صديقنا الرسام حسن العلوي في الكنيسة. راهب طيّبٌ كان ساعد حسن في الحصول على المحترف في غرفة مُهْمَلَةٍ خارج هيكل الكنيسة. من مقهى الرونيسانس إِلى المحترَف كنا ننتقل. ومعنا نقاشاتنا. حول الرسم والشعر والفلسفة والحضارة والإنسان والكون. حول التاريخ والمعمار والجنون. كنت، في البدء، أتهيّبُ اختراق حرم الكنيسة. ارتجافٌ مَا كان يسكن أعضائي. ثم تخلصت منه بسرعة. كان الراهب يدافع عن المسيحية والحرية وكنا ندافع عن القلق والحرية. تآلفْنَا. كل واحد في مكانه. وحرية الحوار والإبداع بعيدة الغوْر. هناك نفتّش عن أزمتنا ولا ننتصر على قلق عظيم.

ثم كان الكهف. حملْنا، مع حسن العلوي، أدواتِ الرسم واللوحات المنجزة إِلى الكهف. تواطأنا على تسمية هذا المكان الجديد بالكهف. لم نفكر بأهل الكهف. لم نفكّر بالكهوف الطبيعية. لم نجتلب الاسم من عصابة أخرى. غربية أو شرقية. هكذا فقط سمّينَاهُ. فكانت التسميةُ استقلالاً، من حيث لا ندري، عن غيرنا. عصابةٌ كانت تبحث عن ذاتها فالتجأت إِلى الكهف. وهي تعْبُر مجازة الزيتون والظلال. في المتواري والملتبس. في المساء والصباح.

وباب الكهف يظل على الدوام مفتوحاً. عتبة الحرية والقلق. تلك العصابة.

(4)

لم يكن المكان معتماً حتّى يستحق اسم الكهف. ربّما كانت عتمات دواخلنا هي الكهف ذاته. وفي ذلك المكان يفتح كلُّ واحد منا باب كهفِهِ الشخصيّ وينصت للسراديب ومخلوقاتِ الصّمت. غرفتان وبهو. حاملة اللوحة وأدوات الرسم وكرسيٌّ وسرير، هي تقريباً جميعُ أثاثِ الكهف. الموسيقى. الموسيقى. وسيّدُ الموسيقى هو الحسين السلاوي، الذي أعدتُ اكتشافه بفضل حسن العلوي. «ما تَسْمَعْ غِيرْ أوكي أُوكي كَمانْ بَاي بَايْ» «طنْجَة يا الْعَالْيَا» من بين أجمل أغانيه. «السّانية والبِير» أيضاً. هَذَا الفنان السلاوي، من عهد الحماية، صاحبَنا في الكهف، ورافقنا، في بحثه عن لغة أخرى وأداء مغاير للأغنية المغربية.

الكهف لنا جميعاً. لم أعد أتذكر غير الجلسات الثنائية أو الحلقات غير المنتظمة التي كنا أثناءها نناقش ما ننتج ونقرأ، من خلال علاقة الفنون ببعضها. أو وضعية الكلمة في كل من الشعر والقصة، أو المدارس والاتجاهات الأدبية والفنية. أو ما ننتجهُ بحياتنا اليومية ومصيرنا الفردي والجماعي. الكهف وزشةُ نقاش محتدم أحياناً. وله الصفاء الأول. لا ألقاب ولا سُلْطة. يضغط علينا الواقعي ويأسِرُنَا المتخيّل. حسن العلوي سريالي متفلسف. عز الدين التازي واقعي منشغل بالتركيب. أحمد بنميمون غنائي عاشق لفتاة لا نعرفُ عنها غير أنّها قريبة من الفندق الذي ينزل فيه. خليل الغريب صامت أو دقيق في صرامة اختيار أشكاله وألوانه. وأنا منشغل ببناء البيت الشعري. لكل مِنّا كهْفُه. والكهف لنا جميعاً. الصخب والصمتُ متآلِفَان. والسّعادةُ مقصيةٌ عَنْ برْنَامجنا.

(5)

هل كنا جماعةً لزمن ثقافي جديد؟ لم يكن ذلك يخطر على بالنا. كنا، بالأخْرَى، أجساداً ملتهبة. الغامض فينا أقْوَى مِنَ الواضح. نمضي إِلى الكهْف على غير عادةِ أسْلافنا. ونحْنُ لا نتشبّهُ بجماعةٍ أُخْرَى. نُنتِجُ ونختلي بالصمت والقلق. ننذهِشُ بأعمال الآخرين أكْثَر مِمّا نَسْتَسْلِمُ لإنْتَاجنا. مدة ثلاثِ سنَوات،

حتّى نهاية 1971، والكهف مُلْتَقَى العابرينَ أيضاً. من الكلية أو من الرباط التي أصبحت لنا فيها علاقات ثقافية وأدبية. هُناكَ ننصت إلى بعْضِنَا. نهاراتٌ تَتْلُو نهارَات. ونحن غريبون في مدينة تنفصِلُ بعُنْفٍ عن ماضِيهَا. ألوانٌ وكلماتٌ وإيقَاعاتٌ. وكان الكهفُ يَعثُر في الدواخل على أسرارِهِ، ثم كانَ حتَّى كان.

13. بَارِيسي الأُولَى

(1)

تكوْكَبت باريس في صدري منذ بداية مراهقتي. في الفترة ذاتها التي كانت القاهرة أو بيروت أقرب إليّ، ثقافياً، من الرباط أو الدار البيضاء. من الكتب. وعبر أسماء الشعراء والرسامين، كنت أتعلم جغرافية باريس. وأنا منحشر في غرفتي الصغيرة المتاخمة لسطح البيت. لم يُشِرْ عليَّ أحدٌ بتعلُّم هذه الجغرافية. ولكن ذبذبات الشوق إلى فضاء الحرية، هي وحدها التي أكدت الرغبة. ثم أججتْها.

كانت العائلة، آنذاك، تنبذني لأنني اخترت متابعة تعليمي، في الثانوي، بالعربية التي أعشقها. وقراءاتي الأولى لطه حسين دلّتْنِي على أن تحديث العربية، والعالم العربي، يمرُّ عبر باريس. لا أستغرب شيئاً من ذلك. ولم أتباهَ به أمام أحد. كتمتُه في الدخيلة وأنا أحْلُم بالعِلْم. لا بالأدب أو الشعر. وضعت له طبقات سرية من الإصْرَار. وقلت: سأذهب في الوقت المناسب إلى باريس. كنت واثقاً من أن قولتي كافية. لن يردني عن ذلك عائق. وباريس، التي شرعتْ في النشوء، كتاباً أو فكرة، هي نفسها التي اتّسعتْ فاتّقدَتْ فاستبدّتْ بأحْوَالي. إِلَى باريس سأرْحلُ لأتعلّم. مثلما رحل، من قبل، باريسيُّون إِلى القرويين ليتعلّمُوا. بين باريس وفاس تجاذب المعرفة. يبدو ذلك شاحباً. وباريس، التي لم تعُدْ تعرف فاس، هي مُسْتقرّي أنا الآخر. أنا الفتى المراهق، الطائش. العنيد. حقاً. إِنّها مُستقرّي. لآخذَ من أبجديتها ما يضيءُ لي سِوَاي كما يضيءُ لي قبري.

ثم تحوّلت باريس، في دروس التاريخ، إلى زمن الثورة الفرنسية. 1789. بهذا الحشد الخارج لتوّهِ من مغارةِ نشيدٍ كوْنيّ، صاعقاً لكُلّ عبودية لا أجيدُها. باريسُ، إذاً، ليْسَتْ مجرد مكان اسمُهُ السربون. ليست مجرد أشخاص، يحملون صفة مفكرين وأدباء وعلماء، يعتكفون، في صمتهم وعذاباتهم، على ابتكار تسمية مغايرة للأشياء والإنسان والكون. باريس شعب يُقيم متاريسه وقلاعٌ تنهَدِم. باريس راية لكلّ مَنْ يعشق أن يكون حُراً. لأنه إنسان. لا لون ولا عقيدة ولا لغة. الإنسان. أوّلاً. وأنا أتابع الدروس وأقرأ كتب التاريخ، كما لو كنت وراء مِتْرَاسٍ أصيح: حريتي، حريتنا جميعاً.

(2)

المعالم الأولى تظلُّ معالم أولى. ولادة جسد ووعي في آن. وأظنُّ أن باريس اختارتْنِي. سنة بعد سنة. كانت تقتربُ منّي. في صور وحالات تحتشد على مسالكي. بين بورجوع وأحياءِ فاس، القريبة والبعيدة. كانت تكبُر معي. وفيها تتجسدنُ الضرورة. لم تُطفْ بي فكرةُ غربةٍ محتملة. فاس نقيضةُ باريس، حتماً. ولكنّي مهيّأ لأعيشَ هذا التناقض. أو إنّني، بالأحرى، مستعد لأتآلف معه. أليستْ باريس صوْتاً باطنياً ترتجُّ لندائه أعضائي؟

وبقدر ما كانت باريسُ تستحْوِذُ عليّ، كان كلامي عنها عابراً. أو شبْهَ عابر. فالصمت لا الكلام طريقي إليها. ومع ذلك شرعت، منذ 1967، في الاسترشاد بمن لهم علاقة بالثقافة العربية في باريس. وأنا لا أعرف كيف سأسافر إِليها. كنت أتخيّلُ، حيناً، أني حصلت على منحة لمتابعة الدراسة. ثم أنتبه، حيناً آخر، إِلى أن بيني وبين الحصول على الباكلوريا سنة كاملة. أصاحب أصدقائي الجامعيين، وأطمئن لوعْدٍ من الرباط. قريب من العائلة موظفٌ في وزارة التعليم، وهو يعد. وباريس تقترب مني.

صديقي الجامعي، أحمد العلوي، بعد حصوله على الإجازة، وعند مغادرته لفاس سلّمني قصيدة. صديقان آخران التحقا بباريس، الأول برغبة مجهولة، والثاني لتعلُّم الخياطة. والأيام التي تنقضي من السنة تنسج، شيْئاً فشيئاً، خيبتي من المنحة. وجدتي الطيّبة هي وحدها التي كانت تفهمني. أصغت،

جيّداً، إلى نشيج باريس في صدري، ومن فقرها الكبير وفَرَتْ لي ما يساعدني على السفر، ثالث يوم بعد إعلان نتائج الباكلوريا.

(3)

من فاس إلى طنجة. من طنجة إلى مدريد. ومن مدريد إلى باريس. يوليوز 1968. فرح السفر أقوى من مخاطره. والمغامرة صديقتي. حتى محطة أوسْتيرْليتْزْ. في وردة الصباح الباريسي. وأنا أحمل حقيبة خفيفة، بها قليل من الملابس وبعض الكتب. لم أشعر كيف نزلت من عربة القطار. ولكني أتذكّره جيداً. كيف أصابتْنِي برودة شديدة. هل أنا، حقاً، بعد كل هذا العمر ألتقي باريس؟ وما الذي يثبت لي أنّنِي أقف على رصيف المحطة الباريسية؟ العلامات المكتوبة؟ الهيكل الحديدي للمحطة؟ نداء مكبر الصوت؟

انطلقتُ نحو باب المحطة. والضوء. وأشجار الدلب. وصفوف البنايات، بقطع أحجارها المستطيلة الصلبة. وقنطرة نهر السين. وأعالي كنيسة نوتردام. باريس. أتركْ لي أيها الصديق، قليلاً من الوقت، لأستنشق هواء الصباح في باريس، لأُسلّم على الأشباح التي لا يراها أحد غيري، في هذا الشارع المؤدي إلى إقامتك. أمهلْنِي حتى تلامس أصابعي ما كنت تعوّدتُ على قراءتِهِ في الكتب. ساعِدْني على الدخول، من بين الجنازات اللانهائية التي تركتُها هناك، إلى معجم الحرية والحياة والمغامرة، كنايات باريس. حاولْ أن تنتظِرَ لحظات حتى تنتظم العواصف في جسدي. عواصف أن أكون هناك أو أكون هنا.

مناجاة صديقي أحمد العلوي تمادت، وأنا أقطع المسافة القصيرة بين محطة أوسْتِيرْليتْزْ وإقامته في 5 زنقة المدارس، عنوان «دار المغرب». توثبت المناجاة وأنا أصعد الدرج إلى غرفته في الطابق الثالث. ثم ها أنا مستلقياً على السرير وسط الحي اللاتيني، وصديقي يضحك. من حي المخفية إلى الحي اللاتيني. والسفر إلى باريس فكرة أولاً، وللمغامرة أن تفتح الطرق. لِمَ لا يأتي الكُتاب المغاربة، بالعربية، إلى باريس؟ السرغيني وحده كان زار باريس في الخمسينيات. ومنها اتجه إلى بغداد. الكُتّاب المغاربة بالفرنسية نادرون آنذاك. كنا نقرأ لإدريس الشرايبي. السياسيون المغاربة. نعم. ولكن أين كانوا يقيمون؟ تجمعوا هنا وأصدروا الصحف دفاعاً عن المغرب.

(4)

الحي اللاتيني. يوليوز 1968. كنت تابعت الأخبار. أحداث ماي حاضرة في حديثنا. ولم أسترح. مباشرة توجهْتُ إِلى حيطان السربون. على مقربة منا. تغطيها شعارات هدْم زمنٍ ولطخات مشعة لزمن آخر. لقد هدأت المواجهات بين الطلبة ورجال الأمن. ولكن الأثر مُعمَّمٌ. شبيبة ثائرة على إنسية لم نتعلمها بعد. وعبر الشارع المؤدي إِلى السين كانت شبيبة العالم حاضرة أيضاً. هل باريس 1968 انتصرت على باريس 1789 أم انهزمت؟ ما الفاصل بين الفكرة والحياة؟ بأي لغة سأتكلم مع باريس الجديدة؟

باريس متعددة. متعارضة. بأزمنتها وأهلها. ورجال الأمن، هنا، لا يقتلون! أي باريس سأختار؟ لهذا السؤال اكتسبت باريس صفة المجهول، ماحيةً كل معلوم. وبه أيضاً لمع في ذهني أن السّفر الحقيقي هو السفرُ في السّفر. باريس النهضة، وباريس الثورة، وباريس بودلير ورامبو وأبّولينير. باريس 1968 وقد تضامنت أصداؤها في مكتبة ماسبّيرو.

اللُّوفر أولاً. ومتحف الفن الحديث. وحيداً أو معَ صديقي. وأنا صامت. أمام أعمال لم أكن أتخيل أني سأسعد يوماً بالتواجد مع أكوانها ومخلوقاتها وتركيباتها، مضيئة حتى أقصى النشوة. حضارات قديمة وحديثة، وأنا منذهل. وهؤلاء الزائرون؟ وهلْ هُوَ فضاءُ الحشْر؟ ومع ذلك يقولون: خلت أوروبا من الروح! بين اللّوفر والسين وكنيسة نوتْرْدَامْ تجري الروح. متدفقةً ومطمئنة. عُشْباً قرمزياً. وبين وثبة وأخرى يتجلّى القَرنْفُليّ. لون السكينة. في السين أصاحب نهر هيرقليط ونهر أبُولينير معاً. ثم نوتْرَدام تتموّجُ تراتيلَ وثنيّة. الضوءُ سيّدُ الكنيسة. ولم تكن الرهبة إِلاّ اسماً آخر للنشْوَةِ والحيرة. ضوءٌ ينسكبُ على مُجسّدَات المعمار وفي الداخل يشفُّ الضوء من الأرض والزجاجيات.

باريس متعددةٌ. متعارضة. أصِلُ بين اللُّوكسمبورغ وبرج إِيفل والأنفالِيد ومُونْماتْر ثم بين جيل التمرد أضيع. وفي ساحة الباسْتِيل أختار مقْهًى لأرْفَعَ نخباً، من النبيذِ الأبيض (دائماً)، تحيةً لمن ثبّتُوا في نفْسِي أنّ الهدْمَ شريعةُ الحياة. بين اللُّوكسُمْبُورغ والباسْتيل كنت أسعى بيْن جنّتيْن، مُتعجّلاً ملْءَ أنْفَاسِي بعَبَقِ ما لا يفْنَى، من حضارة إِلَى حضارة. وبرُفْقَةِ صديقي كان يطيبُ لي أن

أُسلّمَ على الأشباح. فولتير. روسو. بودلير. رامبو. ماتيس. برغسون. طه حسين. جبران. وأترك صراخي ينحَلُّ في حرية الفضاء، حتى عندما هَمَّ رفيقُنا طه عبد الرحمن أن يُلقيَ بي، مرّةً، إِلى السين.

(5)

باريسي الأولى مكان ولادتي الجديدة، حيث لا دائرة تُغلق ليتحقّقَ موْتي. باريس سافِرْ بجسَدِك لاَ بعقْلِك. باريسُ إكتُبْ ما تشاءُ فليْسَ اليومَ عليكَ رقيب. باريسُ اخْتَرْ ضياعكَ تجِدْ نفْسَك. باريسُ افْتَحْ بابَ المعلُوم لتصطَدِمَ ببابِ المجهُول. باريسُ اغْتَسِلْ بماءِ السِّين فلا أنْتَ أنْتَ ولاَ هُوَ هُوَ. باريسُ يقينُك هُوَ الشّك. باريسُ كيف تعودُ إِلى فاسَ وأنت بريءٌ من قناعةِ أهْلِهَا؟ باريسُ أين حدودُ المشرق والمغرب؟ باريسُ. التقَيْنا. ولن يمْنعُوكِ عنّي.

14. الثّلاَثـة

(1)

لَم يسأل أحدُنا غيرَهُ مِنْ أيْنَ جاءَ ولاَ أيّ عائلة ينتسبُ لها. كُنّا شبْهَ نيازك شاحبات، وفي ضحكاتنا نتعرّف على ما يؤالفُ بَيْنَنَا، أوْ على اللانهائيّ فينا. نسْعَدُ بالحرْصِ على مقَاعدِنَا في الصف. وملابسُنَا غنيّةٌ بنظَافتِهَا ولا مُبالاتِنَا ببساطتِهَا. كنتُ أقرب الثلاثة إلى مدرسة العذْوَة الابتدائية. بضْعُ خطواتٍ ومُنْعَطفٌ لتسلُّق دُرَجِ المدرسة وقَطْعِ قُنيْطرةِ النّهرِ كالثعالب نحو الشّساعةِ الأولى. كما كان حفِيظ بوطالب أبْعَدنا عنها بسُكْناهُ في الخرَاشْفِيّين. فيما بوشْتَى الرّيفي متاخِمٌ لبُوعجّارة. من العتماتِ العُلْيَا لحيّ القَالْقْلِيين يهجُم علينا بنشيد الشّفقِ كأنّهُ خارجٌ لتوّهِ مِنْ خرافةٍ يتغيّر عُنْوَانُهَا على الدوام.

الثلاثة. في 1958 التقينا. وتَضَامنًا مِنْ دُونِ أنْ ندْرِي. مناسباتُ ذلكَ كانتْ متوالية. مِنْ صفّ إلى صفٍّ. ومن مُستوى تعليميّ إلى مستوى تعْليميّ. مداراتٌ عثرتْ على سهُوبها، منذُ الوهلةِ العميقة. في أوقاتِ انتظارِ فتح باب المدرسة. في الصمت المُطلّ على حديقةٍ وحشيّة لا أحدَ يفكّر في اقتحام سياجها. في تبادل قراءة القصص. في اللعب المفاجىء لكرة القدم بين جدران الأزقة الضيقة. في معاشرةِ المنتزهاتِ المحاذيةِ لأسْوَار المدينة. في الحزْنِ الذي كُنّا نختبىءُ فيه كلما داهمنا الإحساسُ باشتدادِ وحْدَتنا.

أصدقاءُ الطفولة كانوا من العائلة أوْ منَ الزقاق. ولكن المدرسة، والصفّ تحديداً، قادانا إلى بعضنا. تقاليد فاس يسّرت اللقاء. دون شك. لأن العائلاتِ

الفقيرةِ والميسورة كانت متجاورة. والوافدون على المدينة يندمجون في عقدها الاجتماعي، بعد أن نسيت القبائل القديمة حروبها. مع ذلك كان هناك شيءٌ مَا يُلْحِمُ المودة بيننا، كما لوْ كُنّا تائهين عابرين.

(2)

مودةُ الصداقة هي الرحمةُ ذاتُها. كبرْنا وكبرتْ. ينابيع وسهوباً لم نخترعْهَا. في كل لحظة كانت تنشأُ، وفي المنعرجات المحتدمة كُنّا نتبعُ طُرقاً أُخرَى تهيأتْ لنا أوْ هيّأنَاهَا. صغاراً كنا. مُراهقين كُنّا. وفي الطّوية اختلجَتْ آثارُ اهتَدَيْنا بهَا إلى مَا تحققَ لاَحِقاً. فيهِ عشقٌ أوْ جحيم. ثم كانَ لنا استسلامٌ لقرارِ أنْ نكونَ ما نريدُ أن يكون.

أثرُنَا الأولُ كان اسم المغرب مُجرّداً. لم يتلقَّ أحدُنَا تربيةً عقائديةً في البيت. ولربّما كان ذلك سببَ اكتشافنا، شيْئاً فشيئاً، لمعنى كلمة المغرب. البيت. المدرسة. الأزقة. العمارة الفاسية. القرويين ومولاي إدريس. الأعراسُ والمآتم. الموسيقى. الحِرَف الموزعة بين الأسواق. الزلّيجُ والجبس. حنفيات الماء. التجارة. اللغات. الدارجة. العربية الفصحى. الفرنسية. الشّلْحَة. كل هذه كانت مداخِلُ للاقتراب من المغرب حيناً ثم الضياع فيه حيناً آخر.

وأثرنا الثاني كان العربية. بقدر ما أدركْنَا أنها لغةُ الثقافة والمعرفة في عهود المغرب القديمة، وفي برنامج الحركة الوطنية في فترةِ الحماية، بقدر ما أصبحْنَا نحسُّ، بمفردنا، أنها لغة منبوذة. لا. بل هي صِنْوُ الخراب. «إذا عُرّبتْ خُرّبتْ». ذلك تعبير المباهاة الذي يردّدُهُ تُجّارٌ ومتعلمون. أبناء علماء القرويين أو المسؤولين القياديين في الحركة الوطنية يتلقون تعليمهم، في ثانوية البعثة الفرنسية، أو في الثانويات المفرنسة. وعندما حانت لحظة اختيار نوعية الدراسة الثانوية، سجّلْنا، تلقائياً، ترشيحَنا لاجتياز امتحان ثانوية ابن كيران المُعرّبة.

أثران متواشجان. ولم يمنعْنَا وضعُنَا العائلي من اختيار لم نستشر فيه أحداً. ولم نتنازل عنه أمام غضب يهددنا أو خوْفٍ على مستقبلنا. ذلك هو أثرنا الإضافي، الذي انتقلنا به من طفولةٍ تائهة إلى مراهقةٍ لها العشقُ أو الجحيم.

(3)

هلْ كنتُ سأَخْتارُ غير العربية لوْ لمْ أكُنْ محتمياً بكتيبة الثلاثة؟ هلْ اخترتُ العربيةِ تمرُّداً على سلطة أبي؟ ولكن. بعد هذا. هل أخطأْتُ الاختيار؟ كان شيءٌ ما يدلُّنا على صوابِ الاختيار. وهذا اتّضح في تجربة العشْقِ أو الجحيم. ولا ندمَ. أبداً. إنها لغتي. وهي مأْوَاي. والثلاثة يزدادون تآلُفاً. وفي الصحافة والكتب والحياة، التي تكبُر معنا، كانت خريطة المغرب تتّسِعُ حدودها. تتّسِعُ وتدْمَى. في اتجاه الشرق، بين مِصْر وفلسطين ولبنان.

وكُنَا نحبُّ الفرنسيّة أيضاً. نتعرفُ على أسماءِ الكُتّاب الفرنسيين. نواظبُ على الدروس. نحافظ على صداقاتنا مع إخواننا في الثانويات. وخاصة في مولاي رشيد بباب الخوخة. الأغاني حاضرة بيننا. ونحلم بمتابعة دراستنا العليا في فرنسا، انتصاراً لعربية حديثة. بإلغاء العربية لن نكون. وبإلغاء الفرنسية لن نكون. عربية الفقهاء نمجُّها. والعربية الحديثة تسعى بين مَنْفيَيْن. منْفى في متخيَّل الناس ومنْفَى في حياة الإدارةِ والمعاملاتِ ومستقْبَل الثقافةِ المغربية. تلك ملامح اللسان المقطوع وبداياتٌ متوقّدةٌ للعشق أو الجحيم.

كُنَّا نمطاً سيتلازم مأزقُهُ مع مآزق الحركة الوطنية ذاتها، ما دمنا نُشكّلُ نموذج اختيارها التعليمي ـ الثقافي. عجباً! هذه القرويين، التي نقرأ عنها خطاب التمجيد في الكتب المدرسية، هي، في عهدنا الحر، مجردُ مسجدٍ وملحقاتٍ أقسامٍ بثكنةٍ عسكرية قديمة في باب السّاجمة. لا عِلْمَ ولا عُلَماء. عقود نكاح وبيعٍ وشراءٍ وقراءة على القبور يوم الجمعة. طُلاّبٌ يحتقرهُمْ مجتمعُ فاس ويسخر منهم. يحتقرُنَا. نحن أيضاً. ويسْخرُ منّا. النخبةُ والعامّة. السلطةُ والمعارضة. التعريب شعار في الصحف. واليومي احتقار لا بُدّ منه.

(4)

1965. سنةُ دم شبيبة غاضبة. الدار البيضاء. مراكش. فاس. نتكتّمُ ولا نَنْسَى. إنها السنةُ ذَاتُها للاختيار بين الأدب والعلوم. كانت السنوات القليلةُ السابقة منحت كُلَّ واحدٍ منّا قُوّةَ الاقتراب من ذاته. ثم كانت دوائر صداقات وعوالم تستحوذ علينا. ونحن «الثلاثة» نستعدُّ لسفرٍ نكونُ فيه ضيوفاً على إمكاننا المعرفي. جاهلين إلى أيّ أهْوَالٍ نحنُ راحلُون.

في الخريف تأكدنا من أن اختياراتنا الشخصية تعارض توجيه الإدارة. ومعها الأساتذة. لِمَا أصبح مسكننا الوحيد. حفيظ وأنا معاً، كنا نتوفر على دَرَجَات عالية في جميع المواد. وبهذه الحجة أصَر حفيظ على الانتقال من شعبة الأدبِ إلى شعبة العلوم، وأنا من شعبة الرياضيات إلى شعبة الأدب. وفضَّلَ بوشْتَى الالتحاق بالقرويين.

والثلاثة يفترقون، لأوّل مرة. ضرورة البحث عن الذات استوجبت متابعة مسالك أدغال لم نتعوذ عليها. كلّ واحد منّا بمفرده. لم نلتجىء إلى بطولة ما. كنا، فقط، نبحث عن الذات. في مدينة صلتها الوحيدة بالمعرفة الحديثة انحصرت، أساساً، في الصحافة والكتب الواصلة من القاهرة أو بيروت أو باريس. وفاس لا صحيفة ولا كتاب لها. ونحن نبحث عن الذات. في محيطنا. وفينا. كان افتراقُنَا ميلادَ لقاءٍ جديد. بين حفيظ وبيني. ثم بين الثلاثة.

تلك السنوات المؤدية إلى الحصول على الباكلوريا كانت شبيهة بالغطس في اللّج العذب. حيث يتقمّصُ، كلُّ واحدٍ منّا، كونَهُ الشخصي. يفكّكُه ويعيد بناءَهُ بثقة عنيدة. العلم أو الأدب؟ لا فرق إلاّ في مجتمع مريض. المهمُّ هو هذه الحدود التي تصطدم بها في المعرفة لتشْرعَ مُجدّداً في اختراقِهَا. مسافراً في ألق اللانهائيّ الذي يغويك كما يغوي المعرفة. والمركّبُ يُفضي إلى المركّب. حلقاتٌ تغشاها بمجاهدة تُسِرّ إليك إلْذَاذَها. الكتُبُ أبْهج من الدروس. ورنين اللّمْح فيكَ أفصحُ من ثناءٍ أو تأنيب أستاذ. هذا الكون الشخصيُّ لك في وحدتِك. فاخْتَرْ مَنْ تُخاطبُهُ ولا تعْبثْ بما يختارُك.

سنوات حرية غريبة. نهمل فيها ما يستحق الإهمال. والحزْنُ الذي كَبُر معنا تحت الجلد هو الحزن الذي يبحثُ عن نُضج تؤيّدُهُ الحياةُ نفسُها. ولا نعبأ بقلّةِ إمكانياتنا المادية. مطالبنا اليومية كانت محدودة. شغلني شراء الكتب عن الحلاقة في موعدها، وعن انتقاء الملابس الأنيقة. وللصديقين قناعتهما الكريمة.

(5)

هؤلاء الثلاثة أصدقاء طفولة وأصدقاء حياة. كل واحد منهم تعلّم أن الصداقة نادرة. حافظوا، بغير إرادة منهم، على حزن لا تفسده سلطة ولا مال،

وعلى ذبذبات العربية التي تشهد، مرة أخرى، لحظة احتضارها. وعلى جمرة مغربية تستقرُّ في جهةٍ من الرغبة.

هؤلاء. نحن. هُما وأنَا. لكل مِنّا سهرةٌ في مدن تبعد عن الطرق المعتادة. بوشتى يحرس تلك الأيام في فاس. حفيظ منشغل بسرِّ اللحظة الأولى من نشوء الكون ويحلم بمدينة العلوم والفنون في أكْدال. وأنا أتقرّى مَاءَ وصخورَ المحيط الأطلسي. ضفافٌ زرقاء لنهر عتيق تنادي عليّ. وللصداقة فيضُهَا على ورق الكتاب.

15. منَادِيلُ، منَادِيل

(1)

من بين لفائفِ المُغْفَلِ انبثقَتْ صُورة مناديل نساءِ فاسيّاتٍ. فجأة تكوّنتِ الصورةُ التي ترسختْ في ذاكرتي وتاريخ عيْني. لم أسألْ كيف انبثقَتْ. ولا مِنْ أين. يكْفِيني أنّها تقدّمت نحوِي. مكتملةً. معها جاءَ حيُّ المخفية. جاءَ معها البيْتُ وشمْسُ الظهيرَةِ وبياض جبْسِ الحائط وفناء تتوسطه نافورة وماءٌ وطرْطَقَاتُ علكة المسْكِ الحُرّ. هنيئاً لي بهذا المشهد الأنثويّ الضاربِ في شِعَاب حضارةٍ لها من غرناطة وقرطبة بِقَدْرِ مَا لَهَا من فاس وتلمسان. ونسيْتُ أن مَا يمثُلُ أمام العين هُوَ مجرّدُ صورةٍ مختزنةٍ في ذاكرةٍ مُشوّشة. هي أمامي. وخدَهَا. هذا ما يهُمّني حقّاً. صمْتٌ يؤاخيني معها. وأضيع فيها. أتفقّدُهَا عُنْصُراً عُنْصَراً، وأشَمّ رائحةَ الجير ورَائحةَ البَجْماطِ على أرضٍ أكادُ ألمُسُهَا أو لرُبّما هي التي تكادُ تلْمَسُنِي. وأنا والصورة شقيقَان. تائهان. منجَذِبَانِ إلى بعْضِنَا بعْضاً وبيْننَا هذاةٌ مُريبة.

صورة منديلٍ معقُودٍ على رأسِ امرأةٍ فاسية. حقّاً. إنها كذلك. لا ريْبَ. منذُ غادرتُ المدينة تركْتُهَا هنَاك ومضيْت. ومنذُ غادرتِ المدينةُ المدينةَ أيضاً. حدَاثةُ النساء الفاسِيّات تخلّتْ عن المندِيل المعقُودِ على الرأس. مناديل موضوعةٌ على الكتِف، كما يحْلُو لباريسَ أنْ تأمُرَ الآن. وأَنَا لاَ أرَى، الآنَ، غير منْدِيلِكِ أنتِ. هناك. في حيّ المخفيةِ القريبِ منَ الهاوية. في عيْنِي يلْتَئِمُ. وشيءٌ مِنْ وَدَاعةِ مَاءِ الوَرْد. وهذا الصّمْت. وهديلُ حَمَامةٍ وَاقفةٍ على خُوخَةِ الغرفةِ. ونسيمٌ

يتحرّك. وأنتِ وأنَا. والصمت. وَالظهيرَة. كأن مجيئي إلى العالَم منحصِرٌ في رُؤيتك. لأكُونَ شَاهداً عليْكِ وعَليّ. وعلَى متابعةِ مَا يَنْهَار. فينَا معاً. في هذه الظّهيرة.

(2)

للنّسَاءِ الفاسِيّاتِ في ذَاكِرتي عذاباتٌ وشَهَواتٌ لاَ تلِين. تناقضاتٌ تمتزِجُ في أُلفَةٍ غريبة. ولاَ أسأل عن الحدُود بينهما. أسأل عن سِرّ الوَلَهِ بِهِمَا. كأنّني فيهما أعيشُ الموتَ والحياةَ في آن. يلْتقِيان في بَرزَخٍ مُعَلّقٍ في أقاصِي الشّوْق. نِسَاءٌ فاسِيّات. منهُنّ اقتربْتُ. بين الأنِين وبين الإشْرَاقَةِ أقمْت. لا أفضّلهُنّ على غيرِهن. في الجهَاتِ الأُخرى. ولكنّهُنّ اللّوَاتي علّمْنَنِي أبجدية العذَابِ والشهْوَةِ. جَريانَ اللّيْلِ والنّهَار. عُنفَ الغيَابِ وَالحضُور. تَجَسُّدَنَ الكائن والمُمكِنِ. تَخَاصر الطّبيعةِ والحَضَارةِ. تركيب الحريّة والجمال. وعلّمْنَنِي أنْ أكُونَ غيْرَ مُكترِثٍ بمَا ليْس هُنّ. في العَذَابِ والشّهوة.

نِسَاءٌ فَاسيّاتٌ كُلّمَا التقيْتُ ببقَاياهُنّ اضطربتْ أعْضَائِي أو ضحِكتْ. وهُنّ لي. وَاحدةً واحدَةً. أمَامِي وفي الدّخيلةِ ومَراقي الدّمِ وابْتِدَاءِ الغُبَار. الرؤيةُ متنكّرةٌ لكُلّ حيادٍ. أنَا الذِي لَمْ أضَعْ رأسِي، باخْتِيَاري، علَى صدْرِ سيّدَتي. في رُؤيَتِي إلَيهِنّ أصاحبُهنّ وهُنّ عابرَات. مِنَ الحياةِ إِلَى المَمَاتِ ومِنَ المَمَاتِ إِلى الحَيَاة. أيتُها السيّدَاتُ هَلِ احتفظْتُنّ بقَليلٍ مِنْ طَاعَتِي لكُنّ؟ لسْتُ مهيّأً لأذري. ولكنّي أقولُ: منكُنّ عطشي. منكُنّ شهْقَتِي. مِنكُنّ تِيهِي. منكُنّ صبَابَتِي وطيْشِي. منكُنّ التفجّعُ الوَلَهُ التمرّدُ الانْشِطَار.

وأنتِ، يَا صُورَهُنّ المطمئناتِ تَحتَ أهدَابِي.

رُوَيْداً رُوَيْداً في دِمَائي انسَكِبِي

واجْعَلِي لقَاحَكِ أوّلَ ما ينتصرُ بِهِ كَلاَمي.

ثُمّ انزِلي في الصّدْرِ

ثُمّ انزِلي في الرّيحِ

ثُمّ انزِلي في القِيافي التي مَسَخْتَهَا

أثراً أثراً

ثُمّ انزِلي في حُطامِي.

أنْتِ وحْدَكِ تَخْتَفِينَ

وتَظْهرينَ. ترْتجّينَ

وتَتَقِدِين.

مَرَايَا زَمنٍ كيْفَ يَرْتَوِي منْهُ أبْنَائي؟

(3)

في الظهيرة. سيّدةِ الأوقاتِ كُلِّها. أتعمّدُ أنْ أزوركِ. قادماً من بُورَجُوع إلى المخفية. وأنا أخترقُ كائناتِ العتمة والضوءِ. منْ سقيفةٍ إلى سَقيفة. وهذا المسار موشُومٌ على جسَدِي. خُرومُ حيطان عتيقة. أبوابٌ خشبية بخُرْصَانها. نهاياتُ أشجارٍ تُطلُّ عليّ. سَبَّالاتُ الماءِ بزلّيجِهَا وأقْوَاسِهَا. عَقَبَاتٌ ومنبَسَطٌ. أصواتٌ تخِفُ وتمْتدّ لهؤلاءِ البشر الجالسين على العتباتِ أو السالكين بين منعرجاتٍ تيقّنتُ أنّها صديقاتي. وأنا إليْكِ أتوجّهُ. أدنْدِنُ وخُطواتي متناسقةٌ في بُطئِهَا.

أحياناً أدقُّ على خُرْصةِ الباب. أحياناً أدفَعُ البابَ بهدُوءٍ وأضَعُ قدمِي (اليمنى أو اليسرى، حسب الصدفة) وأتقدّمُ في المجاز. بدايةُ برودة وعتمة ثم وجْهاً لوجْهٍ مع وسط الدار. ضوْءٌ مكثفٌ وخالص. وأنتِ هناك. كالعادة. تتكئين على وسادة والوسادة عَلَى جدارٍ ببياض جبْسِهِ المشعّ. أقْبَلُ اليدَ التي تمتد نحوِي للسلام. أناقتُك هيَ ذاتُها. بسيطةٌ وجاذبة. قميصٌ ومنصوريةٌ مرفوعةُ الأكمام. والمنديل على الرأسِ. منديلُكِ أنْتِ. ومناديلُ مثيلاتك. ينْشدُّ بصري إليه. إليْهَا. وأنَا أخرس.

لا يهمّ أن يكونَ المنديل مهاجِراً من البندقية أوْ مَدرِيد. وإمضاءاتُ المناديل كنتُ أجهلُهَا. منديلُ الورود. إنه المنديلُ الحديقَة. منديلٌ معقودٌ على الرأس. تعلمتُ، شيْئاً فشيْئاً، كيف أميّزُ بين الحرير والسّاتان. لمعانُ منديل الحرير يتضاعف مَعَ ضوْءِ الظهيرة. ولانْطفَاءٍ لمعانِ منْديل السّاتان ضوْؤُهُ المنعش. حديقةُ وزْدٍ وضوْء. وأنا أتركُ عيْني هناك. على الرأس. والوزد. والضوء. والحديقة. وبصمْتِي أرَى أيضاً.

(4)

منديلٌ معقودٌ على الرأس. ملفوفٌ. لفّةٌ ولفتَيْن. يطوفُ بشهْوةٍ على الجبهة. والورودُ تتثنّى، بلبَاقة، حتّى لا ينكسر ساقٌ أو تذْبُلَ ورقة. وألوانُ الورودِ تتقاطعُ بين الثنيات. ثنياتٌ تلْعَبُ بها الأصابع. والثنيات وحْدَهَا تُورّطُ الأصابع. ثنيَةٌ تفسح لغيْرها في الورْد. والضوء. ثنيَةٌ تعْلُو لترقُص وردةٌ أخرى. وردةٌ حمراء أوْ بيْضَاء أو صفراء. والوردةُ الزرقاء. تخرجُ من ثنيَةٍ إلى ثنية. تنحرف وتتّقد. في أعلى الصّدغ. تسْتطيلُ لتطول. في الخابُوريّ تمتدّ لاستدامة الشّوق. أمام الوجه. والعين. والصمت. وبياض جبْسِ الحائط. أزرق يتقاطعُ مع الأبيض. أحْمَرُ يشربُ من أنساغ الأبيض.

وعلى الجانب الأيسر ينعقِدُ المنديل. وردةٌ أخرى. أصابعُكِ خلقتْ هذهِ الوردةَ المجهولة. وردة كانتْ تنقُص ورودَ المنديل. ولها كلُّ الألوان. ثنياتٌ في ثنيات. تُويْجٌ من النار. والطيُوب. والأضْوَاء. ينعقد المنديلُ ليتحقّقَ بهاءُ المنديل. علَى رأسِك. عقدةٌ لها تاريخٌ سِرْدَابيٌّ لا تدركُهُ إلاّ أصابعُك. ولسْتِ بحاجةٍ لمرآةٍ تؤكّد لكِ ابتهاجَ الوردة.

والوردةُ على الرأس. خُصَلُ الشعر تتدلّى مِنْ طَوَافِ الحدِيقة. ومِسلّةِ الحديقة. خُصَلٌ تؤالِفُ بين الجبْهة. والحاجبيْن. والعينيْن. والأقْرَاط. وأسْنان مُسَوَّكة. وظلّ السّوَاك على الشفتين. وخدّيْن ببيَاضِ المِسْك. وطيبِ مَاءِ الوَرْد. وأصابعك توقّع نقُوشاً تطرزينَ بها الثوب. وأنا أخرسُ أو أتحدثُ عَمّا نسيْتُهُ. ببن المنديلِ وأصَابِعِك.

(5)

منديلُ لآلّة مينَة الدّباغيّة. منديلُ لآلّة غيثة كِيرَانة. منديلُ لآلّة هَشُوم شَقْرُونَة. منديلُ لآلّة كَنْزَة لمْرَانيّة. مناديلٌ. مناديل. لسيّداتِ أُلْفَةٍ بها تزوّدتُ في صبَاي. وعيْنايَ تطوفان بهَذِهِ المناديل. في الظّهيرة والظهيرة. ومن بيْتٍ لبَيْت. ومنْ مناسبةٍ لمناسبة. أجلسُ قريباً منهُنّ وأرَى بقيّة مَا لَمْ أرَهُ. أقولُ للأصابعِ: بُورِكْتِ أيّتُهَا الأصابعُ. فيما الهدوءُ يُغطّيني.

ولِمَ أتذكّرُ هذهِ المناديل؟ ألأنّ مناديلَ شوّهتْ هذِهِ المناديل؟ ألأ2نّ ما

يُلْغِينَا أصْبحَ سلطانُهُ أقْوَى مِنْ كُلّ سُلْطان؟ ألآ2نَ عيونَنَا لمْ تَعُدْ تطيقُ الشهْوة؟ أم لأنّنا، فقط، لا نسْتحِقُّ ما تعلِنُهُ هذِهِ المناديل؟ رُبّما كنتُ لأجْلِ هذَا أتذكّرُ. صامتاً. مَا كنتُ أرَى إليْهِ صامتاً. سِحْرٌ أم غرابةٌ أم حَنِين؟ أخْشَى نفْياً أوْ إثْباتاً. ولكنّي لاَ أريدُ لابْتِهَاجِ مَضَى أنْ يكُونَ مَضَى. ذلكَ منطوقُ حداثةٍ. أتشبّثُ بها. هنا. في الصّمت.

16. سَنواتُ النّخو

(1)

أجل! إنها سنواتُ النَخو. تلك هي سنوات الجامعة، بظهر المهراز. على الهضبة التي كنت تعوّدْتُ على جغرافيتها، منذ 1963، عندما خصّصُوا لنا، نحن المعرّبين، قاعات ثكنة عسكرية لتصبح ثانوية ابن كيران. البناية، ذات الأضلاع الثلاثة المبنية، بزاويتين قائمتين، هي نفسها التي كانت مقرّاً لكل من الثانوية وكلية الآداب وكلية الشريعة. لكل مؤسسة ضلعها الخاص بها. تتقابل الثانوية مع الكلية. والمسافة بينهما تكاد تكون مئة متر. قضيت خمس سنوات لقطع هذه المسافة القصيرة ووضع قدمي على عتبة الكلية بصفتي طالباً جامعياً. وقد كنت من قبل، أتجرأُ وألتحق، ببعض الدروس الجامعية.

أنا الآن. بكلية الآداب. هندسة تشبه هندسة. ولكن الأوضاع غير متشابهة. طلبة قادمون من جميع مناطق المغرب لدراسة الأدب العربي بفاس. كلية بشعبة وحيدة. والطلبةُ ليسُوا كثيرين. ربما كان عددهم قريباً من عدد تلاميذ الثانوية. من جميع مناطق المغرب. شوارب ولِحى وذقون حليقة. الطالباتُ امتلأتْ أجسادُهن. أصباغٌ تبدو على وجوه بعضهن. تصفيف الشعر قد يثيرك أحياناً. وملابسهُنّ العادية تتحوّل، مرّاتٍ معدودات، إلى صفعة تنبذُ ذوْقَنا أو انتماءَنا الاجتماعي. طلبةٌ وطالبات تلتقي فيهم تقاليد حياة تتفاوتُ بين الدار البيضاء وتطوان ومراكش ووجدة وفاس. هو ذَا المغرب قد اجتمع، هنا. وأنا الذي كنتُ في الثانوية محاطاً بتلاميذ من أحياءِ فاس، القديمة والحديثة، أصبحت

أعيش لقاء يومياً مع المغرب. تتعدّدُ لُكنةُ الطلبة بتعدُدِ المناطق. أصبحت أصْغِي أكثر إلى الراءِ والقاف الفاسيتين. إلى الشين ـ السين المكناسية والقاف المراكشية. تعابير وحشية قادمة بنشوتها من القنيطرة أو الدار البيضاء. الأمازيغية الريفية والسوسية تنبثق من نداء أو مناجاة.

يمكن لجسدي أن يخترق المناطق المغربية كُلَّها عبر ممرّاتِ قاعات الدرس. دفعة واحدة. ولسنا في القرويين، هذه المرة. لقد اختلفت الأعمدة والدروس. اختلف المكان واختلفتِ المعرفة. اختلف كرسيُّ الأستاذ ومقعد الطالب. البشريُّ أكثَرُ حُضوراً من المقدّس. أليست هذه هي الجامعة التي دافَعَ عنها طه حسين في مقدمة كتابه «في الأدب الجاهلي»؟ مكان المنهج أوّلاً. مكان الفلسفة والتاريخ والحضارة التي تبحث فيها الدراسة الأدبية عن طرائقها ومناهجها. مكان لا نرى فيه، دائماً، حروبنا الثقافية بين القديم والحديث. أنا، الآن، ألتقي بالمغرب. شبيبة تصعد إلى الرجُولة. شعراء. قصاصون. مفكّرون. نُقّاد. مترجمون. لغويّون. ثم القادة. قادة سياسيون ونقابيون. كل واحدٍ يرمقُ الآخر. والصداقات مفتوحة.

(2)

هي سنوات النّحو. لم نقض أربع سنوات في دراسة النحو. الأدب كان مركز الدراسة حقاً. وللنّحْو معنًى آخر يخرج على حدود المعنى التقليدي للنحو. معنًى أخذ، شيئاً فشيئاً، يتسرّب إلى ثقافتي. نحْوٌ يغيّرُ مكانه ليعثر العالم، كما تعثر الحياة، على وضعية غريبة في الإحساس والإدراك. علم اللغة الذي يسري في ذَرَارِي الأشياءِ والمعرفة.

وابتداءً من سنتي الجامعية الأولى بفاس، أصبحت مُطلاً على باريس. لست أدري كمْ من بين الطلبة كان سافر إِلى باريس. ولكني كنت عائداً، توّاً، منها، ومن أخلاطِ أزمنتها. تلك الزيارة، التي فرحت بها في الصيف، دلّتْنِي، في فاس، على ما لَم أصطدمْ به في باريس. ولربّما لم تكن باريس قد اصطدمت به بما يكفي. أقصد اللسانيات والبنيوية.

في الكلية اشتد حُبّي للشعر، من مكان النحو. واشتدّ حُبّي للمعرفة. من

مكان النحو. واشتدّ حبّي للحياة والجمال. من مكان النحو. فكانت سنواتُ النحو. لم يعُد الإنفعال أو المصطلحات كافية. والشعر ينقل فاس إِلى المغرب. يدمج التاريخ بالحياة اليومية. والعمارة بالمطبخ واللباس. والطبيعة بالنص. والسياسة بالإنسان. والدم بالسؤال. والمعرفة بالالتباس والظنون.

لم أقرّرْ، يوماً ما، أنّني سأضع الذات والكتابة والعالم على طاولة لأُجرّب فيها المبضع. كان تعويض الانفعال والمصطلحات بالنّحو ينتهجُ مسارات يصعب عليّ ضبطُها. وعنف اللقاءِ بهذا أو ذاك هو ما قد يكون أعطى للنّحْو سطوعَهُ. مع ذلك كان الشعر مبتدأ الرحيل. هذا مؤكد. فالدرس الأول، الذي تعلمتُهُ من النحو، بمعناه الغريب، هو أن المهم ليس النّص بل كيف يكون النص. وعلّمتني الكتب الفرنسية، أو المترجمة إِليها، أن هذا الكيْف لعبة ذات قواعد.

الماركسية. واليسار المغربي المتوتر. والثورة الثقافية الصينية. وفردناند دو سوسير. والأعداد الأولى من «مواقف». والإضرابات الجامعية. ومجلة «تيل كيل» الباريسية. والرسم. والحانات. وأصدقاء «الكهف». زوبعة زرقاء تتهجّجُ بين أزقة فاس وجسد مقبل على ميلاد جديد لا علم لي به. أنا الآخر في حضرة النحْو.

(3)

أربَعُ سنوات في أرض معزولة، تُسمّى ظهر المهراز. وهذا الشلاّل المجنون يُلقي، من عليائه، بالكتفيْن. ليرتطِمَ نحوُ الشعر بنحْو الحياة. جسَدٌ يبرد صامتاً. يتوجّع وحيداً. يسترخي لأَمبالياً. يتبدّدُ سريعاً. ولا يُطيع. لا يُطِيعني ولا يطيع سِوَاه. ألازِمُ مقهايَ المفضلة اللّصيقة بجدار باب بُوجْلُود على اليمين، وأمامي دبّاباتٌ تَغزُو بْراغ. وسبتمبر (أيلول) الأسود. وأخبار باب المحروق. وسديم صداقات.

عجّلت الثورةُ الفلسطينية بنقاشاتنا حول الثورة. والسياسةُ، التي كانت بعد 1967 تصيبني بالاكتئاب، أخذت مع 1970 تلسعُني. الثورة الفلسطينية أو اليسار المغربي، من شؤون النّحْو أيضاً. كيف تكون الثورة؟ وكيف يكون الإخفاق؟ هكذا انشغلتُ بمصيرِ القصيدة وبالتعامُل مع الحلم. أصدقائي من مرّاكش والدار

البيضاء بفصاحةٍ يتحدثون عن السياسة. فصاحة متأتية من المعرفة بالأخبار والأسرار التي كانوا يتداولونها مع قادة أكبر منهم سناً. وبعض قادة الكلية كانوا بدورهم قد اعتُقِلُوا وهم في المدرسة الثانوية.

ما الذي يجدد اقترابَنَا من الثورة؟ الشعر أم السياسة؟ كان أصدقائي، من بين القادة، منغمرين في الحديث عن السياسة. وعندما تطلّبَ الأدبُ انسجاماً مع الاختيار كان المعجم الماركسيُّ مرجعاً يقاومه اليسار القديم فيما هو يتأفّفُ من التكوين الثقافي الذي يتعدى الحصول على إجازة سعيدة.

أسألهم عن السياسة ولا يسألني أحد عن الشعر. البغْضُ يخصّني بنظرة مُريبة. لم أنْتَمِ لحزب سياسي. ولكنهم لم يكونوا يدركون أن الشعر مربط علاقتي بالحياة والإنسان. لا يتقاسمون معي ألمَ هذا التوحّد بالشعر، الذي فيه وعبرَهُ كنت أقترب من الثورة. نحوُ الشعر ونحْوُ الثورة. أي ائتلاف؟ وأي اختلاف؟

(4)

مع 1970 أصبح اليسار الجديد يتوالد من كلمات الحلم الأولى. 23 مارس. عبد الكريم الخطابي. وبهذا الحلم العنيف أعطيت الشعر استحقاقَ الرحيل. في نحْوِ الدمار الذي استسْلَمَ فَجأةً، ولربّمَا بحثاً عن عائلة مفقودة، لحماقات توهمت العثور بها على أخوة وصدَاقة. أبوّةُ العائلة وأبوة الشعر المغربي قاسيتان. وفي الدخيلة مقاومة للموت لا تنتهي. نحْوُ الدّمار صنْوُ الحلم والحياة. واستسلَمْتُ لضدِّ الشعر في الشعر، غير عابىءٍ بما خرجتُ عليه. لأن ما كان ينعشني هو التطهُّر من برودة جسد ثبّتها خطابُ النشأةِ الشعرية في المغرب. تلك عتمات حفرة تبتلعني. ونحْوُ الدّمار بالِغٌ جدرانَ الألفة والطاعة.

الثورة حقيقةٌ رمت بها في صدرنا الكلمات. هل هي إشكالية اللغة العربية التي تعوض فيها الكلمة الفعل؟ أشك في هذا الموقف. صمَمُ القبابِ الفاسية حرّضَنِي. والموتُ حرّضَني. من ثورة الشعر إلى شعر الثورة. ظاهِرٌ ماكِرٌ. كان السعي إِلى دمار اليأسِ أقْوَى. وفي اختلاجة الحياة فقدتُ ما فقدت. وفيها أيضاً كان ميلاد لغة جاسِرَةٍ تعرضتْ لمحاكمة تبدل قضاتُها النبلاءُ. على الدوام.

(5)

كيف يكون الشعر؟ كيف تكون الحياة؟ نخوٌ يغمرُهُ الشمول، في أرض معزولة، تُسَمّى ظهر المهراز. سنواتٌ أربع نزعتُ فيها إلى رصْدِ قواعد لُعبةٍ هي بين الحياة والحياة. كان الشعر والمعرفة. وشبيبة ظهر المهراز تتّحِدُ في الرفض. وفي الثقافة. ثم كان ما كان.

17. ظلالُكِ الزّرْقَاء

(1)

أتنفّسُ محبّتكِ، هذا الصباح، كما كنتُ، على الدوام، أتنفّسُها. أتنفّسُ عفوَكِ في حياةٍ لا عَفوَ فيهَا. أنا الطفلُ المراهقُ الشيخُ الهرم. أرَى إليْكِ تُطلّين من شُبّاكِ الغرفةِ، سائلةً عنّي. ثُمّ أتأمّلُ مرْقَدَكِ في بابِ الحمْراءِ. أنَا البعيدُ على شاطىء الأطلسيّ. أغفُو لأهتدِيَ لرنين خُطواتِكِ المتعجّلةِ. بُكرةً وأصيلاً. نحو أُصَصِ زُهورِكِ في السّطح. أو نَحْوِي.

على مدَى عُمري تنفستُ هذه المحبة. من غيْرِ تلعْثُم. ومنذُ أنْ غابتِ السيدةُ عن أختي وعنّي. بنزيفها غابت. ونحْنُ لا ندري كيفَ تكونُ أمُومةٌ أو أبُوّةٌ. هذا العالَمُ الغريب الذي يفتِنُ الصغارَ. الذي نسمّيه طفُولةَ. وأنْتِ. وحدكِ. اقتربْتِ مِنّا ومِنْ نزيفِهَا. قُلْتِ: أنتُما حيَاتِي ومَمَاتي.

تعلّمْنَا طريقةَ نُطقِ «لَلاَّ» لتَبْدأَ أنْتِ في رحلةِ الكلماتِ والوحْدَةِ. نداءُ «لَلاَّ» أنتِ. في غرفتِنَا المستطيلةِ. الشاهقةِ ببياض جبْسِ البيوتِ الفاسيّة. جبْسٌ أملسُ. حُبَيْبَاتٌ رماديّةٌ تتوزّعُ البياضَ. ونحْنُ نكادُ لا نَعْرِفُ سواكِ وجدّي. على امتدادِ الغرفةِ المقسّمةِ إلى أقْسَامٍ ثلاثةٍ. جهةٌ للنّوْمِ. جهةٌ للأكْلِ والراحةِ. والنّهَايةُ لمطبخٍ أوْدعْتِ فيهِ الأواني الأوّلية، حيْثُ لاَ شيْءَ يزيدُ عنِ الحاجةِ. أواني العيدِ هي أواني الحياةِ اليوْميّةِ.

بسيطةٌ كبرياؤُكِ. بنَا وبجدّي كُنتِ منشغلةً. وبأُصصِ الزّهُورِ في السّطْحِ.

لم تكُوني مُهتمّةً بالفاخِر منَ الأوانِي أو أثاثِ الغُرفةِ أوِ اللّبَاسِ. أنْتِ باذِخةٌ ببسَاطةِ كبريَائِكِ. بنظافةِ كُلِّ شيْءٍ. والغرفةُ منسّقَةٌ برخمةٍ أبديّةٍ. يداكِ ترْتِقَانِ أو تخيطانِ أو تُهيّئان. والغرفةُ كوْنٌ لهُ المداراتُ الخفيضةُ. من توقُّدِ الأحْشَاءِ يصْعَدُ ذِكْرٌ نبويٌّ، بعْدَ صلاةِ العصْرِ، وفي طلبِ الشّفَاعةِ يتموّجُ. يا أوْليَاءَ المدينةِ. مولاي إدريس. سيدي أحمد التّيجَاني. سيدي أحْمَد الشّاوِي. سيدي عبد القادر الفاسي. لا تَنسَوْا جدّتِي. لا تَنْسَوْهَا في حلقاتِ الذِّكْرِ. فهْيَ وحيدةٌ بمرْقَدِهَا. بقَايَاهَا بقَايَاي.

(2)

السّوْسنُ والريْحان. اليَاسَمِينُ والغطَرْشَة. الفَنُّ والغُنْبَاز. تلك ألوانُ وطيوبُ الأندلسِ في ذاكرةِ جدّتِي. وفاسُ مدينةُ الحضَارةِ. ليَ الحقُّ في ذاكرةٍ لم تشوّشْهَا ملامحُ أقنعةٍ لحضارةٍ أُخرى. حقٌّ تحصّنُهُ الحكايةُ. ثم تنشئُهُ الأغاني السريعةُ. كأنّها نيازِكُ تتكاثَر في مستقْبَلِهَا. ألوان وطيُوبٌ هي ما تحتفِظُ به جدّتي لتُعِيدَ ترتيبَ طفُولةٍ تَقفِزُ فَوْقَ السُّطوحِ بجيرِها.

بُكرةً وأصيلاً. وأنَا أُساعِدُهَا على حمْلِ سطْلِ الماءِ لتسقِي الأزْهَار. بتؤدةٍ تصبُّ الماءَ ومُدْندِنةً بقليلٍ من الكلماتِ. ربما كانتْ أدْعيةً. رُبّما كانتْ مُناجيَات. والقليلُ منَ الكلماتِ يكْفِي لتنبَسِطَ بشَرةُ وجْهِهَا. ظهْرٌ ينحنِي اقتراباً مِنَ عوالِمَ كنتُ أتخيّلُهَا، حسب اللحظاتِ التي تختارُها، كُلَّ مرّةٍ، من طفُولَتِهَا. هي الأخرى يتيمةُ الأبويْن. كانَ أبوها من كبَارِ تُجَارِ المدينة. ابن شقْرُون. بائع التمر والجوز والزبيب. وذات ليلةٍ راقب اللصوصُ ما جمعه من أكياسِ وقِفَافِ اللّويز الذهبي. فكانتْ نهايتُهُ. هو الذي كان صاحب قصر (لَمْ تدُلّنِي عليْه أبداً). في قبّتِهِ العُلْيَا آلات جوق البريهي، التي يعزف له بها، دون غيره، نوْباتِ الآلةِ الأندلسيّة. كان أخوها عالماً، يأتي بأحْمَالٍ من الكتب إلى البيْتِ. لا يفارقه بياض اللباس. جلباباً وعمامة. لكنه توفي. قبل الزواج. في سن الثلاثين. كانت صديقاتها الوهْرانيّات. برأس الجنان، يحافظْنَ على أغاني غُرْبتهنّ. بعْدَ هجرةِ الأجدادِ من الجزائر، فِراراً من الاستعمار الفرنسي. قليلٌ منَ الكلمات. يُخْفِي حيواتٍ. صامتة. بدون شكْوَى.

(3)

كنتِ تنبِّهينَنِي على آثارِ السيدة. وتفضّلين أنْ يظلّ الغامضِ غامضاً. ألأنّنِي كنتُ لا أقْوَى على معرفةِ حقيقةِ النزيف؟ أم لأنّ المستقْبَلَ، في عينيْكِ، أوضحُ من الماضي؟ صمتُها وصمْتِي يتآلفَان. والدخيلةُ يتنازعُهَا السّحابُ والقراءة. أنا عاشِقُ السّحَابِ والأحْجَار. وأنتِ لا ترْغمينَنِي على شيء. تترُكينَنِي أخْتَارُ ما اخْتار. في الدراسةِ والصداقاتِ. عهْدِي معكِ كان حريتي الكُبْرى. وظلالُكِ الزرقاءُ أوّلُ ما اهتديْتُ بِهِ إلى نفْسِي. وأنَا بين يديْكِ أتعلّمُ أبجديةَ الفُقْدَان.

في البدْءِ حضَرتِ لي جبدُورَ الختان. مع الجَبْدُورِ طرْبُوشٌ وبُلْغةٌ وحَسْكةُ شمْع. أوْقِدُوا للمخْتُونِ ليْلَتَهُ. وبخُفُوت زغْرِدْنَ يا نِسَاءَ البيْتِ. حتّى لا يَسْمَع الجيرانُ. إنها أيامُ حدَادِ المدينة على موْتَاهَا السّاقطين برصَاصِ جنود الاستعمار. ليكُنِ الحفْلُ مُتكتّماً. ولْيَنْتهِ كُلُّ شَيْءٍ في حينِهِ. معَ صلاةِ العِشَاء.

ثُمّ كانَ الجامِعُ. سنوات لزمْتُ فيها الصّحْنَ والرّكْن المقابلَ للمحْراب. أقرأ وأعيد. بين ذكُورِ الملائكةِ وإنَاثِهِمْ. بين الجحِيمِ والجِنَان. وأنتِ في الصباحِ. ومِنْ صباحٍ إلَى صباح. تبادِرين بكأسِ أتَايٍ وكسْرةِ خُبْزٍ وتمْرٍ أوْ زبيبٍ أوْ حبّاتِ زيتون. أحياناً تتكرّمينَ بنقُودٍ أشْتَرِي بهَا، في الطريقِ إلَى الجامِعِ، إسفَنْجاتٍ ساخنةً.

ثم كانَ النّهَارُ والنّهَار. والمدرسةُ. وأصدقاءُ تَحتفلينَ بهم. ودفاتِرُ. ومحفظةٌ. وكتُبٌ. ودَواةٌ. المدرسةُ على بضْعِ خُطواتٍ من البيْت. بذْلةٌ للصّيْفِ وبذلةٌ للشّتاءِ. في المساءَاتِ تحيطِينَنِي بِالصّمْتِ لأقْرأَ ما لاَ تفهمين. ولاَ تسْألين عمّا أقرأ. لقد كبُرتُ الآن. ولي غرفةٌ صغيرةٌ أجدّدُ صبَاغتَهَا. على الجدران أعلّقُ صوراً وخطوطاً. وبجنْب السرير جهازُ راديُو اشْتريتُهُ مِمّا توفرَ من نُقُود. كبُرتُ والظّلالُ هي الظّلاَل.

أصدقائي، الفرِحُونَ برؤيتِكِ، يلْتقُون بي في فناءِ البيْت. نافورةٌ وماءٌ وأرْبعُ شجَراتٍ تائهات. وأنْتِ تُقدّمين لنا برّادَ الأتَايِ. أصْدقائي وإخْوَتِي وأطْفَالُ العائلة. اكتشفْنَا ذَاتَ صيْفٍ أنّنَا كبُرْنَا لنرْحَلَ في نُزْهةٍ. ثُمّ لنلتحِقَ بالجامعة. وأنْتِ تتعجّلينَ زَواجِي. لتطْمَئنّي عليّ. بين يديْنِ كريمتَيْن.

(4)

عمري الأول. تفيّأتُ فيه الظلالَ الزرقاء. جدّتي. وحْدَهَا كانتْ تدافِعُ عَنّي. العائلة ضدِّي، وهي بمفرَدِها معي. تحْمِيني من قَسَاوةِ اليتم. تحسّ ببداية الدروب التي أقتحمها، رغْماً عن رغبة الآخرين. حتّى عُزْلتي كانتْ تحافظُ عليها. وعندمَا طالتِ العزلةُ واشْتَبَهَ أمْري بالجنُون لم تُظْهِرْ جزَعاً أمَامي. تدْعُو لي وتصْمُتُ. كلامي عن الحياةِ والموْت. عن القيَم والنّاس. عن الزّلّيج والماءِ والأسْوَارِ والملحون. وتمرُّدي على أوامرِ أبُوّةٍ لم تَمْتَزِجْ بحنَان. هنا تصْدأُ الكلماتُ ويبدأ ليْلُ عهْدِي العنيف.

ووحْدَها كانتْ تومِنُ بي. بإيمانها تضاعفتِ الكتب في غُرفتي. أخوها كان عالماً، ولربّما من خلاله كانت تنظُر إليّ وتوفرُ لي حريّةَ اختياري. والزمنُ لمْ يكُنْ مواتياً. ظِلالُهَا زمني. أحْتمِي به وأضيع. مع المتنبّي. أوْ مَعَ الشابّي. أوْ معَ السيّاب. أوْ مَعَ أدونيس وبُودلير ورَامْبُو. إنّهُمْ شجرةُ نسبي. وهي الظلال. يَداهَا لأجْلِي. ولأجْلِ قَلَقِي.

(5)

كبرنَا معاً، يا جدّتِي. كانتْ تجاعيدُ وجْهِكِ تَتّضِحُ. وأصْدِقائي يُشْعِرُونني بخطر ما أكتب. همهماتُ التمرّد تسْتَقيمُ. وأنْتِ لاَ تَدْرِينَ أيّ جحيم يقُودني إلى هناك. لقد أصبحْتُ قلِقاً عليْكِ وعلى نفْسِي. تشيخينَ قَبْلَ الأوانِ ووحدتي تكبُر على طريقِ خوْفِي مِنْ موْتِكِ أنْتِ أيضاً. نحُولُكِ يحتدُّ فيه صُرَاخي. أنْتِ أيضاً. لاَ. لاَ تَنطفِئي. أجْلِسُ بقربكِ سَاعَاتٍ. يدُكِ بين يديّ. أحْكِي لكِ عن فتيَاتٍ. بهنَّ التقيْتُ في الحكايةِ أوْ في الجامعة. لسانُكِ لا ينطقُ. عيْنَاكِ تُنصِتَان. تَغُورَانِ وتُنصتان. والعرقُ على جَبينِكِ. تتحرّكُ أصابعُ يديْكِ فأفْرَحُ. مَنْ ستخْتارينَ لِي مِنْ بينهنّ. أنْتِ أيضاً. لاَ. أبْعِدُ عنْ صدْرِكِ الغِطَاءِ. وأنْتِ أيتها الألوانُ والطيُوبُ تقدّمِي نَحْوَهَا. ويَا هَوَاءُ امتزِجْ بأنْفَاسِهَا. امْتَزِجْ. ويَا عتمةُ ارتفِعِي إلى العلْيَاءِ. عظامُهَا باردةٌ. لا تحْتملُ العتماتِ. عيناكِ تغورَانِ. تغُورَان. مِنْ سقْفٍ إلى سقْفٍ. وأنْتِ أيضاً. جدّتي.

18. قليلٌ منَ الرَباط

(1)

في بداية الخمسينيات كان ميلادُ اسم مدينة الرباط. في أذني ومخيلتي. أشك في أن يكون تاريخُ ميلاد هذه الاسم، بالنسبة لي أنا الفاسيُّ الصغير، متزامناً مع حدث نفي محمد الخامس. ولكني متأكد من أن عودته من المنفى، ثم إعلان استقلال المغرب. تركا معاً اسم الرباط موشوماً على جسدي، الذي لم يكن متعوداً، بغدُ، على الجغرافيات.

منذ العلاقة الأولى بهذا الاسم جاءت الرباط في صورة احتفال شبيه بعيد وثنيّ وكرنفاليّ في آن. سافرتُ مع أبي إلى هناك. حيث كان يلزمنا ليْلٌ طويل للوصول إليها. كأن الطريق من فاس إلى الرباط نفقٌ متعب. الرباط خلائق من كُلِّ فجّ. الرباط أعلام. الرباط هو هذه الصفوف العسكرية تمرُّ بصعوبة أمامنا. عذاب التسلُّق لرؤيةِ صفوف تلي الصفوف. شعاراتٌ وهتافات. ولا أعْلَمُ من كان يحملني أحياناً لرؤية العابرين، المتماسكين، بأزياء غريبة عنيّ. لا أتذكر سوراً ولا عمارة ولا شارعاً. من نهاية النفق إلى الازدحام والمشاهد المتقطعة. وجعتُ حتى ما بَعْدَ منتصف اللّيْل.

يصعب عليّ تصديقُ أن فاسيِّينَ كثيرين سبقوني إلى الرباط. كان اسمُ السينيغال والدار البيضاء يتردّدُ في البيت، إلى جانب اسم طنجة. أما الرباط فلم تنضج مشاهدها في مخيّلتي الصغيرة إلاَّ مع السنوات الأولى للاستقلال. أخبار السلطات والوزراء. الإدارات والمناصب. الرباط مدينة المدن كُلها. يكفي أن تسافر إلى الرباط أو تمتلك بعض أخبارها، حتى تصبح موسوماً بنهاية الامتياز.

(2)

مع نهاية الخمسينيات كان الفاسيُّون يتعاملون مع الرباط كمنطقة مهاجرة من فاس. عائلات فاسيَةٌ تتوافد على الرباط. كما يتوافَدُ أبناء مدن أخرى عليها. لممارسة أعمال إدارية في الوزارات والإدارات العليا. وصحيفة «العلم» تأتي من الرباط. مدينة فاس لم تَعُدْ مقرَّ السلطان. منذ المرحلة الأولى للحماية. وفاس تتذكَّرُ تجارتها، التي أصبحت متمركزة في الدار البيضاء.

كان علينا، نحن الصغار، أن ننتظر الستينيات لندرك أن مسار العلم تحول هو أيضاً عن فاس. ليستقر بين باريس والرباط. القاهرة وردة ذابلة. الأكبر منا سِنّاً، أصبح عدد البالغين منهم مستوى الدراسة الجامعية يزداد. ليرحلوا إِلى باريس أو الرباط. ثمّ مع عودتهم إِلى فاس تكون الفرنسية لغة الحديث بينهم.

منذ الأربعينيات انتبه الفاسيون، مثلما انتبه غيرهم، إِلى بطلان تعليم أبنائهم في القرويين. العلماء والتجار ورجال الدولة. فاس القرويين تكتفي بأبناء القرى وأبناء العائلات الفقيرة، من فاس، وبقايا عائلاتٍ من مدن أخرى لم تنتبه بعْدُ إِلى سمة الزمن المغاير. أولئك الأبناء النادرون للعلماء كانوا، إلى جانب أبناء رجال الدولة وكبار التجار، أول من اختار فرنسا. كما اختار أهل شمال المغرب إسبانيا.

أنا الآخر لم ألتحق للدراسة بالقرويين. كانت الحركة الوطنية مهدت لنشر فكرة المدارس الحرة المعربة. ولم يكن قادة الحركة يعلّمون أبناءهم فيها. إنها لما سمّوهُ بالشعب. أبناؤهم في المدارس الرسمية، ذات التعليم الأساسي بالفرنسية. بالمدرسة الرسمية التحقت بعْدَ قرار العائلة. وبقراري الشخصي اخترت الثانوية المعربة لأواجه الحُبسة في مجتمع لا يعبأُ باللغة.

(3)

فاس الستينيات لا سلطة ولا تجارة ولاَ علْمَ لها. ضريحٌ لا يتذكر موتاه. ضوءٌ يترنّحُ فوق الأحجار العالية من أجل حدادٍ طويل. بسخرية كُنّا نلهو بقولتهم «فاس عاصمة العلم والعرفان». لا شكَّ أن السابقين علينا كانوا أقدر منّا على السخرية. وأنا، الذي أصبحت مُحِبّاً للأدب والشعر، كان عليَّ انتظار جريدة

«العلم» الآتية من الرباط. أو الاستمتاع بضبط المكتبيين وأصحاب الأكشاك وهم يفتحون طرود الكتب والمجلات الواصلة إلى فاس من القاهرة وبيروت. ثم، في مرحلة موالية، بمراقبة واجهة مكتبتين في المدينة الجديدة، حتّى لا يفوتني عنوان فرنسي جديد يصل من باريس.

الرباط ملتقى المثقفين. كُتّاباً ومسرحيين وفنّانين تشكيليّين. الدار البيضاء ملتقى المثقفين أيضاً. ولكن الرباط ملتَقى المثقفين والسياسيين والطلاب والمراكز الثقافية. إنها بؤرة اللقاء والقرار. هكذا تلمسْتُ الرباط. مع نهاية الستينيات. ثم رصدت الدار البيضاء كفضاء يتقاطع فيه الشعر مع المسرح والتشكيل. الرباط بؤرة. باب الرواح المفضية إلى شارع محمد الخامس، الذي تتقاسمه المقاهي الخاصة بالإداريين. أو إلى شارع علال بنعبد الله، حيث المقاهي القريبة من جريدة «العلم» تحتضن بعض الكُتّاب والفنانين. هذه البؤرة مُجَمّعُ صناديق معلقة يقلُّ فيها الضوء والهواء. وعندما أصبحت أزور صديقي محمد الخمار الكنوني كنتُ أحرص على مغادرة الرباط بمجرد الانتهاء من النقاش معه، حول آخر قصيدة كتبها أو كتبتُها. بابُ الأحد أقربُ إلى نفسي من الصناديق المعلقة بمجموعها. أتهيّبُ مخالطة المثقفين. وذاكرة المدينة معتمة وباردة.

(4)

العودة إلى فاس في نهاية الستينيات، وأنا في الثانوية، أو في بداية السبعينيات، وأنا في الجامعة، كانت تعني لي التخطيط مجدّداً لزيارة الرباط. وبقدر ما يتضاعف أصدقائي من المثقفين في الرباط بقدر ما يتضاءل الأصدقاء أو يثبت عددهم في فاس. هل الرباط مستقبلي الثقافي؟ لم يكن هذا السؤال يبعث في الدخيلة فزعاً. فاسُ ماضيَّ الذي ألوذُ به في الصمت. قبابٌ وألوان تغشاني. مع ذلك فهي جنازة تتكرر يوماً بيوم.

عندما طبعت «ما قبل الكلام»، ديواني الأول، في نهاية 1969، كانت الرباط طريقي الأولى، ومنها إلى الدار البيضاء. قبل الفجر كنت جاهزاً للسفر، صحبة صديقي الطابع أحمد الرايس. وفي الطريق كان ظلام النفق القديم يتأكد. معه اختلطت الصور في ذاكرتي. والأحاسيس انهمرت شلالاً عنيف الاندفاع. لقد انتهت فاس التي يمكن أن تكون أوّلَ من يفرح بديوان لأحد أبنائها

المعتوهين. الرباط وحدها مدينة استقبال الإِنتاج الثقافي. ومنه هذا المخلوق المرتجف. الذي لم نتعوّدْ بعْدُ على إنتاجه في المغرب. بضعة دواوين هي التي كانت صدرتْ بين الثلاثينيات وتاريخ صدور «ما قبل الكلام».

بعد استئذان خجول. يقاوم مفاجأة النظرة الأولى. كان عبد الجبار السحيمي يستقبلني بمكتبه في جريدة «العلم». ابتسامة ترحيب وثقة بادرني بها، هو الذي كان نشر قصيدتي الأولى في «الملحق الثقافي» بتعليق أنعشني و «شاعر يدق الباب». والرباط أصدقاء أسلّمهم نسخةً نسخةً من الديوان. بعضهم هنا في الجريدة. ولم يخطر على بالي أن أطلب شيئاً إضافياً من الرباط. أثناء تسليمي لعبد الجبار السحيمي نسخة ربّما كنت باحثاً عن الصداقة. قبل أي شيء آخر. وفاسيتي، التي كانت كفّتْ، منذ 1965، عن الافتتان بحجابي عن غير الفاسيّين، بفضل الصداقة الكريمة مع محمد الخمّار الكنوني، هي ذاتها التي أنستْني الانشغال بتدبير اللقاء بفاسيّين مثقفين مقيمين في الرباط. صدفة (من يدري؟) كانت أوّل كلمة مكتوبة توصلت بها عن الديوان هي التي أمضاها محمد عزيز الحبابي، من مدينة الرباط.

(5)

وتظلُّ الرباطُ. بالنسبة لي. على الدوام. قليلاً من الرباط. إلى الشاطىء الصخري. بحي المحيط. كان محمد الخمّار الكنوني يأخذني لنتابع حركة النوارس. بين المساء والصخر والأعالي. طبقة نحاسيّةٌ ترتجُّ فوق المساء. والنوارس أراها، هنا، لأول مرة، فأتخيّل بدر شاكر السياب يراقبها ويرفع لها في قصائده السماء والرذاذ. أرافق عبد اللطيف اللّعبي إلى قصبة الأوداية لنشرب أتاي. نتأمل الشعر ومجلة «أنفاس». وفي خلوة شالّة أصاحب العائدين بالجثمان من الأندلس. لقالِقُ يحتدم معها صمتُ سيّدٍ مجهول.

قليلٌ من الرباط. وأعود إلى فاس لتفترسني النهايةُ الأكيدة. أقتربُ من فاسَ فأبتعِدُ عنها. هل تلزمني كلُّ هذِهِ الأضرحة لأجدّدَ مقاومة الموت. بالكتابة. وفي الكتابة؟ أتفقّدُ أحشائي وأسأل: أي سلطةٍ أبتغيها من الرباط وأيُّ امتياز؟ تعبي قويٌّ، وصبوةُ المجهول تعتقِلُها أسوار فاس.

19. امْطار

(1)

فاسُ المطرِ لم يَحتفِلْ بها الشعراءُ ولاَ المؤرّخُون. عادةً ما كانَ الشعراءُ يتعلّمُونَ الربيع عن غيرهم. في قرطبة أو بغداد أو حلب. لم يعثروا على الربيع إلاّ محفُوظاً في دَواوين الشعراء السابقين عليهم. لم ينْزِلُوا ضُيوفاً على فاس المطر. في فصول الشتاء التي نمْنَا ولهوْنَا وانتشينا تحتَ سقيفتها. من سنةٍ إلى سنة. منذ أن يشرعَ الخريف في الانتصار على العين والقلب. وعلى القدميْنِ أيضاً. بُذورُ عواصفَ وغيُوم تتحوّلُ معها السّمَاءُ والأشجارُ والسطوحُ إلى كائناتٍ مزهوّةٍ بخُرافَاتِهَا. ونحنُ نتوارثُهَا، كما نتوَارثُ الريحَ والطقوس.

وفاسُ المطرِ تتّسِعُ منَ الدروب الضيّقةِ إلى الضواحي. سراديب تتعلّقُ أفقاً. مطر يولَدُ من مطر. وهاهي المدينةُ برُمّتِهَا تنفَتِحُ على اللاّنهائيّ الذي بِهِ تكُون. مدينة ماءٍ وطيوب. سادةٌ وأولياءُ وفقراءُ عراةً يخرجُون لاستقبالِ المطرِ واستقْبَال بعضهم بعضاً. يحتفِي الأحياءُ بالأمواتِ تحت قبابهم الخضراءِ أو في المدى المتصاعدِ حتّى يبلُغَ الغيم. من بُورَجُوع إلى الرّصيف من القرويين إلى الشرَابْليّين. من بُوجْلُود إلى زلاَغ وتِيسّة ووزّان. جغرافيةُ تراتيل تردّدُ رحْمةَ السّمَاءِ. ومدَارُ العطشِ واحدٌ. أفقٌ صلْصَاليّ وبغضُ تِلاَل. مركزُ فاسِ المطرِ يترامَى بعيداً خارجَ الأسْوَار. هناك يتحدّدُ مصيرُنَا الكُليّ. سادةٌ وأولياءَ وفقراء.

فاسُ مدينةُ الماءِ. والماءُ طفْلٌ مطريّ يخرجُ ضاحكاً مِنْ «مغداتِ» لا حصر لها. ومن النوافير. البيوتُ والمساجدُ والمطاحِنُ والأزقّةُ والحمّامَاتُ والسّقّايَات.

انظُرْ إلى الماءِ يفيض مِنْ يديْكَ وبينهما واقْرَأْ في الماءِ جغرافيةَ التراتيلِ من فاس إلى وزّان. خلائقُ بحُنجرةٍ واحدةٍ تباركُ الماء. وفاسُ المطرِ أمْطار.

(2)

من منّا يهْجُمُ على الآخر، وجوهُ الطفولةِ أمْ أنايَ المكتهلَة؟ أرتابُ في أنْ يكونَ هذا السؤالُ صادراً عنّي. ولرُبّما كان صادِراً عمّنْ يَرَى إلَيَّ وأنا مُسْتَمسِكٌ بخُلوةٍ أتدرّبُ على صداقتِها الصّعْبة. بين أنَايَ ووجُوهِ طُفُولَتِهَا جفافٌ صارَ روَاية أبْطالُهَا تُربَةٌ وسَاكنُوها. سنواتِي على المحيط الأطلسيّ ضاعفتِ الجفافَ. عين قصيّةٌ عن مطرِهَا. وتربةٌ أمَامِي. حقولٌ ونباتاتٌ سريعةُ اليباسِ والتشقُّقِ. غوْرٌ يئنُّ. لفحةٌ لاَ تمْضِي. عنْدَ الظهيرةِ تتأكّدُ من توالي الأنينِ ومنَ الحشْرَجَاتِ السيّدة.

هنا أيضاً سادةٌ وأولياءُ وفقراء. هُنَا تراتيلُ بوجَعٍ لا يقِلُّ عن وجعِ الترّاتيل هناك. والسماء هي السّماء. هل ثمةَ صدفةٌ أم سببٌ؟ غضبٌ أم نسْيَانٌ أمْ تكوين؟ أسأل ثم أتصفّحُ تاريخَ الأرْضِ مِنْ عهْدٍ إلى عهْدٍ. أقابلُ الجَفَافَ، وجهاً لوجْهٍ، معَ مُنشئِهِ، وألْقِي بجسدي بين عبادِ الجفافِ الصامتين اليائسين الهاربين الوحيدين. أُلقي بهِ كوْمةً من قشٍّ أو حَطَب لا ليتذكّرَ بلْ ليَنْتَصِرَ لهذَا الألَمِ العظيم.

ويكادُ ينهشني يقيني بأنَّ الطبيعةَ ليست متساويةً، وبأنَّ الطبيعةَ والحضارةَ أصبحتَا متجَافيتَيْن. أفقٌ رصاصيٌّ يمنَعُ التربة عن مطرها لتتضامَن المآسي التي لا يحسُّ بها غيرُ عبَادِ الجفاف. هنا يتحوّلُ الحزنُ ألماً مُعمّماً والألَمُ مسغبةً تصيبُ الأجسادَ بأرواحِهَا. والمسْغبةُ. طلباً لمنْ يُعطي ما يشاءُ بما يشاء أو بحثاً عن قواربِ الموتِ. بين طنجة والجزيرةِ الخضراء.

(3)

مطرٌ يُبلّلُني فأفْرَحُ بالمطر. وعندما أسْعَدُ بالمطرِ في بدايةِ الصباحِ أصْعَدُ خفيفاً لأفْتح مِزْلاجَ الباب الخشبيّةِ وأقْتحِمَ فضاء سطْح البيْتِ. هكذا كنت في طفُولتي الأولَى أهبُ جسَدِي للمطر. كنتُ أودُّ، دائماً، أن أعلُو أكثر ممّا علوْتُ لتسْعَدَ أعضائي بحرارةِ المطر. أرفع يديَّ وأفتح أزرارَ القميص ليُصِيبَني المطرُ بأشْيَائه التي لا أفْهَمُهَا. الماءَ الماء. أيُّهَا المطرُ انهَمِرْ وانفُذْ إلى شرايِيني. أيُّها

المطر انحفِرْ وشماً أستعيد بِهِ حريقي. وأنتَ أيُها السطحُ ازْحَلْ بِي فوق بيوتِ فاسَ كُلِّهَا. قرِّبْني من عُلُوّ المآذِنِ والتلالِ وانْشر عليّ غُلاَلَةَ خضْراءَ من أقْصَى الماء.

أحياناً يفاجئني المطرُ وأنا خارجَ البيت. لبَاسي لا أُبالي به كثيراً. ورأسي العاري أحتفظ به عارياً. كنتُ أتعلّقُ بصَبيب المطر وأنا أمْشِي، مخالفاً أولئك الذين يلجأونَ إلى سقيفة يحتمون بها من الماء. ينتظرون توقّف المطر وأنا أمْشِي. كما لو كنتُ أجتازُ أصواتاً جهيرةً تتناسقُ إيقاعاتها عبر امتدادِ الأزقّةِ والأزمنة. لم أكُنْ أدري من أيِّ مكانٍ هذه الأصوات تُنْسَجُ ثم تضيعُ في أعضائي. لكل عُضْوٍ قسطه الخاصُ من هذهِ الأصواتِ العذبةِ التي تستودعُنِي لذاذتَهَا. ولا أخْشَى شيئاً مِمَّا سيُصيبني لاحقاً. مع شدّةِ المطرِ تتّضحُ أضواءُ رحمةٍ لا غرْبَ ولا شرقَ لَهَا. منبثقةٍ من جوْفِ اللانهائيِّ لتستقرَّ فيه. وأنا بها منذهِلٌ راقِصٌ. عنيد. رقصي كلماتٌ تتسرّبُ إلى شفتي قطعةً من نُور. أرتجفُ كلّما تذكرتُ أنَّ المطرَ سيتوقّفُ قريباً أو بعيداً. إن هذا المطر حالَتي التي أتعرّفُ بها على منازلِ الوحدة وأنا ألجُهَا واحداً واحداً. والمطرُ صفيٌّ عديمُ الاكتراثِ بالنفوس الصغيرة التي تخشى البلل.

(4)

والأمطارُ أمطارِي أنا الآخَر. منذ نهاية الصيف ينشغل الحرفيُون في فاس بالوفاءِ لسيّدِ الأمطار. توالتِ الأزمنة وهم يلتقون في نهاية الصيف لصنع كسْوَةِ مولاي إدريس. كسوة خضراء لصاحب القُبّةِ الخضراء. يجتلبون أجمل ثوبٍ ويفصلونَهُ أربع قطع تخاط في شكل مستطيل. شكل وحجْم درابزين قبر مولاي إدريس. وتنهمك النساء المعلّمات في بيوتهن برتق القطع وطرْزِهَا بالخيوطِ الذهبية. خيوط الصَقَلّي. ولربما كان اسم الصقلي إشارة إلى صقلية البعيدة. كانت محطة تجارية يصل إلى فاسَ منهَا النادِرُ الهنديُّ أو الصيني. الصَقليّ اسم عائلة شهيرة بفاس أيضاً. وخيوط الصقَلّي تضاعف اللمعانَ كُلّما اتقدتِ الشموعُ وتهجّجَتِ القناديلُ بزيْتِها وفتَائِلِهَا، وهي معلقةٌ في أعالي ثرياتِ البندقية التي يهديها للضريح أثرياءُ المدينة.

تنشغِلُ العائِلاتُ الفاسيّةُ بسير العمل في إنجاز الكسوة. يحتاجُ لشهريْنِ

على الأقل. وشيئاً فشيئاً تتكاثرُ معارضُ الحلويات حول الضريح. أضواء تمتدُّ وتتلوّن. ويومُ الكسوةِ عيد. يحملون الكسوةَ والناسُ تَهذِي. حرفيُّون يخترقُون الأزقّة والثيرانُ تتقدّمُهُمْ. إنها كسوةُ وقرابين الحرفيّين لسيِّدِ المدينة وأمطارها. مولاي إدريس.

وعندمَا يتأخرُ المطرُ يتهيّأُ أهْلُ فاسَ لصلاةِ الطاعةِ الكبرى. صلاةِ الاستسقاء. لقد تعاظمتْ ذنوبُ الفاسيّين واشتَدَّ غَضَبُ ربِّهِمْ. ولكنّهُمْ مؤمِنُون. معترفون بالنّسْيَان. من بينهم ينهض عالِمٌ لا طمعَ له في دُنْيَاه. يتصدق بالقليل الذي لديْهِ. ويصعد إلى التّل المفتوح على السماء يتبعه الخلق. هناك يصلّي لسيّد الأمطار فلا يغادِرُ التلَّ إلاّ والأمطار تسبقُهُ. وفي المدينةِ يعُمُّ الخشوع.

(5)

وقتُ الأمطار لحظةُ انعقاد البلّوْر. قطراتُ الماء تنصبُ عموديةً ومترنّحةً أحياناً. تنغرِسُ في طبقاتِ التربة العليا أو تصطدِمُ بأشياءِ المعمار. وفي الحالتينِ معاً يُشِعُّ ضوءٌ أراهُ وأصطفيه. ضوءٌ. لمحُ البصَرِ وخذَهُ يخِفُّ إليْهِ ويودِعُهُ في السريرة. قطراتُ الماءِ تصطدِمُ بالقرميدِ أو ببقيةِ الحواجز الخشبيّة فيتّقِدُ الضوءُ في الهواء. بلّوْراً لهُ ألوانُ قوسِ قزح. وله عبَقُ الياسمين.

على الجُدْرانِ يَسِيلُ الماء. شفّافاً. مُتَسارِعاً. أو رُبّمَا متصدّعاً بين الشقوق. الماءُ فوق الجيرِ له لونُ الجير. الماءُ فوقَ الآجُرّ أو الخشب له لون الآجرّ أو الخشب. والماءُ فوقَ وجْهِ امرأةٍ فاسيّةٍ يتحدّرُ ياقوتاً ومعادنَ ضوْءٍ. يا مَاءُ استَرْسِلْ في كشْفِ الأشْيَاءِ وفي كشْفِ اللّمَعَانِ العابِرِ بين امرأةٍ ومَمَرّاتٍ وسقُوفٍ واطئةٍ لا تتأفّفُ من كلماتٍ سمّيتُ بها فُقْداني.

أضيعُ مع الأمطارِ. سنواتٌ كنتُ بها أفْرَحُ. في الصباحاتِ الصديقةِ وأنا أنصِتُ إلى الأمطار. أقتربُ من شُبّاكِ الغرفةِ وبين يديَّ قصائِدُ احتفظتُ بها لهذا الوقت. بَرّادُ أتاي. وصوتُ الأمطارِ يتداخَلُ مع صوْتِ القصائدِ ويمتزجُ بها. أمطار لوحدةٍ بها اكتفيْتُ من عالِم ليس لي منهُ غيرُ أشياءَ بسيطة. ارتجاجٌ مُشِعٌّ. غيمةٌ تسيلُ على الجُدْرَان. قصائِدُ آباء وأصدقاء. وفاسُ المطر. مَنْ يصدّقُ أنّني تعلمتُ فيها متاهة الأمطار.

20. عذاباتُ المعنى

(1)

فَاسُ. المغربُ والغُروب. ويوم جنازة سيّدتي. ذلك اليوم البعيد في الصمت. لم يكن لي بُكاءٌ ولا سؤال. كان اليوم فريداً. يومُ الجنازة. ثم لا شيء. في عُمْقِ اليوم أو خلفَه. مجرّدُ سطح ملبّد. والليْلُ يوقظني علَى اللّيْل. إنّهُ الشمسُ الوحيدة. هذا اللّيْل. عهود تفصلني عن ذلك اليوم. وبعَذابات المعنى أقيس سنواتِ حياتي. بها أحافظ على استحضار جنازتي أنا الآخر. ربما قريباً من الرمل والصخر والماء. اللّيْل شمْسي. وكُلّما حاولت أن أضع الشمسَ في مكانها الطبيعيِّ عاد اللّيْل ليذكّرني بأنه الشمس ولا شمْسَ سِوَاه. عهود أحِسُّهَا ثقيلةً كصخرةٍ لا تُطاق. وفي الأوقاتِ جميعَهَا يَسْخَرُ الآخرون مِنْ بوْحِي. واللّيْلُ لحظةٌ ملبّدَةٌ بدوْرِهَا. لا عُمْقَ لا خَلْفَ. لا صداقةَ ولا حنين. وأنَا في المغربِ والغروب.

(2)

في سنواتي الأولى سمعتُ تعبيراً تردّدَ فترةً، قادماً مِنْ حيث لا أدري ليهاجر، ثانيةً، بين أمم وشعوب: أقصد تعبير «بُزُوغ عهدِ الحرية والاستقلال». كنتُ أرَى إِلَى الشمْسِ في كلماتٍ بها تعلّمْنَا، نحن الصغار، تسميةَ العهد الجديدِ في المغرب بعد 1956. مع الكلمات تبزُغُ شمسٌ لنتخيّلَ غروباً مضى، وليْلاً مضَى. وهذه الشمس ثابتةُ البزوغ. تبزُغُ وتشرق ليستأنف الشروقُ فعْلَهُ فينا. بين

مكّةَ ودمشق وبغداد وقرطبة والقيروان والقاهرة وفاس. مدارُ أمكنةٍ لأزمنةٍ. ولنَا الشروق. لم يَدُلّنَا أحدٌ على أن المقارنةَ مستوى مِنْ مستوياتِ الاستدْلال. مع ذلك كُنّا نفْهَمُ معنَى البزوغ والشروق والشرق. شمسٌ ذاتُ خيوطٍ ذهبيةٍ مصوّرةٌ على ورقٍ مُقَوّى. والكلمةُ صورةٌ يرسخُ فيها المعنى. بالكلماتِ نَرَى. شمسٌ وشرْق.

بين المدرسةِ والبيْتِ والأزقةِ والقناطرِ والألوانِ والطّرَقاتِ والأنْسِجَةِ والتوابِلِ قرأتُ الشروق. بين الأضرحةِ والزلّيجِ والآلةِ الأندلسيّةِ والطرابيشِ قرأتُ الشروق. قرأتُ وقرأ معِي غيري. ونحْنُ لا نتفاضَلُ في فهْمِ معْنَى الشروق. ولَيْسَ مِنْ بيننا من هو بحاجةٍ لشرح الكلمات. شمسٌ ذهبيةٌ على الورقِ المقوّى. والعهدُ الجديد. النهار. النور. كلمات نتداولُهَا عبر غيرنا. في الإذاعةِ والصحافة والأناشيد. كُنّا قطيعاً من المنشدين في صفوفٍ لها الانضباط العسكري. ننشد الكلماتِ ونلوّحُ بها. مسْتقْبِلِينَ ومودِّعِينَ منْ كانتْ أسماؤهُمْ تتطابقُ مع معْنَى الكلمات. صورُهُم على الورقِ المقوّى منتهيةٌ بخطوطٍ ذهبية. رجَالٌ حَمَلُوا الشمسَ لتبلُغَ الكلمات. وبالمعْنَى تفيضُ الكلمات. عربيّةٌ فصحى. أناشيد. وبين القرويّين وباب بُوجْلُود يتحدّدُ خطُّ الشمس.

(3)

مع المراهقة صرتُ مريضاً بالكلمات. هذه الكلمات التي تشكّلَتْ منها، وبها، معاشرتي لأهْلِ وسمَاءِ وأرضِ فاس. تمزّقٌ وتفتُّتٌ شرَعا. شَيْئاً فشيْئاً. في الاستحواذِ، على أعضائي. وعلى الكلمات. أعضاءٌ مريضةٌ بكلماتٍ. مريضة. والتمزّق والتفتّتُ هما مقدمة الاعتراض. تشوُّهُ الكلمات. برودةُ الكلمات. شحوبُ الكلمات. وللأعضاءِ حالاتها الشّخْصِيّة. التوترُ. الغضبُ. الحُزْنُ. الرفضُ. العزلةُ. الصمت. والعالم، الذي كان منشبكاً، بالكلماتِ ومُوَجّهاً بها، صار بدورِهِ ينفُرُ منهَا لينسحِبَ مِمّا تبقّى مِنْ خطوطِ الشمس إلى. عتمةٍ يصطدِمُ فيهَا. كُلُّ شيءٍ بكُلِّ شيءٍ.

وأسمّيهَا المراهقةَ المباركَة. ما كان. في الطفولة. يبدو معْنًى واضحاً أصبحَ مَعَ المراهقةِ مُهدّداً بتلْكَ العتمة الواسعة. مِنَ الليل إلى الليل. هناك كان

لي موْعِدٌ، يبحثُ عن نضجه، مع المعْنَى ككلمة لم يخطُرْ ببالي، آنذاك. إنّها مستودعُ الحكمة الفلسفية. معنى السماء. معنى الأرض. معنى الموت. معنى الحياة. معنى القيم. معنى الحرية. معنى الإيمان. معجمٌ دَورَانيٌّ. أعطى للأعضاءِ وللكلمات مَا يُلائمها من التمزّقِ والتفتُّتِ. والشمسُ تنسحبُ منْ مكانها الطبيعيّ ليكونَ اللّيْلُ شمساً لا تُخفِي عَنّي مشهَد التزيفِ.

حدث ذلكَ في زمَنٍ شبْهِ سريع. وفجأةً كانَ اكتمال العتمةِ متزامناً مع لقائي بالشاعر الصديق محمد الخمّار الكنوني، الذي عثر، في بداية 1965، على يدِي وهي تكتُب. فقال لي: «اكتُبْ». أثناء نزولي ضيفاً على الحيّ الجامعي بظهْرِ المهراز. وأنا ما زلتُ تلميذاً في ثانوية ابن كيران.

كان الشعرُ لي ملجأً. أحسسْتُ، عند الوهلةِ الأولى، أنّهُ نارٌ دافئةٌ لا محرقة. مسكنٌ حرٌّ وأمين. أواجِهُ فيه بحثاً عن معْنَى الكلمات منْ خلالِ عوالِمِ الآخرين. ورغم أني كنتُ أقْضِي وقتاً طويلاً لملْءِ الأوزانِ بالكلمات، فقد صادفت فيه طريقاً يشير إلى ناحيةِ ميلادِ ذاتي. لم أكن صاحبَ بُغْيةِ الراغبين في استنطاقِ المعنى بقدْرِ ما كنتُ نَزُوعاً إلى مصاحبةِ التمزّقِ والتفتُّتِ. وهُمَا يستصرِخانِ يدِي لترْحَلَ في اتجاهِ أرْضٍ أُخْرَى وشمْسٍ أُخْرَى.

(4)

مارست، سنة 1965، خروجاً متعدداً، دون أنْ أستشير شخصاً أو كتاباً. خروج من بيت العائلة. خروج من فاسَ القديمة. خروج من اللاّشِعْر. خروج من تهديد معنى الكلمات. وهناك، في الحي الجامعي، تهيأتْ لي خلْوَةٌ وطريقةٌ وشيخ. غرفةٌ أعيش فيها منعَزلاً، صامتاً. شعْرٌ يسْتبدُّ بي. وشاعِرٌ صديقٌ يدُلُّنِي على بداياتِ الشعر. هناك، أيضاً، جرّبتُ مكاناً أرْصُدُ منهُ فاس وقيمتها العابرة بين عهْدَين، فيما أَنَا أرْصُدُ عذاباتِ المعْنَى في جسدي، كما لو كانت عذابات مسكون بأرواحِ شيطانية.

وعندما عدتُ، في نهاية السنة الدراسية، إلى بيْتِ العائلة، تأكدتُ من غُرْبتي بين الأهْلِ والقيم والمعْنَى. عدتُ من أجْلِ الانتصار لعُزلتي. جدّتي رحمية بي وأنا أمْضِي إلى مواجهةِ المعْنَى الذي توارثتْهُ المدينةُ واحتمَتْ به. لَنْ

أطيعِ أحداً يفْرِضُ عليَّ إجمَاعَ المَعْنَى كشرط للعلاقة. مهما كانت هذه العلاقة. لَنْ أُطيعَ كتاباً ولا معنًى يفْرِضَان عليَّ أن أجْعَل من ذاتِي، مُضافاً مشبُوهاً. هكذا قلتُ في السريرةِ وخطوتُ. في الكتب التي أعشقُها. في الصمت واللّيْل. وفي القصيدةِ التي لا تَنتهي.

عجباً! لم أكتَشِفْ، آنذاك، شاعراً فاسيّاً واحداً، في التاريخ العريض لهذه المدينة، يطمئنني على إمكان أخوّةٍ في عذابات المعنى. أجْهَلُ شعراءَ المدينةِ كما هيَ تجهلُهُمْ. والنّاسُ منشغلونَ بشؤون المال. وقيم المال. أو تائهون بين طاعةٍ وطاعة. وما يلزم للفوْز من نفاق وتخاذل وخديعة ونميمة. حتّى معْنًى مجتمع التضامن يتمزّقُ ويتفتّت. والناس لاَ يكترثون بغير الفائزين. غنائم ما بعد الحرب. وما بعد الاستقلال. فُزْ وَلاَ تَسْأَلْ كيفَ تفوز. طوابق تعْلُو لتنهار مدينة. لك المال. الجاه. السلطة. أو لكَ الموت. خُذْنِي أيها الموت، فأنْتَ أحبُّ إليّ. أو خذيني أيتُهَا الحياة إلى نقاوةِ ما يحترقُ في الجسد وفي الكلمات.

(5)

في الجامعِ كنتُ أحفظ القرآن. آيَةً. آيَةً. كلماتٍ. كلماتٍ. لم يشرح لي الفقيه معنى آيَة أو كلمة. لم يفسر ولم يؤوّلْ. أحفظ القرآن. وأنا الآخر لم أستشعِرْ حاجة الشرح والتفسير والتأويل. في حفظ القرآن قضيت عهداً منْ عهودي. ولم أكن أعْلَمُ أن القرآن بحاجة لغيره. أحفظ لأتخيّلَ ما أشاء. تذوبُ أعضائي وأنا أتخيّل. والخيالاتُ مكتفية بنفْسِها. لا أسألُ الفقيه ولاَ سِوَاه. كنت حُرّاً في علاقتي بالمعْنَى.

البيت. المدرسة. الكتاب. الصحافة. كلُها ألزمتْنِي بالمعْنَى. وفي كُلّ مرّةٍ كنت أصطدِمُ بالمعْنَى. طاغيةً يطالبني بالامتثال أو شبحاً يتدحرجُ بين الأقدام. أجل! كثيراً ما سكنتُ في ضوحِ المعْنَى، انتشيْتُ بِهِ. وبه أيضاً اقتربتُ من الناسِ والأشياءِ والكون. في فاسَ الّتي ورثْتُ أسْوَاقَهَا وأضرحَتَها، ماءَها وأزقّتَها، موسيقاها وأمثُولاتِهَا، نساءَهَا ومجانينَها. كانَ المعْنَى مُسْتَقِرّاً في كلمات. وما حولي كلمات. ثُمّ كانَ مَا كان.

بعذابات المعْنَى تبدّدَ ذلك الوضوح. وذلكَ اللّيْلُ الذي صادفتُ فيه الشعر.

وغويتُهُ. مرّاتٍ متتاليات. بأوراقٍ شمسيّةٍ قادمةٍ من سِحْرِ الأمكنةِ الحديثة والقديمة. هو اللّيْلُ ذاتُهُ الذي أتشبّعُ فيه بمنتصَفِ النّهار. شمْسُ المغنَى نُسْغٌ للانهايةِ الصمّت. ثمةَ صداقاتٌ توغِلُ في الجفَاء. ولي عذاباتُ المغنَى. وجنازَتُها جنازتي. جسدي على نعْشٍ لا أحِسُّ ببرودتِهِ. حوْلي بقيةٌ من دَمي. ما لم أكتُبْهُ لم يعُدْ ينتظِرُني. ولي عتماتٌ سمّيْتُها. شطحاتٍ. لمنتصفِ النّهَار.

21. تحْتَ سمَاءِ المُوَاجَهَة

(1)

لسْتُ معْنياً باعترافٍ أوْ توْبَة. تبادلْتُ والمواقف حالاتِ الاختيار الحرّ لأتبادل وإيّاهَا الكلمات. وجْهِي أمامي. تأمُّلاَن في تأمُّلٍ واحد. هناك وهُنَا معاً يتواشجان. يلتبسان. والكلمات تختار ما تشاء. سماءُ فاس تفضي إلى سماءِ المواجهة. أشكُّ في ذلِكَ كثيراً. هذهِ المواجهة غريبة عن سماء فاس. والأرضُ أوْسَع مِنَ السماء. خلائق عبرتْ أرضاً لتتركَ أثَرَها على الأرض. إشاراتٌ بطيئةٌ أحياناً. وفي الأزمنة يتّضِحُ المكان كمَا تتّضِحُ الذوات.

أثبّتُ الوجْهَ حتّى لا ينفرَ مِنّي. أو رُبّما حتّى لا تسرقَهُ لوْعةٌ تتغلّبُ علَى الذاكرة. الوجْهُ شتاتُ أفْعَالٍ. ما أقْرَبَ هَذَا الوجْهَ إلى دَمَارِي. شظْياتٌ كنتُ أسْتَحْسِنُ وعُودهَا. ومنذ اتّقادِ المراهقَةِ كان السؤال عن الذات ممتزجاً بالسؤال عن المكان. لكن الوعُودَ لم تكن أبداً غير مزيدٍ من ألَمِ المكان. من هُنَا عَبروا أمْ من هُنَا هاجروا؟ معرفتي بهم تتحدد في السؤال عن غيابهم أو خضوعهم. أقصد شعراءَ وكتّاب فاس. ثم شعراءَ وكُتّابَ المغرب. مِنْ أين تبدأُ ثقافتُكَ أو ذاتُكَ أيُّهَا الفاسيُّ الذي لم يعْثرْ بَعْدُ على حياةِ غيرِهِ من السّابقين عليه. هل بإمكانِ أسْلاَفٍ آخرينَ أنْ ينُوبُوا عنْ أسْلاَفي؟ هل بإمْكَانِ سِوَايَ أنْ يَنُوبَ عَنّي؟

الصمتُ بمفرده يشْمَلُنِي. ولعْنَةٌ مَا تطارِدُ الأجوبةَ كُلّهَا. لو كنتُ مصرياً أو لبنانياً أو عراقياً. لو كنتُ فرنسياً أو إنكليزياً أو ألمانياً أو إيطاليّاً. فهل هذه الأسئلة كانتْ ستُضْبِحُ أسئلتي؟ دمَارٌ كُليّ يحجُبُ عنّي أسرار معْنَى أنْ أكُونَ هنا. في

فاس. وعندما ألْتَقِي بهم، أهْلِي هنا، يصيبُني ضجرٌ مِنَ اطمئنانِهِمْ. يشربُونَ قهوتهم متكئين على أرائك يتكرّرُ مكانها وموعِدُها. يكتفون بنميمةٍ بليدةٍ ويتفرّقُون. صباحاً صباحاً. سنةً سنةً. وهم هناك. ينتظِرُونَ من ينوب عنهم.

(2)

أين أنا؟ غالباً ما وسّع سؤال: مَنْ أنا؟ وكان عليّ البحثُ لسنواتٍ لأتعرّف على سؤال إزْرَا باونْد أو سؤال غُومبروفيتْش. سؤال الأميريكي في بداية القرن العشرين أو سؤال البّولُوني في أواسط القرنِ ذاتِهِ. إنّهُ صيغة لأسئلة أبناء ثقافاتٍ قديمةٍ أخرى. أقربها إليّ أسئلةُ الأندلسيّ أو أحد المغاربيين. سبقني الشّابّي إلى السؤال. والأوضاعُ تلتقي أو تبتعد.

من مرّ قبْلي عبر الصّفّارين أو عقْبَة الفيرَان أو بُرْج الذّهبْ أو سيدي بُوجِيدَة أو العشّابين وطرح سؤالي؟ أشجُّ رأسِي وأقذِفُ به إلى نارٍ أسمعُهَا ولا أرَاهَا. موتايَ صامتُونَ. وأهْلي صامتُون. والكتبُ التي نتداوَلُهَا صامتة. وفي الأشياء الصغيرةِ تعلّمتُ رؤيةَ العالَمِ حوْلي كما لو كان قادماً من هدير كواكبَ أجْهَل أسماءها. يدِي على آجُرَةٍ. ثم ها هو الكونُ ينقذف في وجْهِي. رجْلي على عتبةٍ ولا أطلب شفقة. طُفْ بي وطوّحْ بأغضَائي. فاسُ مريضةٌ بصمْتِهَا. ومَنْ أنتَ يا أيْنَ أنَا؟

تتملّكُنِي مسَاجِدُ وأضرحةٌ وقبور. هذه بقايا ثقافةِ فاس. في عهدي. والكتب مخطوطة في خزاناتِ الخواص. أو خزانة القرويين التي أنفر من تعب البحث فيها عن كتب لا أعرفُ عناوينها. لم أكن بعْدُ بلغت سن العشرين. أخلو أحياناً بكتابْ «النبوغ المغربي» لعبد الله كنون. مسترشداً بحكمة اليونان والمتنبي معاً. أزور جامع القرويين كل يومٍ أحياناً. من قبل كان أبي يصحبني معه للصلاة، وخاصة صلاة الجمعةً. ثم أصبحتُ أزور الجامعَ للصمت أو للمشاهدة. أغيّرُ أمكنة الجلوس. منتقلاً بين الصحن والفضاء المسقُوف. أتخيّلهم متحلقين حول الكراسي التي يجلس فوقها العلماء. مرابطون وموحّدُون ومرينيُّون. علماء هنا كانوا يُدرّسُون. تبدّلُوا. تبدّلتِ المذاهب والكتب. التفسير. الحديث. النحو. الفقه. المنطق. التنجيم. هُنَا كُتِبَتْ إجَازات. هُنَا سمِعَ أو

أفتَى. هنا مَلِكٌ أعْطَى وأمَرَ ومَنَعَ. والكتبُ التي أُحْرِقتْ مَا زالَ لهيبُ أورَاقِها وحُروفِهَا متّقِداً في صدْرِي. شُعَلٌ تتصَاعَدُ إلى الحلقُوم فلا يدركُنِي صراخ. وأيْنَ كانَ الشعراءُ يعْقدُون مجالِسَهُمْ مع علماء الشعر؟ عند أيِّ ساريةٍ كانوا يتهَاجَوْنَ أو يتغزّلون؟ بأيِّ شاعرٍ كانوا يحتجون؟ وهذا الشاعر القادِمُ مِنْ سُوس لِمَ نَفَرُوا مِنْهُ وأبَعَدُوه؟

(3)

بيتُنَا في بُورجَوع كان محاذياً لسور المدينة من جهة باب الحمراء التي تفْصلُنَا عَنْهَا مدرسة العدوة، حيث قضيتُ سنواتي الأولى في التعليم الرسمي. وراء السُور مباشرةً يوجَدُ قبر مُوسَى بن أبي العافية. منذ القرون البعيدة يقيم هناك، بعد أن ذَبَحَ الأدارسة. خَرِبةٌ محاطةٌ بأسْوَار منهدمة. بعض كتب التاريخ علمْتَنِي رؤية آجُرَ الأسوار بدمِهَا، وأصواتاً تَصِيحُ مُوَلْوِلةً في حُفَرٍ مجهولة.

من الجهة المقابلة النائية باب المحروق. جُمعةً فجُمعةً أخترقُ الأزقّة حتّى أصلَ إلى هناك. بين قُبورٍ لا أتأكّدُ من عهودها. وجْهاً لوجْهِ أجدُني، كل مرّةٍ، معَ أسْوارٍ أربعةٍ بجيرها الهادىء وقُبتها الخضراء. وفوقَ بوّابة من خشب الأرز لوحةٌ رخاميّةٌ محفور عليْهَا اسمُ لسان الدين بن الخطيب. هذا الأندلسيُّ اللُّوشِيُّ المهاجِرُ إلى فاسَ لينتهيَ قتيلاً. هل قتلُوهُ لشعره أمْ لنثرِهِ أم قتلُوه لمجده؟ ولِمَ يقتلون ابن الخطيب؟ أي قلْبٍ أمَر بالجريمةِ وأيّ يد نفَذت؟ على المرتفع الأرضي المقابل أجْلِسُ صامتاً وأتأكد من دخانك أيُّها البياض. العابرون متسرّعُونَ لا يُبالون. وجْهاً لوجْهٍ. ولا أحدَ مِنّا يتعرّفُ على الآخرِ إلاّ رمقاً. صمتٌ لصمت. وأنت الشاعر الغريب الذي تدلّني عليه فاس السعيدةُ بمنع شُعرائها أن يكُونُوا شعراء.

بين موسى بن أبي العافية ولسان الدين بن الخطيب خط تاريخ فاس. وأوّل حركة رفض ثقافية تتبّعْتها وتعاطفْتُ معها كانت تجاهِرُ بمسرح العبث. محمد تيمُد. هو الآخر مات، في الشهر الماضي، مختنِقَ الأنفاس غريباً في طنجة. مسرحُ العبثِ كان وَحْدَهُ عنوان حداثةٍ رافضةٍ، فيما الشعر لا يزال متباهياً بسأَمِ المعارضات، قديمة وحديثة. العبثُ والفلسفةُ الوجودية أوّلُ المواجهة. وأنَا بين

كامُو وسارتْر وكييغارد. أقرأهم لأتقرّى مجدّداً محيطاتِ أبي حيان التوحيدي والسهروردي. والمتنبي شامخٌ في متاههِ ومتاهي. شيئاً فشيئاً يتقرب مِنّي مسيحُ السيّاب وحلاّج صلاح عبد الصبور وعائشة البياتي ثم أدونيس بين مهياره وغزاليّه فمحمود درويش بأوراق زيتونه والعصافير التي تموتُ في الجليل.

(4)

شاعِرٌ آخر كان يلازمني أيضاً. بمنفاه وقيوده. دفين أغماتَ البعيدةِ في ناحية مراكش. والسّجال بين المغاربة والمشارقة حوْلَهُ لم يعْثُرْ بعْدُ على عين مغايرة. أقصد المعتمد بن عباد. بغربته امتزجت غربتي، فكتبت قصيدة «آخر مذكرات المعتمد بن عباد». غربةُ الذاتِ في الوجود وغربة المكان في الشعر. هكذا تصاحبت والمعتمد بن عباد في سؤال الوجود والأشياء. وجْهُنَا مشترك في الهجير. وبالصداقة مع موتاي في فاسَ تهيّأ شيءٌ من الصداقة مع الحياة.

سؤال الوجود وأسبقية الاختيار في الفكر الوجودي طبَعَا سلوكي في الحياة والكتابة معاً. وهناك، في باريس، في كلية الآداب بظهر المهراز، كان ماركس يفعل بجسدي ما يشاء. أصبحت أحسه صديقاً جديداً يفد على فاس، كما وفدت مذاهب عليها منذ القديم. مع إدريس الأول أو ابن ياسين أو ابن تومرت أو حمدون بن الحاج أو محمد بن العربي العلوي أو علال الفاسي. أشباحٌ كانت تنتشر في سماء المدينة. ثم كلٌّ إلى مآل. وماركس يعنيني في الأدب والحياة.

على هذا النّحو أخذ نسيجٌ فكري صارمٌ يؤكد لي الحياة. معه اتخذت المواجهةُ ما لم أكن أتوقّعُه. دفعة واحدةً كان اللّمْحُ شلاّلَ أضواء. وأنا بين الطلبة والكتب والشعر أواصِلُ القطيعة مع فضاء مدينة باطمئنانها لأقترب مجدداً من مشاهدها الخفية عني، في الناس وأفعالهم. في الشعر وقوّةِ ماديته. في تاريخ لم يتعهّدْني بغير ذاكرةِ الدمِ والموت. في حروف على كتفي تسقط رذاذاً له لوْنُ اليشب. في أخوّةٍ ممكنةٍ لأمَمٍ ممكنة. وأنا هناك. أشحذ. نقد الأسلحة.

(5)

كان صدري مهيأً ليحُلَّ فيه ماركس، كما حل فيه من قبل شعراء وفنانون وفلاسفة. ولم يكن ماركس أباً قاسياً. لم ينتزع منّي قلقاً ولا دماً طائشاً. تعاشرنا

في أقاصي الشعر والحياة. يرتابُ منّي هؤلاءِ وأولئك. ماركس لا يرتابُ منّي. ورولان بارت. وجوليا كريستيفا. ولوسيان غولدمان. وفرنسيس بُونْج. والعائلة التي امتدّتْ في الثقافة الفرنسية.

هؤلاء وأولئك من أبناء المدينة والمقربين يرتابون ويقسون. والشعر والسياسة؟ والشعر والمواجهة؟ والشعر والثقافة المغربية؟ والشعر وجيل الستينيات؟ والشعر والعربية والفرنسية؟ والشعر وغير الشعر؟ ثُمَّ فاس تضيق. أسوار تنطبق على أسوار. صداقاتٌ في البعيد تقولُ لي اكتُبْ. وفاسُ تطرد شعراءها.

22. الرَّحيل

(1)

لم يكُنْ قراري مفاجئاً. دبيبُ الحياة في أعضائي وأعضاءِ الكلمات كان ممهّداً للرحيل عن فاس. سنتان قضيتُهما مضطرباً باحثاً عن مدينة أخرى تحاذي الرباط. سنتان فاتِكَتَان. جرّبتُ خلالَهُمَا معنى البحث عن أفُقٍ صامتٍ لمواجهةٍ تضمن لي حيوية الكتابة. انفكّتِ الروابط بيْني وبين الإقامة في فاس. جهاتٌ تنْسَدُّ وأُخْرَى تحتدّ. فاس الدّواخِل أرْحَمُ مِنْ سِوَاها. وأبوابُ الخارج ضاقتْ عليّ. أسْوَارٌ تَغْلُو وتغوِي. وفي الأنفاس شيءٌ يجذبني لغيْرِ الأنين. سماءٌ بأرْضِهَا تصطدِمُ. والشّبحُ الصّاعِدُ مِنْ يدي يتردّدُ في حشرجاتي. غادِرْ فَاسَ قبل أنْ تسْتبدَّ بكَ جنازةُ من كان شبيهاً بك. مفتوناً بعنفوان أن يحْيَا ويرقصَ في صباح الكلمات.

هناك سابقون عليّ رحلُوا. في أزمنةٍ أحسُّوا فيها بغربة لا تُضَاهَى. حملُوا ما تبقّى لهُمْ مِنْ فاسَ ومضوْا مذعورين. تائهين. أيتاماً. سِرُّهُمْ بين ثنياتِ الصمت يختفي. ولا أحد يكاد يبحث عنهم في الذاكرة أو في الأثر. أودية الرمادِ أحياناً. حُطام الشوقِ أحياناً. حتمُهُمْ أنْ يرحلُوا. ليْلاً ونهاراً. كأنّهُمْ إلى النّفي يرحَلُون. ولا أعرفُ إلاّ القليل منهُمْ. أعثُر على بَيْتِ شعر أو لمحةٍ في كتاب. وهُمْ تائهون. يسْتبسلون في الطريقِ. والأهْوَال.

سابقُونَ عليّ رحَلُوا في العصر الحديث. إلى القاهرةِ أو باريس. ثم يسْتمرُّ رحيلُهم في الرباط أو طنجة أو الدار البيضاء. والرحيل لا يتوقّف. رحيلٌ في

رحيل. تبدّلتِ الأسبابُ احتمالاً. نسجت الطرقُ ليلاً ومآلاً. شمعدانٌ خافتٌ. صور مقطّعةٌ. يَدِي أمْ يَدُكَ؟ مَنْ يَقْوَى على إضاءةِ تبعثُر الأنفاس؟ هل هذِهِ الألفةُ تلمعُ أم تلْسَع؟ والزرقةُ النحيلةُ من يراها على عتبةِ الولهان؟

وأتذكّركَ أنتَ. أيها الفَتَى الفاسيُّ ذو البشرةِ المضمّخَةِ بماءِ الورد. عبد الله كنون. حكَيْتَ لي عنْ عائلتك التي لم تقبل البقاءَ في فاسَ بعد احتلالها من طرفِ الفرنسيّين. لقد أصبحتْ فاسُ بلادَ الكفر وللمسلم أن يهاجر منها مخافة أن يُجبر على الكفر. صادفَ وصولُكم إلى طنجة مغادرة الباخرة الميناء في اتجاه الشرق. فكانت الإقامةُ في طنجة. وكان الاجتهاد في الفتوى. وكانت طنجة مُقامَك ورحيلكَ في آن. أنصتُ إليك. في عهد الاستقلال. وفاس نائيةٌ عن فاس. قبابٌ وحيدات. صلاة موتى. ولنا نسيانٌ ببروجِهِ وقلاعه. دهاليزُ باردةٌ. هدأةُ الكلام.

(2)

منذ 1971 قررتُ الرحيل. أصابعي منشبكة بأصابعِ أمامة. هذهِ العشيقةُ الصديقة. مكناسيّةٌ كانت التحقت بكلية الآداب بفاس. وعندما رمقْتُ ابتسامَتَها أمامَ طوابق الكلية لمستُ كآبتِي تَنْحَلُّ وتضيء. هي. ليْسَ غيرُها. وبعذوبةِ الوجْدِ انصرفْنَا. لحظةً بَعْدَ لحظة. ليشرعَ ميلادٌ جديد في النشوء. وزواجٌ في التحقّق. نحن معاً مِنْ عالَمِ الكبار لم نتأكّدْ بعْد. وحُميًا الانتماء لفكر أتى ليُغيِّر. وكآبةٌ تعوّدتُ عليْها.

أمامةُ كانتْ بدايةَ الرحيل. وأنا أشعر بقوّةِ بُرُودةِ الوحدةِ التي أصابتْنِي. بعد وفاةِ جدّتي. والعائلة التي ليستْ عائلتي. وبيْتي الذي ليْس بيْتي. ومدينتي التي ليستْ مدينتي. وكتابتي التي ليست كتابتي. أمامةُ الأفقُ والألق. براءةٌ تتحدّى من أكونُ ومَنْ تكون. نفسٌ يتموّجُ في الطفولة. وأصابعُها منشبكةٌ بأصابعي.

ملتحقةٌ بفاسَ لترحلَ عن فاس. وأنا متعوّدٌ على عتباتِ الرحيل. إلى جهاتٍ تشكّلتْ فيها فاسُ بلُغةٍ لها الأسرارُ التي لا يبْلغُها العقْل. أمامةُ بدورها مطمئنّةٌ لقرارِنا. رحيلٌ نبحثُ فيهِ عن ذاتينَا. غيْر عابئين باختبار البعيد. الصامت. ونحن معاً لا نفكّر في غموض مسعانَا. ابتسامتُهَا فقط. وردةٌ على كتفي. فرحٌ في صدرها. معاً. قرّرْنا الرحيل.

(3)

يوم 3 ديسمبر 1972. الساعة الثانية بعد الظهر. هو ذا تاريخ الرحيل. يوم مشمس. أوراق الدُّلْبِ الصفراء مجتمعة أو متناثرة في أكثر من شارع بالمدينة الجديدة «دار ذْبِيبَغْ». هبوبٌ باردٌ من إيفْدَان وَإِيموزّار. سيارة فيات صغيرة من نوع 850 لطالب زميل. عمر. نحن الثلاثة. هو وأمامة وأنا ننحشر فيها. وأمتعة الرحيل الأخير. حقائب وأكياس كتب.

يوم 3 ديسمبر 1972. لا مقدّسَ ولا مدنّسْ. يوم عاديٌّ تماماً. انتظرته بصبر. وللعذاب زفير لاَ يهدأ. إضراباتنا عن الدراسة لا تزال مستعرةً في الرأس. الفرار من المطاردات. الاختفاء عن المقاهي. والجامعة جحيم. بعض الأساتذة ينتقمون من اختلافنا معهم. نغبأ ولا نغبأ. نسهر ونكتب. نهرعُ إِلى المكتبات حتى لا تضيع منا العناوين الجديدة الواصلة من بيروت. أحمالُ الكتب التي تُفْرَغُ من صناديقها لا تجد وقتاً للعرض. طلبةٌ يخبرون طلبة. ونحن نتسابقُ إِلى هناك. في «بُوجْلُود». للفَوْزِ بآخر الكتب. من أجل أن نقرأ ونغيِّر. نتعلّمَ ونغيِّر. نكتبَ ونغيِّر.

السيارةُ بلون أزرق سماويّ. متقادمة العهد. ولكنَّ المحرك والعجلات تعطينا انطباعاً بقدرتها على حملنا والرحيل بنا من فاس باتجاه الرباط. جلْدُ المقاعد قُرمزيّ. ومنفضة السجائر تشتغل. المرآة العاكسة. ما نريد أكثر؟ حيوان مطيع. من حديد. هذه المرة. وأربع ساعات كافية للسفر. من فاس إِلى الرباط. تلك مرحلتنا الأولى. سنكون آمنين. سنتوقف قليلاً في الخمسينات. على عادة المسافرين.

(4)

انتظرت الرحيل ولم أنتظر الفراق. عن أيّ فاس سأرحل وأيّ فاسَ أقاومُ فراقها؟ تلك اللحظة بالضبط. الساعة الثانية بعد الظهر. ونحن نحمل الحقائب والأكياس ونرتبها في ضيق ما تبقى من فراغ المكان. قبل تلك اللحظة لم ينشغل جسدي بغير الرحيل. وفي تلك اللحظة. الصمت والوجوم. أصابعي منشبكةٌ بأصابعها. وعمر شابٌّ نحيل يغلق الباب بسرعةٍ وعنف. «يا الله آ السي مُحمّد. صَافِي» «صافي». أجيب.

لم يحضر أحدٌ لوداعِ أمامة ووداعي. لا مناديل ترتفع ولا دموع. جدران عمارة. طوار. رصيف. عابرون. كنت أخبرت أفراداً معدودين. أختي. أبي وزوجته. ثم أصدقاء وزملاء. ولم يحضر أحد. في تلك اللحظة. سحبٌ شفّافةٌ أحسها صاعدةً من الصدر إلى الحلقِ إلى الرأس. عينان مثبّتتان في اللاّشيء. كلمات في أنفاسي تنبثق وتحتدم. سابقون عليّ وأنا. في هذا العصر.

إلى أين سيأخذني هذا الرحيل؟ أستبعد أن أكون واجهتُ أنْفَاسي بسؤال كهذا أو مثله. أنا الآنَ أستعدُّ للرحيل. أرتِّبُ الحقيبةَ وأحشُو الأكياس بالكتب. بودّي لو ملأتُ الحقيبةَ دفعةً واحدة وضغطت. هناك ما يستعجُلني. منذ الأزمنة البعيدة. وأنتِ وأنَا. وصديقنا محمّد الدّنّاي الذي قاسمناه وزوجته فاطمة شقّتَهما الصغيرة. والطريق. وخشية الوصول المتأخر إلى مدينة شاطئيّةٍ نسيتُ منذ الطفولة ملامِحَها. مَنْ مِنِّي سيفارقُ فاس ومن مِنِّي سأتركُهُ وديعة؟ أحدّق في دهن الحائط لامعاً مُزيّناً بصورة لطبيعةٍ ميّتة. أحدّقُ ولا أرى. أنشغل بالحائط. والنافذة. مفتوحةً على طرفٍ من «زَلاَغ». مرتفعٌ وأشجَارُ زيتون وبساتين في المدَى. أعمدةُ زلّيج. ثريات. زغاريد. وجوهٌ كنتُ أفاتحها بالسلام.

(5)

أعْلَمُ أنّنِي الآن راحلٌ عن فاس. كآبةٌ تتجمْهَرُ لتستقِرَّ في قفصِ الصّدْر. والمحيطونَ بي لا يدركُون. لن تعصِفَ بهم مدينة فاس مع تاريخها على نحو مَا تعصف بي. لن أدافِعَ عن كآبتِي أمامهم أو أمام غيرِهِمْ. يكفي أن أخطِفَ قُوَايَ مِنْ مهاويها لأتحرّكَ خارج الشقة. أنزل من درجة إلى درجة إلى بابِ العمارة. وفي رنين أصواتي كبرياء ما. رُبّما ضحكاتٌ مُفتّتةٌ. تحت طبقاتِها السفليّةِ زمهريرٌ يشمل الأعضاء. وأنا أقاوم الخطواتِ الأخيرةَ من الطوارِ إلى السيارة. ومن «زَلاَغ» إلى جدران العمارات.

سأرحل. إذن. أشبه السابقين عليّ ولا أشبههم. معي أُمَامة. وابتسامتها. وانفلات كلمات تخص الوثائق. ولا أحدَ في ودَاعنا. وأنا كأني لا أرى فاس. ولا مستقبلي. ولا ماضيه. ولا البيت. ولا جير السطح. ولا أصص الزهور. ولا غرفتي. ولا وجهك. أنتِ. أنتما. سأرحل. السيارةُ يمامةٌ أو فراشة. وتلك اللحظة مشعّةٌ في تمرُّداتِهَا. عليّ وعليّ.

لن أكون مُنتهى الرّحيل كما لم أكُن مبتدأهُ. واختبارُ تلكَ اللحظةِ ليْسَ لي وخدِي. رحلُوا إلى الأندلس أو إلى الشرق. رحلُوا إلى تمبكْتُو أو إلى دكار. ثم رحلوا إلى باريس أو القاهرة. ورحلوا إلى الدار البيضاء. أو الرباط. أو طنجة. لكل واحد رحيله. وحالة لا أدّعي معرفتها. أقرأ لأحدهم. أنصِتُ لهؤلاءِ وهؤلاءِ. وفي تلك اللحظة كان عمر جاهزاً. مبتهجاً بيمامته أو فراشته. تسقط الظلالُ على سطح السيارة. أو ترشُنَا بنتفٍ عابرات. أمامنا العمارات. العمارات والبيوت تتوارى في الخلف. والأشجار. السهول. الهواء.

II. الوَصِيّة

23. الجسَدُ كانَ البداية

(1)

في عتمة ذلكَ اليوم، في ديسمبر 1972، توقّفت سيارة الأجرة بنا. أمامة وأنا. في ساحة صغيرة. وعلى مقربة من الجهة اليمنى مدخَلُ القصبة. سمعتُ الكلمةَ فاسْتسلمتُ، هنيهةً، لقصبة النُّوَار المتاخمة لباب بُوجْلُود بفاس. قصبتان تمتزجان. والشَّبهُ بينهُمَا مرتاب. معاً كانتَا معدّتيْنِ للجُنْد. ولكنّ رائحة البحر، هنا، تَسْتَوْلي علَى الغريب. ونحْنُ معاً نشمُّ الرائحة ونخْطو خُطواتنا الأولى في الليل والبحْر والقصْبَة وكلماتِ بحَارةٍ يسْتعجلُونَ الخطواتِ نحْوَ بيُوتهم.

مدينةٌ بحريةٌ يَصِلُ إلَيْهَا فاسيٌّ ومكناسيّةٌ قرَّرَا مغامرةً لا يعْرِفانِ شيْئاً عنْ مدارِها. مدينة المحمدية. سابقاً كانتْ تُسَمَّى «فَضَالة». مدينةٌ مِنْ فضْلِ الله. فضْلُ اليابسة. على شاطىء كانوا جعلُوا منهُ ثغراً. صورةٌ مصغَرَةٌ للمغربِ الثغر. وجاءَ الفرنسيُّون مِنْ شمالهم ففرِحُوا بها مصطافاً شاطئياً. فاسيٌّ ومكناسيّةٌ يقفانِ ويناديان على «طاكسي صغير» ليخْتَارَ لهُمَا فندقاً يقضيان فيه ليلتَهُما الأولى في المحمدية. وفي الصباح سيلتحقان بـ «ثانوية ابن ياسين» للتدريس بها.

نداوةُ اللّيْل وابن ياسين غداً. صباحاً. لم أصل إلى المحمدية على متْنِ حصان أو بغْل. حافلة. والمحمديةُ ليسَتْ باريس ولا الرباط. بناياتٌ واطئة وواجهةُ القصْبة. صمْتٌ تتقرّاهُ الأحشاء. وفي الأنْفَاس سكينةٌ لا ريْبَ فيها. عهودٌ تفتحُ أزْرَارَهَا لأشَمّ. في هذه الجهة توفي ابن ياسين. مهْدِيُّ المرابطين. أتى للقضاء على البُرْغَوَاطِيّين. في القرن الخامس للهجرة. كان ورِعاً. حين دخل

سجلْمَاسة قتل خصُومَه المغْرَاوِيِّين، ومَنَعَ المزامير، وكسَّر خوابي الخمْر، وأحرقَ الديارَ التي كان السكارى يلجأون إلِيْهَا، بحثاً عن كأسٍ ونديم. في كل شهر كان يتزوّجُ عدداً من النساء ويطلقُهُنّ. وكلُّ امرأةٍ جميلةٍ كانَ خطيبَهَا. غداً سأتأمّلُ اسْمَهُ معلقاً على مدخل الثانوية. سأسلّمُ على الأحْيَاءِ والقَتْلَى. في عهْدٍ غامضٍ. وبجسد أشدّ غموضاً. لَنْ أنْحَنِيَ لأحدٍ. فقط سأسلّمُ ثمّ أمْضِي.

(2)

إنّه جسَدِي الذي يشغلُنِي الآن. لأوّلِ مرّةٍ تأكدْتُ من إقامتِي في شقة. جدران رماديةٌ وسقْفٌ أبيض. من الشقةِ إلى الثانوية قليلٌ من المتاجر. سياراتٌ تكاد تكون نادرة. وفي كل ناحية جدران فارغة من الزلّيج. سقوفٌ فارغة من نقش الخشب أو الجبس. كلابٌ تعوِي. خضرة نباتاتٍ وظلال. حدائق ممتدّةٌ بالحشائش والورود. هذه السماء الفسيحة. الفسيحة. زرقةٌ مشبعةٌ بالضوء. واللّيْلُ بطيء.

جسدي يقتربُ منّي شيْئاً فشيْئاً. والكلماتُ ترنُّ في الدخيلةِ كما لَوْ كانتْ بئراً يطفح غوْرُها بالماء. الأحجارُ المُسنّنةُ عليْهَا شيءٌ من الطحالب. يمكنُنِي الآنَ أنْ أسْمَع الرنين والأصداء. جسَدِي مِرْنَانٌ. كلمةٌ تسقُط إلى القعْرِ فلا ألتقطها. أرى إلى الدوائرِ في الماءِ. وفي الأفق سعفاتُ النخيل. تسقُطُ كلمة لتجذبَ كلمة. والكلماتُ تتجمّعُ في أسفَلِ العين على شكْلِ جمْر. جمَراتٌ في الصدر. في الصمت. والحواسُّ تتعلّمُ طريقَ الكلماتِ في سقوطها واتقادها في آن.

جسَدِي يتأهّبُ للاقتِرَابِ مِنْ ذاتِهِ. فاس التي بيْنِي وبيْنَهُ تنحَلُّ وتسعى قريباً منّي. أحدُنا يتْبَعُ الآخرَ. والعُزيُ أوّلُ ما أرَى بِهِ إلَى جَسَدِي. فاسُ. في المحمّدية. تشرع في الابتعادِ عنّي. تحياتٌ مقتضبةٌ. وجُوهٌ أتدرّبُ على أُلْفَتِهَا. عباراتٌ تمرُّ أمَامي كما يَمُرُّ أيُّ شيءٍ. البَحْرُ امْتِدَادٌ صامتٌ وفراغ. أنْسَى مجْداً كانَ ولَنْ يكون بعد. أنْسَى فضيلةً ورذيلةً. تختفِي أزقةُ فاس الضيّقَةُ عَنْ بصَرِي. هُنَاكَ تركْتُ أضرحَتِي وقُبُوري. زلّيجِي. قِبَابي. أعمدَتِي. مُوسيقَاي. زمْهَرِيري. «دليلُ الخيراتِ» هناك. العيسويُّونَ هناك. مآذن هناك. بساتيني. ونوافيري.

جسَدِي يَعْرَى أمَامي. عباراتٌ تنحبِسُ في حنجُرتي. أحجارٌ لَنْ ألمسَهَا بأصابعي. وخُرْصَانُ أبوابٍ تركْتُهَا هناك. ستسقطُ كلماتٌ لأدنُوَ مِنْ هاويتي. وأنصِتَ بأذْنٍ ثالثةٍ لمسَارِ الكلماتِ في سقوطها. على الجمْرِ أضَعُ أصابعي. أريدُ لهذهِ الأصابعِ احتراقاً جليلاً بِهِ يكْتَمِلُ عُرْيُ لا يشيخ. حاجتي قُصْوَى لجسَدِي العارِي. ولطَوافِي بعماراتٍ خَرْسَاء. ولصعُودِ دُرج أهبُهُ لُهَاثي. جسدي يَعْرَى وأنا أقتربُ مِنْ جسدي. وشَوْشاتٌ في الأسْفَل ليْسَتْ غريبة عَنِّي تماماً. ولكِنْ. بقُوّةٍ أحسُّ بها على لسَاني.

(3)

سيشرعُ اللّيْلُ في الهُبُوبِ مِنْ وجْدَة. ثُمّ تازرَة. ثُمَّ فاس. وها هُمْ أهلُ المحمدية يأوونَ إِلى بيوتِهِم قَبْلَ الثامنةِ مساءَ. أنَا الآخرُ آوِي إِلى البيت. قبل الثامنةِ مساءً. أفتحُ نافذتيْنِ يَهْجُمُ عليَّ منهُما البحر. أضواءُ سفُن. دكنةٌ. جمراتُ المغيبِ تهاجرُ إِلى نقطة أبعد في المحيط الأطلسي. وباستطاعتي أن أُطِلَّ على السواحلِ الأميركية. شمالِهَا وجنُوبها. أرصُدَ ما تبقَّى من أصواتِ المهجرّيين. شاميّين ولبنانيّين.

في فاسَ كنْتُ من سطح البيت أو نافذةِ الغرفة أراقبُ الطريقَ المؤدية إِلى وجدةَ فالقيروانِ فالقاهرةِ فالقدسِ فبيرُوتَ فدمشقَ فبغداد. أحياناً كنتُ أستسلِمُ لشيراز فأصفهانَ فنيُودِلْهِي فبكين فطوكيُو. وفي المحمدية البحْرُ ومَا بَعْدَ البحْر. لاَ أملِكُ ما يسْمَحُ لي بتَخيُّلِ أنْ تطأَ قدمي أرضَ أمريكا. أرْضَ العُنْفِ والمال والمخابرات. أرْضَ البوارجِ التي تقْتُل أبْنَاءَ الفيتْنَام. وَلي مناهضةٌ للأمبريالية. نَعَمْ. سأعودُ لأقْرَأَ وَالْتْ ويتْمانْ. وإِزرَبَاوْنْد. وت.س. إِلْيُوت. وآلَنْ غينْسبرغ. وجَاكْ كِرْوَاكَ. سأُثمّنُ صداقةَ غير مشوّهةٍ لبَابْلُو نيرُودَا وأُوكْتَافيُو بَاز، هذيْنِ العابريْنِ مِنْ فقْرِ الجنُوبِ إِلَى صمْتِ بيْتِي. وَمَا بَعْدَ البحْرِ أمَامِي. مِنْ مسَاءٍ لمَسَاء.

رُبَّمَا دَنْدَنْتُ بأغنيةٍ لا تُعجبُنِي وأنَا أفْتَحُ كتاباً لأشاهِدَ البحْرَ بليْلِهِ متسرّباً إِلَى شَرَايِينِي. لَنْ أقِفَ على سرِّ ذلكَ. بحْرٌ يتسرّبُ. والكلماتُ متواليةٌ في قدومِهَا مِنْ خارج المحمديّة. تنخفِضُ القرونُ والبلدانُ لاحتضَانِ دمِي. وأنا أطيعُ الكلمات. في سقُوطِها. عتماتٌ. أو تكادُ لهذا اللّيْلِ تَنْضَافُ.

(4)

أيامٌ وشهورٌ. جسَدِي يتفقّدُ طبقاتِ العُزي. ويسأَلُ كعادتِهِ. مِنْ أينَ أتيتَ أيُهَا الجسَدُ وإلَى أيْنَ تمْضِي؟ أرْبَعَةُ جُدْران. سَقْفٌ واطىءٌ وفارِغٌ. لي سؤالي. هَلْ غادرتُ فاسَ لأُغَادِرَ فاسَ حَقّاً أم لاسْتِرْجَاعِها في نشْأَةٍ جديدة؟ جسَدِي يبرد. يلْبِس بعضُهُ بعْضاً. والعُرْيُ عُرْيِي. أيُهَا العُرْيُ كَيْفَ استوْلَيْتَ عليَّ وأنتِ أيَتُها الأعضاءُ مَنْ هيّأك لهذا البرد؟ في الصّباحِ والصّباح. يقْسُو عليَّ المكانُ. وأصدقاءُ بعيدونَ عَنِي. هلِ المسافةُ جُبّةٌ؟ هلِ المسافةُ عرَاء؟

لو كنتُ مجرّدَ فاسيٍّ لكانَ من المحتمل أن ينْتهِيَ كُلُ شيء. بعْدَ ليْلاتٍ وأسابيع. ولكنّي فاسِيٌّ مِنْ بين هؤلاءِ المسكونين بمآل الجسد. ناطقاً. عاشقاً. حُرّاً. مُبْدِعاً. مُسْترسِلاً في الشوق. بهذا كلّه واجهتُ هناك. وهنا الجسدُ بدايتي. ألمُسُهَا تتحلّقُ داخلي وحوْلي. والبحْرُ مِنَ النّافذة. أو عند قدمي. جهاتُ البحْر.

لستُ مسؤولاً عن جسدي. ولا عن هذِهِ البدايةِ التي تُعنّفُ بي. في مدينة تلتئِمُ فيهَا أنْفَاسِي لتحفِظَ جغرافيةَ العُرْيِ علَى إثْرِ استكْشافٍ بطيء. وصاعقٍ حتماً. يندفِعُ مِنْ ركن مفاجىء ليتْوهَ دَوَائر دَوائر. الشعرُ. الثقافةُ. الحضارةُ. المصيرُ. ويَدَايَ متشبّعتَانِ بالتراثِ. والناس. والصداقاتِ المسكونةِ بحُمَّاهَا. والأمَلِ الذِي يدقُ على الأبواب.

(5)

في المحمدية كانتِ البدايةُ. أعْنِي بدايةَ مشْهَدِ البياض. الصاعِقُ يتآلف. ولم أكُنْ أفترضُ عودةً مُطوّلةً إلى باريس لمتابعةِ الدراسة. شأنِي أنْ أعْرِفَ انغلاقَ الطريقِ إلى باريس. هذا البياضُ الذي فاجأني. سنةٌ واحدةٌ للعزي والبياض. وانتظار إعادة فتح أبوابِ الدراساتِ العُليا المقفلة بقرارٍ إدَارِيٍّ يخْشَى الطلبة. ويخْشَى حبّهُمْ للبَلد.

في المحمدية يختدُّ الغروب. جمْرُ الغروب والنهاية ثم الماءُ فالماء. لَنْ تشُمّ رائحةَ الشرْقِ هُنَا ولا الغرب. جدرانٌ بيضاء. نخيل يعْلُو الممرّات. هَوَاءُ البحْر. وأنَا مستعجلٌ دائماً. هذا الجسَدُ العارِي يُعذّبُنِي. وأصدّقُ العذاب. ما

الذي يطلُبه منّي عُزِبي وبياضِي؟ سكينةٌ أمْ وُجومٌ أمْ تحديقٌ في الجسَدِ وهو يطأ أرْضاً في نهايةِ الأبدية؟

البدايةُ سلطة. لِي أو عليّ. وأنا أسْكُنُ ثغْراً لم يعُدْ ثغراً. أسوارٌ بتُرابها الأحمر. والفقيهُ ابن ياسين على مدخل الثانوية. جسدي بأرضٍ وكلماتي بأرْض. فَاسُ تتخلّصُ مِنْ متاهاتِهَا وتضْفُو في العين. سحاباتٌ تتبدّدُ في الأُفُقِ البحري. وأنا أستعجِلُ المكانَ والمكان. في الصمْتِ يشتغِلُ الجسد. فِعْلٌ سريعٌ. ثم كانتِ البداية.

24. الثقَافةُ والمَصِير

(1)

حول نافورة القرويين كانت الشبيبةُ تأتلف في الثلاثينيات. دائرة من الشبّان حول دائرةٍ من الماء. صحن واسِعٌ. زلّيجٌ أزرق وأبيض. وهم لبعضهم بعْضاً ينصتون. يحتمون بخطاب شرقي. وبأصداء تركيا الفتاة. الآخرون في ثانوية مولاي إدريس. من أبناء الأعيان. يدرسون الثقافة الفرنسية أولاً ثم شيئاً من العربية. يتعوّدون على المسرح الغريب عنهم. أولئك وهؤلاء يلتقون في غُرَفِ البيوت بسقوفها الخشبية المزخرفة بالأشكال الهندسية العربية أو الأشكال الزهرية. وفي صدر كُلِّ واحدٍ منهم صورةُ مغربٍ جديد.

بيني وبين هذه الشبيبةِ جيلان. هاجَرَا معاً إلى القاهرةِ أو باريس. هناك كان لهما التعلُّم والمتاه. توحّدَا في الانشغال باستقلال المغرب، وتباينا في التكوين الثقافي ومتاهاته. وأنا، هنا، في المحمدية أصادِقُ البحْرَ بنشوةٍ وصعوبةٍ في آن. منذ أواسط الستينيات تعرّفْتُ على أسماء بعضهم ثم اقتربتُ منهم. عبر اللقاءات الدائمة أو السريعة كنت أُجمِّعُ الأخبار والوقائع. عن رحلة أو كتاب أو معركة ثقافية أو عن فرح الانطباعات. هكذا كنتُ أعثر على ما لم أكن أقرأهُ عن طه حسين أو عباس محمود العقّاد أو صلاح عبد الصبور. خيال عن خيال يتوافد عليَّ في فاس. والرباط لا تترك وقْتاً للكلام الحر عن الثقافة. أخبار السياسة والجواسيس تكاد تشغلنا عن الشعر والثقافة.

(2)

في المحمدية أصبحت من عشيرة ماءٍ عنيف. يتشكل موجاً ورذاذاً. تكويناتٌ لانهائية تتوالى أمامي. وأنا أرى إلى الماء من عُلوّ الصخر. أحسّ بلذةِ أن ألقي بجسدي في الفضاء وأسقط إلى أسفل الماء كما لو كنتُ قطعة قطن. لن أمشي فوق الماء. سيرتطم جسدي بالصخر. والصخر بالصمت. والصمت بالذهول.

غادرتُ فاسَ حقاً. ولي هنا معاشرةُ أبدية عارية. لم أستعدّ سابقاً بما يكفي. الشارع الوحيد في المدينة شبهُ فارغ. صباح مساء. لي وقتٌ لأن أتأمّلَ. لي سؤال جبّارٌ عن المغرب كمكان ثقافي وشعري. إنّهُ السؤال الذي يعنّفُ بي. لي لمحةٌ واحدة وحادة. ما كنتُ في فاس أبحثُ عنهُ وما أفعله هنا، في المحمدية. ولي قلقٌ يأكل مني العظام والأعصاب. وفي الدخيلة شعبة من جنون ألاّ أنتظر.

أنا الآن مُدرّس. لي تلاميذ أتحد بهم. وفيهم أعثر على صداقة الغرباء للغرباء. لا أسألُ أحداً من أنت حتى أميز مَنْ أقتربُ منه عمّن أبتعد عنه. فاسيتي ثقافيةٌ أساساً. وفي الجامعة كنت منفتحاً على صداقاتٍ هيأتْني ليكون الآخرون إخوتي. وأنا مفتون بحيوية هؤلاء التلاميذ. بفرحٍ أدرّسُهُمْ وألطفُ بهم. أغلبُهم فقراء. من أبناء العُمّال.

لم أكن أؤمن بتصنيفات الذكاء أو الإبداع. لكل فردٍ ذكاؤه وإبداعه. وعليَّ فقط أن أدرّسَهم نصوصاً عربيةً جميلةً حتّى يكتشِفُوا ألقَ اللغة. وكُلّما جربْتُ تدريسَ نصٍّ متفرّدٍ، قديم أو حديث، أحسستُ أن هؤلاء التلاميذ يستحقون الشيءَ ذاتَهُ الذي يستحقه فرنسي أو ألمانيٌ أو ياباني أو أميركي. التخلف اختيار. والعربية قوية بمبدعيها، كما هي كل لغةٍ حديثة قوية بهم.

(3)

لن يكون التدريس بمفرده مصيري. مواجهتي من أجل الشعر والثقافة سابقة على كل اختيار. التدريس يحميني من ذل أن أصير شحّاذاً أقف على باب يشترط الخضوع لما لستُ أنا. كتابة أو سلوكاً. ولي في أوضاع بعض المثقفين المغاربة

ما يسمحُ لي بالحذر من أي إغراءٍ جموح. وأدّعي أكْثر من ذلك. إنّني أنتمي لما يمكن تسميتُهُ بالجيل الرابع. على الأقل من حيث الرغبة. والجيل الرابع هو بالتحديد جيل رفضٍ ثقافي. كل واحد منّا كان يتعلم من الآخر كيف يمارس أبجدية الرفض التي أخذنا في تعلمها من باريس 68، والثورة الثقافية الصينية، والحركة الثقافية العربية لما بعد هزيمة 67، في بيروت، على الخصوص، حيث شعار الثورة كان معمّماً وتأويلُهُ متعاضداً مع الرؤية، إلى الذات. والآخر. وفعل الثورة في الثقافة. والسياسة. والمجتمع.

هذا الرفض صنع بي ما شاء. رصد لي مجرى حياة لم أكن أتوقعها تماماً. منح ليدي ما تثور به على غير يدي. ألقى بها، أحياناً، في حماقاتٍ لست نادماً عليها تماماً. عندما أتأمله، مجدداً، ومنتصف النهار يشملني، أجده كان عاصفاً ومحرقاً. فاجعاً ومستصرخاً. شاقوليّاً ودموياً. دورانيّاً وطوفانياً. يصرعني حتّى لاَ نفَس ولاَ بصيرة.

مع ذلك، كان هذا الرفض طريقي. طريق السالكين في ليل هو ليل الكتابة وليل الثقافة المغربية. أتساءل: من اختار الآخر؟ هل الرفض اختارني أم أنا الذي اخترته؟ ويظل الجواب عصيّاً عليّ. لذلك لم أعش حالة بطولةٍ أو شهادة. سلكت الطريق. وفي الأهوال سكنت. لا أفاضل بين أهوال وأهوال. إنها فقط أهوالي. أنا القادم من اليتم المتعدد. والصمت المتعدد. ليس لي أن أتنكّر لمكان القدوم، كما ليس لي شكوى. إنها الطريق. وحدها. وتلك الأهوال. أهوالي. في زمن صامت وثقافة تهدّدُها القناعة.

(4)

الثقافة والمصير. تقع المحمدية على بُعْدِ أشْبَار من الدار البيضاء. مدينة تجهلها جغرافية العلاقاتِ الثقافية. وفي الدار البيضاء صداقاتي الجامعية. شعراء وكتّاب ومهتمون. وما أفكر به يحتاج لموجود جماعي. الخطوة الأولى هي ضمان استمرار ذلك الحلم الذي صاحبتنا بذرتُهُ الأولى في فاس. وهو معنا، الآن، راقص لحماسنا. بقليل من المعرفة التي اكتسبناها. عبر القراءة والدراسة والمتابعة والأفعال الأولية.

مثقفون سياسيون. سياسيون مثقفون. ما الفرقُ، آنذاك. إذن؟ البداية لا تنتظر. ونحن نريد أن نلتحم بغيرنا. بالأكبر منا. بحثاً عن ثقافةٍ جديدة. نلمسها في خطابات غيرنا. أو في المثقفين المغاربة، الكاتبين باللغة الفرنسية. وماذا يفصلنا عن جيل الثلاثينيات؟ أو الأربعينيات والستينيات؟ عوائق تجديد الثقافة المغربية تتراكم أمامنا. والمصدر. ما المصدر؟ اللغة؟ العقلية؟ الجغرافية؟ السلطة؟ ما المصدر؟

رافضون حالمون. حالمون رافضون. وقبل مغادرتي فاس كنت قررت متابعة دراستي العليا في الرباط، وفي تخصص الأدب المغربي. تلك سمة لمغربيتنا التي شرعتْ في التعبير عن ذاتها ضمن عروبة هي كينونتنا العليا. صوتُ الثورة الفلسطينية، يجذِّرُ الكينونة والحلم بمغرب مغاير يتّسِعُ في الصدر. سأتابع دراستي العليا لأتعرّف أكثر على الثقافة المغربية. أندسّ بين ثنياتِ هذه الجنازة التي لا تتوقف أشباحها عن مطاردتنا.

بين الشعر وغيره وشيجةٌ مستورةٌ أو تكاد. وسؤالي عن الشعر المغربي متورط في سؤالي عن الثقافة المغربية. من أجل التعرُّف على الأول أقرأ أغلب ما يصدر عن الثقافة المغربية. كتب نادرة. ملازمة المكتبة العامة في الرباط. حيث شتيت من الصحافة المغربية، التي هي المصدر الوحيد للبحث عن النصوص والأسماء في العصر الحديث. أو كتب مخطوطة ورد ذكرها في هذا العمل أو ذاك. وللسانيات والنقد الفرنسي الجديد شوقٌ آخر. به أباشر اقتراباً صامتاً من الشعر المغربي. ذلك ما كنت لازمتُهُ من قبلُ، ووعيي يرتطم بالنشوة أو العجز. إنها ثقافة غريبة عما تعوّدتُ عليه في الجامعة أو في الكتب الوافدة علينا من القاهرة وبيروت.

(5)

فاسُ تمنعني عن أن أكون ابناً للماءِ والأمواجِ والصخور. والأساطير البحرية تجهل أسمى. أنا ضيفٌ على البحر. وكذلكَ سأظلُّ. جسمي بأرض وقلبي بأرض. متعجّلاً أصبحتُ أعيش. باستمرار. لا وقت لي. متنقّلاً بين المحمدية والرباط والدار البيضاء. ألاحقُ المسافات حتّى يتّضح اقترابي من

الثقافة المغربية. أسلكُ بين منعرجاتٍ للمساهمة في حماية اتحاد كُتّاب المغرب من قرار السلطة بالسيطرة عليه. ولا أدري من أين كانت يدي تحافظ على إيقاع الكتابة. وردة صرخة تائهة في الرمل والعطش والوشوم.

في الأفق ما يعنيني. لم أغادر فاس لأغيب عن فاس. والغنبازُ الذي تركتُهُ هناك غنبازي. وما الذي يهصرني؟ عهدٌ يمضي أم عهدٌ يأتي؟ أليافُ الصباح ترسم يدي على الطريق. بين الكتابة والسعي إلى الكتابة. عهد من الحُمّى والأرقِ والعنفوان. في ليل البحر والسفر. هناك كنتُ أقيم.

25. اهْبِطْ إِلَى جَحِيمِكْ

(1)

لم يكن على مقربة منّي غيرُ صوت الشعر والكتابة والثقافة، في المغرب، وقد امتزج بصوت جسَدٍ تائه. جسدي. ربما كان الصوتُ قادماً من استحالة قصيدة أو كتاب. لصاحبه اسْمُ ابنِ حبوس أو ابن سليمان أو سعيد حِجّي. فاسيٌّ غادر ظلال فاس باتجاه متاه لا قدرةَ لي على أوزارهِ. عهودٌ وليْسَ عهداً أحسها جميعاً تختنِقُ في الحُنجُرة. اهْبِطْ إِلى جَحِيمكَ أَيُّها المسكونُ بحُمّى الكتابة أو بُحُمّى أن تكون أنت. تبعثُر الرمادَ والرّمادَ مِنْ أجْلِ بذرةِ اللهيب. اهْبِطْ وحيداً. ووحيداً هناكَ امكُثْ بين التائهين. قليلاً أو كثيراً.

نداءُ الصوتِ أمرٌ فاتِكٌ. ولن ينفعك ماءُ الحَرَمِ الإدريسيّ. نداءٌ ومتاهٌ فقط. يقطّعُ جسدك بين الدار البيضاءِ والرباط. بحثاً عن اللهيب. إمّا أنْ يكونَ جماعيّاً أو لاَ يكُون. وعلى سطح البحْرِ سفنٌ وقواربُ للشحْنِ أو الصَّيْدِ. الطريق إِلَى الرباط أو الدار البيضاء هلاك. بأيِّ ذنْبٍ سأنزِلُ إلى الجحيم، مندفِعاً في الهبوط من عُلوٍّ شاهقٍ؟ وبأيِّ قناعة سأنزعُ أغلالاً يتعذّرُ عليَّ أن أراها؟ واهْبِطْ إِلَى لهيب تختلسه الكلماتُ عاريةً في وحْدَتِهَا. لَنْ تسلُكَ الأزقّة المؤديةَ إلى الصفارين، هذِهِ المرّة. ولا تلك التي تؤدي إليْك. حتماً. ستعْبُر طرُقاً مرصوفةً بالإسفلْتِ. ليل نهار ستعبر. والطريقُ شِبْهُ ضاحكةٍ شِبْهُ شاحبةٍ. وأنت. مِنْ طريقٍ إلى طريق. تخلُم بلحظةٍ أخرى للثقافةِ المغربية. للشعر المغربي. والطريقُ مستديرةٌ. ذاتُ منعرجاتٍ لا يُبْصِرُها غير القلْب.

وأهبِطُ. دُرْجاً. دُرْجاً. أمامي حاضِرٌ مشدودٌ إلى ماضيه. مُشوّهٌ وكئيبٌ. إني لأسْمَعُ أصواتَ التّائهين من أغْوَارٍ لا قرارَ لَهَا تَصْعَدُ بخاراً وطبقاتِ حفيفٍ أبْكَمَ. أيّ ذنْبٍ أنا اقْتَرفْتُهُ لأكُونَ هُنَا؟ وأتُوهَ هُنَا؟ صمْتِي لا يُقَاوَمُ. وقدمَاي طائعتان. لي مِنَ العنادِ ما يكْفِي لكي لا أخالِفَ أمْرَ الصوْتِ. وفي الأعالِي جلبةٌ سأعْثُرُ، بَعْدَ لأيٍ، على عتماتها تسْتَطِيلُ، في مَمَرّاتٍ غير معْهُودةٍ، بين أقْوَالٍ وأفْعَالٍ. هبُوطي مستمِرٌّ أيُّهَا الصَّوْت.

(2)

تلْكَ سنواتي الأولى في المحمدية التي أدمْتُ الرحيلَ منها إلى الرباط والدار البيضاء. هل هو بحثٌ عَنْ متاهٍ يَصِلُ الكتابةَ بأخواتِهَا، أمْ أنَّ لي شيْئاً آخر اخْتَفَى عنّي وظلَّ مختفياً خلف سديم هو المتاه ذاته، وهاأنذا أراقبه من جوْفِ ما لا أُدرِكُهُ إِلَى الآن، في شيخوخةٍ قَبْلَ أوانها؟ رُبّما. رُبَّما. هذا أو ذاك. ولا أدّعِي أن الوقتَ أعطاني ما بِهِ أفْهَمُ وأقول هذه حقيقةُ ما كنتُ وما قد أكونُ. ورَدَ عليّ جنونٌ أصاب السابقين عليَّ أيضاً فانجذبتُ إِليْهِ. وأنا أتعرّفُ على هاويتي.

هل هو جنونٌ أن أطرحَ سؤالَ: كيف يمكن للثقافة المغربية أن تغادر عربيتُهَا التقليدَ وأن تحصّنَ مشرُوعيةَ حداثتها؟ هل هو جنونٌ أنْ أقاوِمَ عدمَ التّرَاكُم في الإِنتاج والقضايا والرؤى والإشكاليات؟ هل هو جنونٌ أن ألْتقِيَ بالخارجين على الأحزاب ليشرعَ الكاتب والمثقف في خطاب يشكُّ في يقين السياسي؟ هل هو جنونٌ أن أعتقد في العمل الجماعي كضرورةٍ للفعل الثقافي؟

أسئلتي كانت صادرة عن ذلك الألم الذي تربّيْنَا عليه، ونحن نبحث، يائسين، عن موقع الثقافة المغربية في الثقافة العربية الحديثة. أو ونحن نعيش، يومياً، حالة الجفاء بين الثقافة المغربية والمغاربة. أو ونحنُ نسأل مكتبياً عن كتاب مغربي. ولكنها، في الوقت ذاته، صادرةٌ عن عدمِ التقاءِ المثقفين المغاربة ببعضهم بعضاً. بالتجاهل وحده كان الكاتب بالعربية يتحدث عن أخيه بالفرنسية. والكاتب عن الرسام. والمسرحي عن الكاتب.

طبعاً، كُتّابٌ نادرون من المشرق كانوا يعرفون كُتّاباً نادرين من المغرب. وكُتّاباً بالفرنسية كُتّاباً بالعربية. وكتبٌ تصدر وكأنّهَا لا تصدر. ولقاءات تتمُّ وكأنّهَا

لا تَتِمّ. دائرة مختومةٌ بالشمع. في السديم خطابٌ منتصر لقبائل السياسي الذي لا يَعْلُو أحدٌ عليه. دائرة وسديمٌ تنطفىءُ تحتهما كبّةُ اللهيب. والأفقُ أوراقٌ رصاصيةٌ تخرس ألسنتنا، كلما اقتربنا منها ومن السؤال.

(3)

اهْبِطْ إِلَى جَحِيمك. ما معنى أن تكونَ شاعِراً في مجتمع مغربي كافح من أجل الاستقلال والحرية؟ وهل هناك ضرورةٌ في أن تكون؟ بين أزقة فاس الضيقة وبين الجدران التي تعلو بآجُرّها حتّى نهاياتِ السماء. كان السؤالان يُلحّان عليّ. وأنا أعلم أن الشعراء في فاس يصعب أن أُعدّدَ لهم أكثر من ثلاثة أو أربعة أسماء. ومن غادر منهم فاس، منذ الخمسينيات، لا يتجاوز عددُهُمْ عمّنْ هم بها مقيمون. بالعربية والفرنسية على السواء. ولو شئتُ الاقتداء بموقف ابن قتيبة في تسمية الشعراء لبدَتِ الكارثةُ برعبها الأكيد. أقصد المشهورين بالشعر والمعروفين به.

في الجامعة. بظهر المهراز، عثرت على فضاء شعري رمزي. أساتذة وطلاب يجهرون بالشعر. وفي مقهى الرونيسانس ملتقى محفوفٌ بالصمت. تحضر أسماء شعراء عرب وغير عرب. ونكاد لا نقترب من حِدَادِ الشعر بما يلائمه من الذهُول. نفرحُ بقصيدةٍ ونمْضي. ثم ابتداءً من حلولي ضيْفاً على المحمدية، أصبحت الوضعيةُ الجماعيةُ للشعراءِ المغاربة، أو للشعر المغربي، سؤالاً جدّياً وخطيراً في آن.

لقد غادرتُ فاس بمجدِهَا الزائل. بالبقايا المعلقة فوق الجهاتِ الملتبسةِ من الكلام. وأنَا مُصَابٌ بفاجعةِ ألاّ أكونَ هناك. ألاّ أكون هناك يستدعي حضور الشعر كضرورة. أضرحة وعابرون لاَ يعبأون. كان عليَّ أن أتأمّلَ هذه الحالة. بصمت. والزمن لا يسمح بالحنين. في الدار البيضاء والرباط شعراء وكتاب يقيمون. من مناطق مغربية متباعدةٍ أتوْا إلى هنا. والآخرون موزعون بين مدن الجنوب والشمال. لن يجتمعوا في الرباط بمفردها، كما هو الشأن في القاهرة وبيروت وبغداد ودمشق. فالصحافة لا تستوعبهم، لأنها حزبية ومرصودةٌ لتوزيع البركة. دور النشر منعدمة. والدولة لا تختار الكُتاب للاشتغال بالثقافة. والثقافة

لا تهمُّها. وتحديثُهَا متناقِضٌ مع مشروعها. ثم هناك مواجهة بين الدولة ومثقفِي المعارضة.

(4)

ما العملُ، إذن؟ لم أتردَّدْ لحظةً في الامتزاج بجماعة السائلين. للسؤال صداهُ اللينينيّ. هذا أكيد. وللجماعة صداها الماركسيُّ أيضاً. وأنا واجِدٌ من هؤلاءِ المندمجين في معارضة أوسع. نعارضُ أحزاب المعارضة، لأنّها تفتقد، بدورها، مشروعَ تحديث الثقافة المغربية. ذلك هو الصراعُ الخفي بين الثقافي والسياسي، في المغرب الحديث، منذ الثلاثينيات. وبمهارة السياسي تحقق صمتُ الثقافي، ثم خضوعُه.

أنصت جيلي للمثقفين المغاربة، باللغة الفرنسية. هؤلاء الذين شكلوا قوةَ خطابهم ضمن بنية مغايرة للإنتاج الثقافي، بين الرباط وباريس. أنصتنا لبيروت، وعبر مجلة «مواقف» تحديداً. وفي الحالات كلها كنا نبحث عن فضاء شخصي لفعْلٍ ثقافي وإبداعي، تستوطنه منعرجاتُ الرغبة فينا. فنحن منحدرون من يُتْمٍ جماعي. وبعربيتنا نتبادل أنخاب حلم يضيء. من حدود الجرأة إلى حدودِ المغامرة.

نعم، كان إنشاء «الثقافة الجديدة» سعياً نحو فضاء نتآلف فيه، بما لا نعرفه وما نسعى لمجهوله. إنها المغامرة القصوى في زمن لم يكن ينبىء بها. شبَّانٌ يختزنون عهوداً من الصمت. ثم لا يصمتون. بموازاة «الثقافة الجديدة» كان الانتماء لـ «اتحاد كتّاب المغرب» محموماً. نريد له أن يدخل مرحلة المشروع الثقافي الحديث. سنةً بعْدَ سنة. مرحلةً بعد مرحلة. والشبيبةُ متوقّدةٌ ومقررةٌ لمصير المؤتمرات. نتنازلُ أو لا نتنازلُ دفاعاً عن الأساسي. مسكن للكاتب ككاتب. أوّلاً وأوّلاً. سنوات لتنضج سمةُ الثقافة، بتعددها ونقدها.

(5)

كيف لهذا الهبوط إلى الجحيم أن يلتئم في جُمَلٍ تتوجّسُ من شحوبها؟ أنظر، مرتاباً، إلى الساقين، وهما تنجذبان نحو الأسفل. لنْ تستقبلني ساريةٌ تعلو

بالزلّيجِ إلى ألقِ الرُّوح. هبوط في العتمة. والبرد. والوحدة. سنوات تركتها تسْرِي في أعضاءِ الكلمات، حسب مشيئةٍ لاَ أدّعي سرَّها. من أجلِ اللهيب، وضرورةِ ثقافة وشِعْرٍ لمغربٍ يحقّ لي أن أفرحَ فيه بأُخُوّةِ الشعراءِ وحريةِ الإنسان.

كنتُ أهبط، والقريبونَ يشحذون العداوات. والحقد. ويصِلُونَ الجنازةَ بالجنازة. بلُغةٍ تدافع عن تقدميتها بالقتل. إِلَى الجحيم اهْبِطْ أيها المغرور بضوْءِ الأخوّة. واهْبِطْ. إلى حيثُ ينتهي صخبُ المسكون بالجماعي. فلا أنْتَ نحْنُ وَلاَ نحْنُ إخوتُك. جحيمٌ ودم. لأنّكَ آمنْتَ بمَا لم نتعوّدْ عليْه. حبسةُ المجنُونِ في نهايةِ السّراديب. والبعيدُون وحدهمْ ينصتُون ويُصاحبون. معك في العتمة. والسراديب تنشأُ لتكُون.

26. زِلّيـج

(1)

هل هذِهِ مدينتي، مدينةُ البحر؟ ينتابُني السؤالُ وأنا ألْهُو بخطواتي من شارع الجيش الملكي، حيثُ شقّةُ سكنايَ، إِلى المرْسَى التي تختلِطُ فيها المراكبُ بأصْوَاتِ النّوارس وحركاتِهَا الدّورانيّةِ، إِلَى الكثبانِ المتكلّسةِ حجراً، بارتفاعها عن ماءِ المحيط الأطلسي. سؤالٌ عن المدينة ولهْوٌ بالخطوات. لم أُدرِكْ، آنذاك، أن هذا السؤال يتسلّلُ إِلى شقُوقٍ هيَ الأشدُّ غوْراً ورُعباً. سؤالُ الذاتِ عن وجُودِهَا بين سماءٍ وأرضٍ. أحياء وأموات. بين تربيعٍ كان هيْدجر استنطقَهُ وأودعَهُ في كتابٍ لَنْ أَطّلِعَ عليْهِ إِلاّ لاَحِقاً.

اللّهْوُ بالخُطواتِ رقْصٌ. مِنْ صباحٍ إِلَى صباح، كُنْتُ أسْتسلِمُ لجسدي، الذي يُقاوم منطِقَ السُّرعَة. مُصاحباً إِيّاهُ بقدميْنِ راقصتيْن. لَمْ يبْقَ لي مِنْ فَاس غير المشي. فلأَمْشِ، إذن. ومن دون انتباهٍ تنفَلِتُ مِنّي قدماي. ثُمَّ شيْئاً فشيْئاً، أحِسُّ بأعضائي، كلِّها، تخف، في عليائِها، مُجَنّحَةً فطائرةً فَوالهَةً، من حيثُ لا تدْرِي. قدمايَ وطريقُ النّخلِ تحفُّ بنَا معاً. قدَمَايَ. وأنَا. أسْرِقُ مِنَ الأوْقَاتِ، التي تطارِدُنِي، هَذَا الصّبَاحَ. أنْخرطُ في ابتِسَامةِ القلْبِ شارِداً. هواءٌ معْتَدِلٌ وشمْسٌ ربيعيّةٌ لفصْلِ شتاءٍ لم أتعوّدْ بعْدُ على حرارتِهِ التي ترتفع معَ الأنْفاسِ. باتّجاهِ البحْرِ.

مِنَ الكُثْبانِ الحجريّةِ المرتفعةِ يبدأُ البحْرُ أَوْ ينتَهِي، حَسَب موقِعِ رؤيةِ

المُريدِ. مِنَ الشرْقِ إلى الغرْبِ. مِنَ الغرْبِ إلى الشرق. جبرُوتُ هَذا الماءِ البحْرِيّ نحْوَ السّمَاءِ يَنْدَفِعُ كُتلاً كُتلاً أو كوْناً مِنْ عناقيدَ ينشَأُ في لمْحِ البصر. والماءُ يصعدُ مِنْ مغاراتِ أبديّةٍ أنَا فِيهَا شبحٌ أطلُّ، ليرْحَلَ، لا مِنْ حيْثُ أتى وَلاَ إلى حيْثُ يذهبُ. يرْحَلُ دون أنْ يقرّرَ المسَار. كُثبَانٌ وماءٌ. وهذَا المدَى أخضَرُ أزْرَقُ وما بعْدَهُ تدُلُّنِي عليهِ الخرائِطُ وحْدَها. سأظلُّ. هنا. من موجَةٍ إلَى موْجَةٍ كلماتٌ أسمعُهَا تعبثُ بأعْضَائي. تتوجّعُ في جهَةٍ مِنْ كتِفِي ثُمّ تلوبُ مع الموْج.

(2)

هذِهِ الكُثبانُ آخِرُ تُرْبةٍ في العالَمِ العربي. وفي الجهة المعاكِسَةِ مَاءُ البحْرِ الأحْمَرِ والخليج. مَنْ يقفُ، الآن، هناك. ويتذكّرُ أو يتخيّلُ كثبانَ المحيط الأطلسي؟ يحقُّ لي أنْ أسأَلَ. أنا الواقفُ بين ماءَيْنِ ولا أنْسَى أنّهُمَا معاً حدُودِي. مِنْ قَبْلُ كانَ بدر شاكر السياب علّمني جُغرافية ماءِ الخليج. هو الذي كان يصرخ: يا عرَاقُ. فيما كانت النقود تُعوزُهُ والمراكبُ تنأى في البعيد.

ماءٌ لا يُشْبِهُ الماء. والواقِفُ لا يتشَبّهُ بالواقفِ. حقّاً. أتذكّرُ أمين الريحاني وهو يتألّمُ أمامَ مضيقِ جبل طارق، في شمال المغرب، على مقربة من طنجة. رحْلَةُ المشارقة، بحْراً، إلى أميريكا، كانت عابرةً لمضيق جبل طارق. وأمين الريْحَاني تركَ لي أثراً سمّاهُ الشوْق. مَغْرِبُ الشوْق. وهذا البحر، الذي أراهُ قبالَتي، هو ذاتُهُ البحْرُ الذي اجتازتْهُ الباخرةُ في رحلتها إلى أمريكا.

موقِفُ الدُّوار. ماءٌ يلِجُ الماءَ. ومدَارُنَا واحِدٌ. ما الذي يوحّدُني بكُمْ. أنتُمْ. إخْوَتِي في الشرق؟ الشعرُ أم الشروق؟ آلةُ العُودِ أمِ النّخل؟ الحُمّى أم الدّم؟ الوقْتُ أم الرحيلُ؟ الأمواجُ تتكوّنُ بحركاتٍ متزاوجةٍ. وفي اللُّجِّ قُوةُ الذوبانِ أيضاً. قبالَتِي موجٌ يتباطأُ في الأقصى كأنَّ الماءَ صفيحٌ تتضاعفُ أضْوَاؤُهُ. ويمتدُّ في صمْتِ المدَى. أحياناً ألمحُ شبحَ باخرةٍ على خطِّ الوصُولِ إلى ميناءِ الدار البيضاءِ. وأخرياتٌ تتوزّعُهَا خطوطٌ أراقبُ انعراجَهَا إلى ناحيةِ الغرب. مع كُلِّ واحدةٍ مِنْهَا أتركُ شيْئاً من أنفاسِي. ولي أعضاء تدركُ أنّهَا، هُنَا، ستقيمُ لا هنَاكَ. شرقاً أو غرْباً. فقط. هنا. على الكثبانِ. قبالَةَ الماءِ. والسُّحُبِ الخفيفَةِ. والسّماءِ المكتمِلَةِ وَرَاءَ الماء.

(3)

يغمرُني، الآن، زلّيجُ فاس. وللسُّؤال أستسلِمُ، صامتاً. مِنْ أيّ موجَةٍ تشكّلَتْ جداريات مِنَ الزلّيج وانتشرتْ سَريعاً في كلماتي؟ هل الزّليجُ صِنْوُ الشوْقِ أم الزلّيجُ أخُ النّشِيد؟ حيرتي، وأنَا أتلقّى السؤالين لا تقلُّ عنْ حيرتِي، وأنا أبحثُ عنْ متاهاتِ القصيدة. كلُّ ما أقولُ واضِحٌ تماماً. دونَ أن يغنِيَ ذلِكَ أنّي قادرٌ على صوْغِهِ في انسِجَام نظريةٍ عن الزّليج أو القصيدة. ذلكَ مؤكّدٌ.

زلّيجٌ تتآلفُ قِطعهُ الطينيّةُ عبر دوائر تكبُر حَتّى تصبحَ خمْسِينيّةً. دائرةٌ. في البدء. ذاتُ زوايا حادّةٍ. هي مفتتَحُ التكوين. زرقاءُ. لونُ الماء. نافورةٌ منها يفيضُ الماء. أوْ هي ماءٌ وشمْسٌ في آن. عن سديم الملكوتِ انبثقَتْ ورَمَت بي في حيرتِها. أهْلاً بك يَا مبتدأَ التكْوِينِ. وأهْلاً بالجَمْرةِ تُلْقَى مِنّي. إليّ. لكُلّ زاويةٍ نداؤها على قطعتها. قصّاً وتلويناً وتركيباً. قِطعٌ منقوشةٌ بمهارةٍ شائعةٍ بين أطْفال أتقنُوا حرفةَ الزلّيج وهُمْ خاضعون. للمعلّم سلْسِلةُ رسُومٍ توارثَها عنْ علماءِ الهندسةِ المسلمين. دائرةٌ أولى للفيْضِ. هنا يبطُل كُلُّ تجسِيم. والقطعُ تتوالَى وتطوفُ. مثبّتةً ترنُّحهَا العجيب فيْضاً ففيْضاً. لتبرزَ الألوانُ وتتحِدَ وفْقَ حركةٍ متصاعدةٍ لا يحدُّهَا غير الفيض.

كوْنٌ مِنَ الزّليج. والمبتدأُ مُسَبّبُ الدوائر كُلِّها. تتّسِعُ لمنْ يَرَى إليْهَا أجْراماً وأكواناً وخلْقاً وطيّبات. تتلألأُ وَلاَ حركة. تتسلّقُ الجدارَ. من أسْفَلِهِ. منجذبةً إلى مركزِها. مبتدأ الفيض. وهَذَا الجدار المستطيلُ عاجزٌ عنِ الحدّ مِنْ تساكُنِهَا. دائرة بألوانِهَا. أزرق. أصفر. أخضر. أسودُ. أحمر. عسَلي. قُرمزي. أبيض. قِطعٌ دقيقةٌ تُركّبُ واحدةً وَاحدةً. ومعَهَا تطوفُ يدُ الصانِع. عيناه. كتفاه. أطرافه. وكلٌّ منكُمَا يطوفُ بغيره. في شطحةٍ مستُورةٍ تتوحّدان. بعذُوبة. وأيضاً. بانْتشَاء.

جدارياتُ غُرْفةٍ. جدارياتُ فنَاء البيت. جدارياتُ السّقّايةِ. جدارياتُ الأضرحة. جدارياتُ المسَاجد. جدارياتُ المدارسِ. جدارياتُ الرياضِ. والزلّيجُ يغطّي الأرضَ. نجُوماً وسنابلَ. مربعاتٍ ومستطيلات. لكُلِّ فضاءٍ تركيبةٌ منَ الزليج. تنتفي الصُّدْفَةُ. والكتابةُ بالزلّيج تحْتَفظُ بمكْرِهَا وهْيَ في أوْجِ الامتِثَال.

(4)

لي في المحمدية هذا المحيطُ الأطلسيّ. عندَما أزفَعُ بصري صَوْبَ الشّمال تضطرمُ نارٌ في أعضائي. وصوْبَ الجنُوبِ يتغير مجْهُولي. من الشواطىء إلى الصحارى إلى الأمطارِ المدَاريةِ. وبيْنَها شعُوبٌ يتزاحَمُ أنينُهَا في حنجُرتي. كيْفَ لهذهِ البسيطةِ، المنذورةِ لأبديّةٍ، لَنْ أبلُغَها، أن تستضيف القصيدة؟ وهل البحْرُ أمِ الزلّيجُ هُوَ مسْكَن القصيدة؟

على هذا النّحوِ كنتُ، أحياناً أسأل، متردّداً أو ساخراً من سذَاجتي. ولكنّي محمُومٌ بسرّ القصيدةِ ومسْكَنِهَا في آن. لم أكُنْ أتجرّأُ على البوْحِ لأحدٍ بِمَا يصيبُنِي، وأنَا قبالةَ البحر. أوه! لي يقين بأن الشكْوَى لم يكُنْ البحْرُ مكانها. ولا الأمواجِ التي تغريني مقارنتُها بالأبيَاتِ أو المقاطع. تلْكَ عادةٌ شعريةٌ تخلّصْتُ بسُرْعةٍ من ظلالها. مسألَتِي ربّما كانتْ أكْبَر مِنْ هذا الوقوفِ الذي ينْتحِلُ صفةَ معذّبٍ شاحِبِ العين. هناكَ قصيدةٌ تسعى لحركيّةٍ. مُبتغَاهَا ضوْءٌ لا يشيخُ. لأنّهُ قادِمٌ على الدوام.

وكيف لي أنْ أنْسَى الزّلّيج؟ وهلْ هُوَ استقصاءٌ لبلاغةٍ مفتقَدة؟ لا أبحثُ في زلّيج فاسَ احتماءً بماضيه. بل الأساس هُوَ القصيدةُ في مستقْبَلِهَا. ربما كنْتُ مسكوناً بما لم أتبيّنْهُ إلاّ عبر منعرجاتِ السؤال عن السبب الذي يدعو المشارقة (والمغاربة بدون ريب) إلى اعتبار المغربيّ عاجزاً عن الإبداع، بل وعن أيِّ إنتاجٍ ثقافي. المغاربةُ فقهاء ونحاة. أحكام قيمة ترسّختْ، منذ القديم، ثم جاء العصر الحديثُ ليضيفَ إلِيْهَا ما يشاؤون. أنا معْنِيٌّ بافتقَادِ الطريقِ إلَى القصيدة. ومعنيٌّ بافتقادِ الطريقِ إلى تحديثِ الثقافة. معْنِيٌّ ولا حُجّةَ لي غيْرُ هَذَا الجسد.

(5)

زلّيج. وأنا قبالةَ البحر. لقد تخلّصْتُ، هذَا الصباحَ، من وهْم أعبائي، التي ستظلُّ وهْماً لسنوات. صباحٌ للجسد والصمت والبحْر. الرقْصُ، الذي استوْلَى عليَّ، هو الرقصُ ذاتُهُ الذي يلازمني في العودةِ إلى البيْت. لم يكُنْ مجرّد صمت. ولكنّهَا الدخيلةُ ممهورةً بلألاءِ البحْرِ والزلّيج. أضواء. من مصادر متعارضة. يصطدم بعضُها ببعْضٍ. ومن الاصطدام يحدّدُ السؤالُ أرضه، ثُمّ إلى

رُكْنٍ مُغْفَلٍ يُوجّهُهَا. حالةُ الرقْصِ أقْوَى. وأنا. العائِدُ مِنَ الضّوْءِ. هذا الصباح. أعثُر على عتماتٍ تختفِي عن غيري.

والزلّيجُ حالةٌ قبْلَ أنْ يكونَ مسافة. أوْقَدَ الزلّيجُ مَا أوْقدَ. قصيدتي تبحثُ عنْ مجهُولِهَا. ذاكرةٌ متصدّعةٌ والأفقُ ليْسَ منْظُوراً. زلّيجٌ تجلّى. فاسُ تركْتُهَا هنَاك. سؤالُها سؤالُ القصيدة. يصعبُ عليّ التمييزُ بينهما حتّى لا أكادُ أميّزُ بين الماءيْن. قبالةَ البحْر. لغةٌ لنْ أجتلبَ بهَا امتيازاً. يتعذّرُ عليّ التفكيرُ بذلك. والأعضاءُ راقصةٌ على الطريق. مِنَ الماءِ إلَى الماء. أصنافُ طيورٍ. ثم النوارس. إنّنِي بمشقّةٍ أصْعَدُ الدُرج. والقصيدة لم تبدأ بعد.

27. جِدَارٌ بيْنَ لُغتَيْن

(1)

فضاءٌ ينتزِعُكَ مِنْ نفسِكَ ليُلقيَ بِكَ إلى نفسِك. ربّما كان هذا التعبير أقربَ إلى وصْفِ علاقَتِي الأولى، منذ نهاية الستينيات، مع الثقافة المغربية المكتوبة بالفرنسية أو المتّصلة بها، كالفنون التشكيلية. ما كان يعوّق تواصلي مع المكتوب بالعربية، في المغرب، يتفتّتُ تلقائياً أمام ما ينتجه الكُتّابُ المغاربةُ بالفرنسية. بحرْصٍ أكيد كنْتُ أبحثُ عن مجلّة «أنفاس» وعن البدايات الكتابية والفنيّةِ المرافقةِ لها. تلك السنوات. والحرصُ يتبع مغامرةً أدبية أو كتابة فكرية تخرجُ على المعتاد الثقافي، عبر الصحافة المغربية بالعربيّة، أو عبر الندواتِ واللقاءات.

إنَّ هذا لمصْدَرُ فاتِنّ. أصدقائي وأنا كُنّا نقرأُ إنتاجاً بصفحاته القليلة التي ترُجُّ المتكلّسَ فينا، ذَوْقاً واختياراً وأحكاماً. هلْ هيَ ثقافةُ الصّباحِ المغربيّ؟ قصائد ونصوصٌ تضطربُ فيها اللُّغتان ليبتهِجَ شيءٌ ما، في الجسد. أو في المعرفة. أو في المتخيل. ليْسَ هذا قليلاً. نقْرَأُ ونتابعُ. غير عابئين بما يرِدُ عليْنَا مِنْ خطاباتِ وطنيّةٍ لا تقنعنا. أو أحياناً مُجادِلين ومحتجّين. هناك مَا يبعثُ علَى ابتهاجنا بفضاءٍ يتشكّلُ عُنفُهُ ويتجه رأساً إلى اسْتِراحتِنَا منْ صخبٍ لا يُفيد. نقرأُ ونبحثُ عَمّا نقرأ. محمد خير الدين. مصطفى النيسابوري. عبد اللطيف اللعبي. عبد الكبير الخطيبي. الطاهر بن جلون. مُرْسي زَغْلُول. ثم وجه المتمرّد عبد الله العروي.

كتاباتٌ شعرية ونظرية وفكرية. جيل جديد. يَقْطَعُ صلةَ الرّحِم مع الإِنتاج

المغربي المكتوب بالفرنسية لما قبل الاستقلال أو بُعَيْد سنواتِهِ الأولى. ونحن، مُعرَّبين أو مزدوجي الثقافة واللغة، نسعى بِلاَ هوادة. منشورات معدودات. أعمالٌ تشكيلية تعتمد خبرة مغربيّة عريقة. ألواناً. وأشكالاً. أعمال صِدَاميّة وصادمةٌ في آن. وأنْتَ. أيها الفاسي القلق المحجوبةُ عنكَ ذاتُك. تسْعَى. لتفْتتِحَ شهْوَةَ ثقافةٍ مغربية حديثة. خارجَ لُغتِكَ بحثاً عن لُغتك. بين اليقين والشك. أو بين الإنصاتِ وَالاحتجاج. شُعلَةُ الأتْلَنْدِيد. وهذه الحفرةُ تهديكَ شُعلتَها وشعلتَك. والتردُّدُ، الذي كُنّا معبّئينَ بِهِ، ينْحَلُّ ذرّاتٍ ذَرّات. نلهثُ كي لاَ تفْلِتَ مِنَّا فُرْصةُ اللقاءِ النادر. بالبطْحَاءِ.

(2)

لم يُهيّئني تعليمي الأوّلُ كي تكون ثقافتي حديثة. الجامِعُ والقُرآن. عربيّةٌ تخرِصُ على النّحو والصرف. فرنسية تسْخَرُ مِنّي. كمغربي. أو تعاقبني. خطابٌ وطنيٌّ لا يغبأُ بي، ذاتاً وحُلماً. قيمٌ تعوّدُنِي عَلَى الطّاعةِ والامتثال. مدينةٌ تتلاشَى في الحياة العمليّة. قصائد تقليديةٌ يتضاعَفُ ضجيجُهَا. دعواتٌ إلى الالتزام وليس هناك إنتاج أدبي. الثقافة هي المكتوب بمفرده. ويكاد نصيبي من الثقافة الحديثة مقتصراً علَى ما يجُودُ به علينا المكتبيُّونَ، في فاس، مِنَ الإنتاجِ غير المغربي. اللغة العربيّةُ مكانُها المكتبات في المدينة القديمة. وفي المدينة الحديثة «دَار ذِبيبَغ» كتبٌ فرنسية معروضة في الواجهاتِ، معروضة ومضاءة. هندسةُ المدينة بدوْرِهَا تقرّرُ في هندسة فضاء منشطرٍ على ذاته. لكل هندسةٍ زمنُهَا وثقافَتُها. وبالرغبةِ نعْبُر السكُونَ الفاصل بين الزمنين والثقافتين.

مع الستينيات رسّخَ الخطاب الثقافي المغربي، بالعربية، براءتَهُ من الكتابة بالفرنسية. وتمازجت البراءةُ بكثير من تصنيف الكُتّاب المغاربة، بالفرنسية، ضمن خانة الاستعمار والاستعماريين. ونحن، المعرّبين، متحمّسُون للأطروحةِ ومناصرون لها. هناك سوابق لا ننساها. في فاس وفي مدن مغربية عديدة. بنعبد الجليل الذي هاجر إلى أوروبا وتنصّر. إدريس الشرايْبي. كاتب رواية «الماضي البسيط» التي يحتقر فيها ماضينا العربيّ الإسلامي في وقْتٍ كان فيه المغاربة يعلنون ثورتهم المسلّحة على الاستعمار ويستشهدون من أجل استرداد

الاستقلال. نموذجان كافيان لينقل التصنيف من زمن إِلى زمن. ومن جيل إِلَى جيل. والقرينةُ هي اللغة الفرنسية.

زانٍ وزانية. والكتابةُ بالفرنسية غير شرْعية. لكنَّ الكُتَّابَ باللغة الفرنسية، من جهتهِمْ، يقاومون، علَى ضفّتين. يقاومُون التوجيه الفرنسيّ للمثقفين بالفرنسية. يكتبون بفرنسّية تبدّدُ الفرنسية الرسمية. يستنطقون الذات والمجتمع والقيم. وفي الوقت ذاته يجهرون بتقليدية اللغة العربية وثقافتها. إن الثقافة العربية، في المغرب على الأقل، (ولم يكن الأفق العربيّ حاضراً في السّجال) عاجزة عن أن تكون مغربية أو حديثة. إنها ثقافة مكتوبة بلغة ميّتة تخدمُ مصالح الهيمنة المحلية.

(3)

سجالٌ مثير حقاً. وأين نحنُ من هذا السجال؟ كُنَّا، في فاس، شُبّاناً نعيش ظُلماتنا الثقافية. لقد خبتْ شعلةُ القرويّين إِلى الأبد. مجدُكِ انتهى. والعائلات الفاسيّةُ المتوسّطة، فضْلاً عن الغنية، تهْزأُ بالمترددين علَى القرويّين. بيْننا، أيضاً، وبين الإنتاج الثقافي المغربيِّ الحديث ظلمةٌ لا قرارَ لها. ومِنْ أيْنَ لنَا بالأسرارِ المحرّكةِ لهذَا السّجَال. عروبتُنَا هي مسكنُنَا العُلْوي. ولا نملكُ سِوَاها. مغاربةٌ بدون إنتاج ثقافيّ نتداولُهُ بالعربية. وعروبتنا لا تحتاجُ لذريعة. نحن عربٌ. وهذا يكْفِي. وهل هناكَ سببٌ لهذا السجال محجُوبٌ عنّا. ألم يكن انتماء أغلب الكُتّاب المغاربة بالفرنسية إِلى الحزب الشيوعي، الذي كان مناهضاً لاستقلال المغرب، ثم الحالم بالمجتمع الشيوعي وبالأممية سبباً في السجال؟ ربما كان السبب يعُود إِلى التكوين اللغوي دون غيره. هذا الافتراض أخذ يلحُّ عليّ. أغلب المدافعين عن العربية لا يعرفون الفرنسية ولا يقرأون بها، كما أن جُلَّ المدافعين عن الفرنسية لا يعرفون العربية ولا يقرأون بها. كُلُّ فريق في محيطهِ المغلق يشتغل دونما اكتراث بالآخر. والجدار قائِمٌ بين لغتين. والحربُ مستمرّةٌ بين لغتين.

غريبٌ أنَّ تلكَ المرحلة لم تفرزْ فئة ثالثة. فئة تطرحُ المسألة الثقافية، في بعديها التاريخي والحضاري، لنفهمَ، على الأقل، ما يجري. ولتشرعَ الثقافةُ

المغربيّة الحديثة في بناء مشروعها، الشخصي. لم تكن لمزدوجي اللغة والثقافة ما يجعل منهم قُوّةً فاعلة. وأعود، الآن، إلى تلك الفترة متسائلاً عن فِعْلِ الاعتقادِ المعمَّم، بين الكُتّاب بالعربية والفرنسية، على السواء، بالواحدية. لم أكن قادراً على ذلك، آنذاك. على أنَّ غيابَ الفئةِ الثالثةِ تركني غريباً عن فهْمِ ما يجْري. كما شكّكني في الخطابات.

(4)

ومن أيْنَ يبدأُ هدْمُ الجدار؟ 1967. هو ذا الطوفانُ يسرعُ بالأوهامِ إلى مآزقها. وبالاختياراتِ إلى وضوحها. 1967. هزيمة لنا جميعاً. مغرباً ومشرقاً. عربيةً وفرنسيةً. الطوفانُ جامحٌ. أُمّةٌ تعاينُ هاويتَها. والمواقِفُ تكنس انغلاق السجال على الحدود الوطنية أو المغاربية. تعارضات تتوحّدُ في الشارع والكتابة والثقافة. هدير الهزيمةِ يُخرجُ الجميعَ من المخابىء لتتّضِحَ الأسئلةُ الأعمقُ عن الحياة والموتِ والوجودِ والمصير. 1967. السؤال عن الكتابة وكيف نكتب ولمن نكتبُ وماذا نفعلُ بالكتابة. 1967. مغادرةُ الكُتّاب بالفرنسية للحزب الشيوعي وإيذانٌ بتأسيسِ اليسار الجديد.

للبداية في هدم الجدار وضعية مركّبة. لا اختزال ولا تبسيط. هزيمة 1967 قرّبت أغلب الكُتّاب المغاربة بالفرنسية من بُعدهمْ العربي. وبيروت كانت ملتقى طرق المقتنعين بقلقهِمْ وفِعْلِهِمْ. فنشأت الترجمة كما نشأ النشر. أبجديةُ اليسار الجديد عربية. لا الأبجدية الخاصة باللغة، بَلْ بالهمِّ أوْ قُلْ بالمسؤولية. ومن بين جيل السبعينيات تنتشِرُ حمى الترجمة، وقد كان أفرادٌ محدودون شرعوا بها في الستينيات. جدار يتعرّض للهدْم. وتتعرض الأحكامُ للهدْمِ أيضاً. جيلٌ ينصتُ لمستقبل ثقافي فيما هو يحضر خطّاً سياسياً يختلف عن الأطروحات المنتصرة بين نهاية الحرب العالمية الثانية وهزيمة 1967.

فجأة أصبحَ هذا الإنتاج الثقافي مبتغانا. بأسئلته أو طرُقِ تحليله وقدرته المعرفية. بين المقاهي والبيوت نناقش ونقرأ. باختصار نتعلّمُ من هذهِ الفئة، ناسين ما كانَ السّابقون علينا، من المعرّبين، يحذّروننا منه. في الرباط تغْلُو المطالبة بتعريب التجمعات الطلابية. قصائد عبد الوهاب البياتي ومحمود درويش تعثر بيُسر على عُشّاقِهَا. والعربية لغتنا المشتركة.

(5)

لم نتأمّلْ بعْدُ تلكَ الحالة. وقد لا نتأمّلُهَا. إبْدَالاتٌ تدهمنا. ونحْنُ لا نذْرِي. جدارٌ بين لغتين ارتفع بعْدَ الاستقلال، لا قبله. ومهما تماهَى المغرب العربي مع لبنان، بخصوص المسألة اللغوية، فإن التاريخ فاصِلٌ بينهما. وأنا من فئةٍ مفتونة بحرية اختراق المحذور. نقرأُ باللغتين. ونحن مطلُّونَ على الشرق وفرنسا. أجَلْ. هؤلاء الكاتبون بالفرنسية هم الإخوةُ والمعلّمُون.

اعترافُنَا كان تلقائيّاً. والبحث عن ثقافة جديدة يستحيل أن يتمّ ضمن المنظومة السائدة. المسألة الوطنية أو العربية مسألةٌ ثقافية. فجوةٌ تتّسِعُ لنلتقِيَ بالسؤال. عن الذاتِ والحالة. وفاسُ التي قادتني مآذِنها هي غيرُهَا التي تصعد مع فضائنا الثقافي الجديد. شهقةُ الوداعِ متروكةٌ لمن يشتهيها. لحظةُ النّقد تحوّلت إلى متاعٍ ثقافي. والجدل يوسّعُ زمننا. بين فاس والرباط والدار البيضاء. شبيبةٌ تحرصُ على التعلُّم وحُسْنِ الارتباطِ بثقافة مغايرة. بيْنَنَا تنشأُ لأوّلِ مرّة. ونحن بفرَحِنَا نتسِبُ لزمنٍ ينهدمُ فيه الجدارُ بين لغتين.

28. صباحُ شاعِر

(1)

أتجرّأُ على تغيِين الصباح وقتاً للشعر. لنْ ينازعني فيه أحدٌ. وقت ينفرد بالشغر لتعلُّمِ الشعْر. ثم للتعوُّدِ عليْهِ. منْ صباحٍ إلى صبَاح. إنّه قطرةُ الوجُود والحياة. ويمتدُّ اليومُ كما لو كان بحثاً متجدّداً عن الصباح. وقتٌ ينشرُ غطاءَهُ الأزرق منفصلاً عن الأوقاتِ كلِّها. تستبدُّ بي سكينتُهُ وتعظُم فيه أحْوَالي. وجْهاً لوجْهٍ أمامَ الورقةِ البيضاءِ. وأنا أدافع عن الصباح. موعدِي المفضل مع نحْتِ الكلماتِ أو معَ هندسةِ الورقة.

وقتٌ يتغير ضوءُ شمسِهِ لحظةً فلحظة. بُخارُ التكوين يصعد مترنّحاً وصامتاً. أبديةٌ يلِدُها الصباحُ لأكونَ عابراً بين العابرين. علَى أرضٍ ليستْ لي وخدِي. ولكن كيْفَ لي أنْ أجتلبَ عبوريَ الشخصيّ في فاسَ التي تنسى عابريها؟ وكيف لي أنْ أغطِسَ يدي بماءِ الصباح لتنْعَمَ بزُرقةٍ منها تتحدّرُ الكلماتُ وتنكتبُ القصيدة؟

يستمرُّ الصباحُ من فضْلٍ إلى فضْلٍ. وصباحُ الشعْر ينفصل عن صباحِ الطبيعة. سوف أكون عنيداً ليُدركَ الصباحُ ليْلَ الكتابة. أبديةٌ تَسْتَحْضِرها وأنتَ تنتَقِلُ إلى الصباح، تحت سقْفٍ من رائحة خشب الأرز. أو في مقهًى يتجنّبُهُ رُواده في الصباح. هناك خلوتُك البهيّةُ تشرعُ في سطوعهَا. ولك الوِهَادُ والسهوب. أو لكَ المرتفعُ الصّخريُّ. لك البحْرُ بطبقاتِهِ ينفتحُ. وأنْتَ مِنْ بحْرٍ إلى بحْرٍ تُضاعفُ منْ قوّةِ النزولِ إلى ما يفاجىء يدك. قطعانٌ مِنَ الكلماتِ. لطخاتٌ تُعتِمُ وتضيءُ.

ويشملُنِي الصباحُ. هذا الوقتُ لي. بهِ أُسمّي الزمنَ والحياة. فيه أصطدمُ بالموْتِ أيضاً. إنه، بالأخرَى. وقتٌ لاختلاط الحياةِ بالموت، حتّى لا انفصالَ بينهُما. وقتٌ غُباريٌّ. والعبورُ فيه انتسابٌ للصميميّ الذِي لا يشيخ فيكَ ولا في غيركَ. حشرجةُ أن تكُون. ووردةُ الصباح مستحيلةٌ على الدوام لأنّها مجهولةٌ. ناقصةٌ. متخفيّةٌ. تالفةٌ بين ما تعرفُ وتتذكّرُ. سُمْكُ ما تتمرّدُ عليْهِ. وفي الصباح يبدأُ كلُّ شيء.

(2)

هو ذَا وقْتُ الشعْر الذي تعوّدْتُ عليه، بعد أنْ أدركتُ أن القصيدة ليسَتْ متروكةً للصُّدْفة. لم يكن إدراكُ ذلكَ متداولاً في سلوكِ الكتابة. عندما أصبحتْ يدي تغافلُنِي وتكتبُ مَا تشاءُ ومَا لا تشاءُ، في أواسط الستينيات، كانَ العُرْف الرومانسي، المشبع بنفحاتِ العبقرية، يقضي بأن القصيدة تترصّدُ شاعرَها. هي وحْدَها تقرّرُ وقت الكتابة. مع ذلك كان اللّيْلُ والغابةُ. أو كانتِ الحالةُ.

أنا الآخر كنتُ أنتظِرُ اللّيْل حيثُ من المحتمل أن تترصّدني القصيدةُ. في إثْرِ انْفِعَالٍ مَا. غضبٌ. حزنٌ. كآبةٌ. أو عكس ذلك. ولَمْ أكن أعْبأُ بغير اللّيْل والانفعال. إنه مقياسُ صدقِ القصيدةِ التي تأتي من القلب. وفي العفويةِ يكمنُ سِرُّ القصيدة. يكفي أن يُعلن عليَّ الانفعالُ سلطته حتّى تستَبدّ بي القصيدةُ. دفعةً واحدة. ومَا يوجّهُ مسار القصيدة هو الانفعال ذاته. طولاً وقصراً. تكادُ كلُّ الكلمات والتراكيب تتساوَى في عزّ الانفعال.

بدلَ الغابة كنتُ ألتجىء إلى حقول «ويسْلاَن»، على مقربة من باب الجديد. والوقتُ هو الغروب. إخضرارٌ يسيل بين منعرجاتِ الصمت. قمحٌ وأشجار. والغروب لحظة مناجاة. رومانسيتي عنيفةٌ. أُدندن مع الشابي أو جبران ثم أحياناً أستسلم لتأملات لاَمَارْتين وبعض قصائد ألفريد دومُوسِي. مع الانفعال يصبحُ كل شيءٍ جائزاً. المهمُّ هو الانفعال. أعود إلى البيت، إذن، متهجّجاً بما يُمليه عليَّ الانفعال الذي يتّسِعُ مع هدأةِ اللّيْلِ وعُلوّ الغرفةِ وهواءِ ما قبل الصيف.

على هذا النحو أصبحتُ مطيعاً للانفعال لا للقصيدة. أبياتٌ تتلوها أبيات.

صفحاتٌ تطولُ وأنا أتوهّمُ كتابة القصيدة. أقضِي اللّيلَ، إلاّ أقلّه، متسامحاً مع عواطف المراهقةِ وسيولةِ الكلام. في الصباح أفتح الأوراق لأُعيد قراءة ما أملاهُ عليّ الانفعالُ فلا أعثرُ إلاّ على كلامٍ مبْتَذَلٍ لا أثر فيه لذاتي وللقصيدة.

(3)

قصيدة الانفعال تظلُّ، على الدوام، قصيدة الصُّدْفة. والبحثُ عن الحرية والجمال. بين أزقة فاس. دلّني على السر المحجوب. إنه قصيدة المعرفة والبناء. بيوتٌ تعلو بطوابقها. وبألْفِ غرفةٍ وغرفة. جدران يتكلم زلّيجُها بأصوات النفوس الأولى. نوافير تفيض ماءً يفيض هندسةَ قباب. أبوابٌ من أرزٍ ونحاسٍ تحافِظ فيها النقوشُ على دورة الأفلاك. زجاجياتٌ بألوانها العِراقيّة تنفذ منها ذبذباتُ الرحمة لا العذاب. والقصيدة حتماً هي غيرُ الصدْفة.

تلك ضرورة عليّ أن أتعلّمها. لأتعلّم التواضع أمامَ القصيدة. ولقد أوصاني الشعراء العرب القدماء، وفي مقدمهم أبو تمام، بالصرامة في كتابة القصيدة. الوقتُ والمكانُ وهيئة الجسد. كلُّها تمدُّني بجغرافية الاقتراب من القصيدة. قصائد السياب الأساسية أيقظت الشهوة في الانضباط. كنتُ أقضي شهوراً لأرصُدَ مدخلاً إلى سراديبها. ومعَ أدونيس كان إدغار ألن بُو أو كان بودلير يتكامل. كيمياء تجافي الصدفة. وفي محْوِ المشترك يزدادُ كيْدُ الزلزال. صدمة تعصف باليد والعين. هناك تنحشر أسرارُكِ أيتها القصيدة.

وكان الوقتُ موْلايَ ومأْوَاي. هكذا أتقنتُ محبّةَ الصباح. خطوةٌ مباركةٌ نحْوَ إنكار الصدمة. والانفعال. ومزَقِ الأوقاتِ التي تسمح والتي لا تسمح. هو الصباح يعني أن القصيدة حياتي أوّلاً وأوّلاً. ولما عداها بقية الأوقات. سيأتي رامْبُو وملازمِيه وفرنسِيس بُونْج. سيأتي هُلدرلين ورِيلْكَه وجيْمس جُويْس. سيأتي أبو حيّان التوحيدي والسّهروزديّ وابن عربيّ وبَاشُو. سيأْتِي أمرؤ القيْس. المتنبّي. دانْتِي. روني شَاز. بُورخيس. القنْدوسِي. قبيلةُ الشعراء والروائيّين والفنانين. أُطلّ عليْهم منْ صفَاءِ سكِينتِهِمْ فأكون، في حضرة خلوتهم. كلُّ واحدٍ منهم في وقته الذي يختار.

(4)

ملازمةُ الصباح. عودةٌ أبديةٌ في الكتابة للكتابة. طُفْ بي أيها الوقتُ الصديق والْتَقِ بجسَدِ المريدِ إِلى عنفوانِ السكينة. لم يُوصِنِي أحدٌ من الشعراءِ السابقين عليّ، في المغرب الحديث، بهذه الصرامة. كان عليّ أن أقضِي سنواتٍ في السؤال عن القصيدةِ والبحْثِ عنهَا كي أطلّ على أسلافي وهم يحفرون السطور في الأراضي الشعرية. أسلافي أسمّيهِمْ. بتعدُّدِ اللغاتِ والحضارات والأزمنة. أنا المهاجِرُ إِلى وطنِ الكتابة. أعيّنُ أسلافي من داخلِ هذا الوطن ذاته. ولا وطن لي سِوَاه.

من صباحٍ إِلَى صباح. دفاعٌ عن هذا الصباح. أغلق عليّ بابَ المكتب وأتقدّمُ بالتحية. أحيّي السكينة والقلمَ والأوراق. بالقراءات أتهيّأُ. علبةُ سجائر. برّادُ أتَايَ. وفسحةٌ من الصمت. لأُغادرَ زمنِي إِلَى زمَنِي. قد يختلطُ البيتُ الأول بالتشطيب. والكلمةُ المنحوتةُ هي ما أعوّلُ عليه. نحتُ الكلمة يدلُّ على مكانها بين غيرها. سلسلةُ كلماتٍ تحفِرُ المجْرَى. وأشرعُ في مقاومة مَا لستُ أنَا، بعنَادٍ يتكرّرُ، صبْراً وَنُسْكاً.

هي ذِي الكتابةُ تتأمّلُ النّهر. أنصِتُ لهؤلاء التائهين وهُمْ يُسلّمونَنِي وديعتَهُمْ. نهراً يجْرِي ماؤُهُ الذي لاَ يُقاوَمُ. نهراً مِنْ أيْنَ تبلغُهُ؟ وكيف تتملّكُهُ؟ ذلك هو درْسُ الصباح والكتابةِ في آن. لن تكتب إِلاّ وأنْتَ موقِنٌ بأنّكَ ضدّ كتابةٍ ومعَ غيرِها. إنّهُ ما تكتشفُهُ مِنْ صباحٍ إلى صباح. في الكتابةِ وحوادثِها. والنصوصُ التي تختارُ أُلْفتَهَا تُشير. لا صُدْفةَ في الكتابة. إنّها تعلّمٌ أبديّ.

لا تخجَلْ مِنَ الكلماتِ التي تتآخى معها في السريرةِ ولاَ أحدَ غيرك يستعملُها. اتّبِع أنفَاسَك حتّى ولوْ كانَتْ تتعارضُ مع علاماتِ الترقيم. افْرَحْ بهذا الخطِّ المغربي ولا تعْبأْ بالتواصُلِ. والخطابِ القوميّ. والتقدمية التي تلغي الذات. أوْ لاَ تفكرُ بها. عُدْ كلَّ صباحٍ لتبدأ من جديد. تراكيبُ تمهرُهَا بإمضاء يدكَ الثالثة. مكانُ الصفحة ينادي على تعدُّدِ النصّ والخطّ والفراغ. وهذا المثلثُ الذي فاجأكَ تأمّلْهُ ثمّ انفُث فيه مِنْ هذيانِكَ حتّى يلتئمَ اللاتّوازُنُ. عُدْ كُلَّ صباحٍ لتُدْرِكَ أنّ الكتابةَ مجاهدةٌ قُصْوَى. واقْرأْ عليْك. عصيانَكَ لمنْ يتولّى سرقةَ الصباح.

(5)

أدافِعُ عن هذا الصباح. ضد مَنْ يتأفَفُون من تعلُّم الكتابة. هؤلاء الساذجُونَ الذين يحصرون مجْدَ الكتابة في خارجِهَا. يسألونك عمَّ تفْعَلُ خارجَ الكتابة لا عنْهَا. حضور اجتماعاتٍ لا تغْنِي الكتابة. التصويت في انتخاباتٍ مزوّرة. مناصبُ وامتيازات. صفقاتٌ وأملاك. محافظة على النفاق الاجتماعي. وللكتابةِ ما يفْضُل مِنَ الوقْت. أو مِنَ الحياة. ولن يخطئوا، يوماً، في السؤال عن قصيدةٍ أو عن مصيرها. لا بأس. القصيدةُ بدورها حريصةٌ على الإضراب، حيثُ لا يتوقّعُون.

ما يمنعُنِي من الصباح كان باستمرارِ عذابي الأشدَّ بطشاً بي وبالقصيدة. سنواتي التي غرّرتْ بي فيها أعمالٌ أتبادل وإياهَا الجفاء. خدماتٌ لغيري أستحقُّ بغدَها الشتيمةَ والعداء. تكريسٌ لوهْمِ واجباتٍ هي العدمُ ذاتُهُ. استجابةٌ لعاداتٍ يسْتَدِيمُها مجتمع الترفيهِ والاستهلاكِ. خشيةٌ من التصريح بقول: لاَ. مجاراةُ آدابٍ وقيمٍ تقاومُهَا الكتابة.

ويظلُّ الدفاعُ عن الصباح. حياةٌ لغير الاستسلام. مرّةً فمرةً أراقبُ الزّمنَ وأصارعُ ما يمنعُنِي منَ الصباح. حالاتٌ من الكآبة واليأس. أكادُ أدمّرُ كُلَّ شيءٍ من أجْلِ هذا الصباح. وأتمنّى لو كنتُ أعيشُ في زمن لا حدودَ فيه بين البلاد ولا تأشيرة. كي أتوه. دفاعاً عن الصباح. والكتابة. وطني الوحيد. والمتأكدون يُدركون أن الدفاعَ عن صباحِ شاعر هو اختيارُ الانتساب. لدمٍ وحيد. في مجتمع تبطُل فيه الكتابة.

29. السّبْعِينيّات

(1)

كلمة تخفي تحتها قِفَافَ الزمرُّدِ والماس. كلمةٌ وحيدةٌ تسمّي جيلاً وذاتاً جماعية في آن. سبعينياتُ مغرب هذا القرن. ألْفُ لوْعةٍ ولوْعة. لو كنتُ من أهْلِ الحنين لشهقْت، ولكني بحاضر الأيام ولربّما بمستقبلها المريب أتوقف. أتأمل، قليلاً، حتّى لا تُصيبني شظايا الوقت. أرْخبيلُ أفعالٍ. وهذا الليل ليْلي أنا الآخر. ماذا يريد منّا القانعُون النادمون؟ نصالٌ تتنافسُ في سمومها. شرْقاً غرباً. ذاتاً آخر. أيتُها الثنائياتُ امتحِني جُموحي في منتصف النهار. وأنتِ استصرخي ما تبقّى مِنْ حُطامي، على ورقٍ صديق.

ندبٌ أمْ بكاء؟ أليْسَ هناك ما يقوّي فيك تأمُّلاً لتنصت أكثر، في السديم. وانقلابِ الأنظمة التي بها كُنّا نقرأُ الكونَ والأشياء؟ سأكتبُ، إذنْ، ما تنذر به نفسي نفسي. صعوداً نحوَ الصمت. واحتفاءً بعزلةٍ هي لمْعةُ الوطنِ الأخير، على عتبة الكتابة. يندر أن أخُصَّ بذلك هدفاً مُقْنِعاً. لي. أو لغيري. فقط. لأجْل هذا الغبار المنادي على شطحاتٍ جهُولٌ أنَا بمصدرها. حقّاً. يبدو أن هذا غير مزعج. ذاتٌ بمفردها تقاوِمُ احتضارَ لُغة. تقاومُ أيضاً ممرّاتِ الضجيج. على شاطىء ينْسَى. الهواءُ شُعَلٌ بطيئةٌ. نسيجُ لاَ مبالاةٍ. والحروبُ الصغيرةُ (أو الحقيرةُ) هيَ راهنُ حرُوبنا لأوْهامِ مجْدٍ. على قدْرِ أهْلِ العزْم.

صُغْ لي جملةً عن سبعينيّات مغربِ هَذَا القرن وأنا قائلٌ لكَ توّاً من أنْت. على هذا النحْوِ تصدمُنِي نفسِي، أحياناً، وأنا دائخٌ أو مهاجرٌ أو مُسْتَسْلِمٌ لمَنْ كانَ

صديقاً ثم تكشّفتْ لي صداقتُهُ قناعاً يحجبُ استبدادياً لا يخْشى جُرْحَ الكلمات. ينْهَرُني كما لوْ كان ينْهَرُ كلباً أجرب أو مسعُوراً. وأنَا بشحُوبِي أرَى إليْه. يأتي منَ المغرب أو المشرق. أي مِنْ جغرافية القساوةِ التي لا تغيرها كُلُّ طيبُوبةٍ كاذبةٍ.

جملة واحدةٌ. حصراً. عنْ عشريةٍ فيها ثقافةٌ مغربيّةٌ ربطتْ مدارَهَا بسؤالها الشخصيّ. عربيّاً متعدّداً. لي صُغْ جُملتكَ. واترُكْ لغيركَ حريةَ أن يختَارَ صداقتكَ أوْ مكيدَتَهُ. ولا تندَم، أبداً، على ما ستكتُبُ. تلك وصيةُ الكتابةِ لمَنْ نادتْ عليه الكتابة. المغربُ. المشرقُ. مَنْ أعْطى ووهب هذِهِ الأغْلاَل؟ وبِمَ أذنبْتُ حتّى أكون مِنْ هُنَا لا مِنْ هُنَاك؟ وجملةُ نفيي هي، بدءاً، لنفسي.

(2)

سبعينياتُ مغربِ هذَا القرن. أراني أشيخُ قبْلَ أوانِ الشيخوخة. سلاماً لكَ أيها الشبابُ الذي لا أتساوَى فيه مَعَ غيري. قفْ أمامي حتى لاَ يصْدُر عنّا غيرُ الصمت. الصمتُ ردائي ورحيلي. صمتٌ أحمرُ. لاَ. صمتٌ أصْفرُ. لاَ. صمتٌ أزرقُ. لاَ. صمتٌ أبْيضُ فيه تهجُر طيُوري مناخَتَهَا وتستطيعُ وصْلَ فراغٍ بفراغ. تمجيداً لهذا النشيد السديمي الذي خاط نفوساً بأرْضِهَا وبجلبَةِ الوشُومِ راحلةً مِنْ جَسدٍ إلى جسَدٍ. عبر حنّاءٍ ودمٍ في ليْلةِ عُرْسٍ صخراويٍّ. وأنَا إليْك.

هلْ فاجأتِ السبعينياتُ أهْلَهَا؟ أنَا أحدُ الذينَ فاجأتهم. بدلاً من أنْ تبدّدني جلالةُ النشيدِ، كانَ كُلُّ ما تعلمْتُهُ من الكتب يذبلُ ويتلاشى أمام ما أصبحتُ أتعلّمُهُ مِنْ كائن وممكن الثقافة المغربية أو العربية. وقْتُ صحْوٍ فريد. والنشيدُ يُغادرُ المذاوذَ المجهولة. يستقصي المعابرَ. يقذفُ بالشعلةِ إلى أقفاصِ الصدور. فاجأتْنِي السبعينياتُ بضرُورةِ القطيعة مع ما كان مصدراً للمعرفة أو اتجاهاً للذاتِ المغربية في زمنها الحديث. الشعلةُ لا تنتظر متردّداً ما زال محافظاً على توازُنِ ما ورِثَ. قيمةً. حُكْماً. رؤيةً. ذوقاً. حساسيةً. هذا نشيدُنا الجماعي.

طبقاتٌ من المُسَلّماتِ، التي ربّتْنا على القناعةِ والخضوع، تهوي. بالنشيد. عليماً بأرْكَانِ التمرُّد. حريصاً على الأساسي. نازعاً عن المعْرفةِ بالذاتِ وبالآخرِ حُميّا القوميةِ المريضة. سالكاً بالمريدين إلى القلق الذي يضاعف القلق. عارضاً عن أبُوّةٍ تُعاقب من يتجاسر عليها. ساهراً في الممنوع. منادياً على جمالية

مغايرةٍ للأشياءِ وللعالم. رافضاً من يقولُ له كُنْ لي وخدِي أو فلْتكُنْ على يدي شهيدَ نفْسِكَ. مجافياً للأصُولِ التي تنفيه. مفكّكاً للوطنية العمياءِ وللاختلافِ الوحْشي.

(3)

لثقافةِ السبعينيات في مغرب هذا القرن حريةُ النشيد. قبل قرنٍ كان علماءُ المغرب يكتبون رسائل يعلنون فيها وجهة نظرهم في تحديث المغرب. بعد الانهزامات العسكرية في الشرق والشمال. بين وجدة وتطوان. ثم بعد تصاعد الضغط الأجنبي. في بداية القرن خطت الشبيبة مشروع دستور. وفي الثلاثينيات، بعد عشرين سنة من إقامة الحماية الفرنسية في الجنوب والإسبانية في الشمال، أصدرت مجلة «السلام»، في عددها الأول بتطوان، أول بيان ثقافي لتحديث الثقافة المغربية. وكانت الدعوة إِلى الأدب مركز المشروع التحديثي.

وفيما كانت الثقافة المغربية، بالعربية، معوّقَةً ببنيتها التقليدية. برزت جماعة «أنفاس» بالفرنسية. في الستينيات، من خلال مشروع عنيف لتحديث الثقافة المغربية. إنه مشروع أساسي. شعر. تشكيل. معه طُرِحَ ما كان مسكوتاً عنه. أنفاسُ جماليةٍ مُعَارضة. ونقد الذات أو نقد الآخر سمة هذه الجمالية المتوثبة. أبناءُ آوى يبشّرُون بجماليتهم المعارِضة. وذُعْرُ المسلماتِ يتواصل.

ولم ينزل النشيدُ في الصدْرِ الجماعي إِلاَّ مع السبعينيات. العربيةُ مُرتمى النشيد. ترجمة العروي والخطيبي إِلى العربية. مسرح الطيب الصديقي في الحرّازِ والمقامات. أغاني ناس الغيوان وملحون جيل جيلالة. صدور مجلات «الثقافة الجديدة». «الزمان المغربي». «البديل؟». «الجسور». «المقدمة». صراعاتٌ كبرى من أجل حماية اتحاد كتاب المغرب. فعل ثقافي جمعوي ناهض عبر اختيارات وممارسات متعددة. نصوص وكتابات أدبية تسأل عن البدايات. اصطدام خطابات مغربية بخطابات مشرقية. اللسانيات والبنيوية. مصطلحاتٌ وتعاريف غير مألوفة. نقد تاريخ المغرب الحديث. عاصِفَةُ الجماليات. صراعٌ بين الثقافي والسياسي. ميشيل فوكو والقطيعة. مغامرةُ الفنون التشكيلية. البحث عن الفيلم المغربي. مسرح الهواة. الثقافة الأمازيغية. القفطان. الجلاّبة.

القشّابة. الضراعية. الزليج. الآلة الأندلسية. الملحون. كنَاوة. كتبٌ تقاوم الفقر. قراءاتٌ شعرية. ندوات. معارك ثقافية. الخط المغربي. الإعلام والثقافة الوطنية.

(4)

ولم أكتب جملتي بعْدُ، أيتها النفس الآمرة. تلك السبعينيات كان المغربيُّ فيها ممتزجاً بما هو عربي ودولي. أفعالٌ تتناسلُ لتنسج المدار الكلّي لزمن رافض. اليسارية والماركسية أبجدية من كانوا يؤمنون بخلاص البشرية من اللاإنساني في الحياة الإنسانية. والمغرب لم يكن بادئاً بما وشم العشرية. لم يكن منتهاها أيضاً. إنه شُمول فعل المدار. وهو الآن وهْمٌ أو شبه وَهْم.

مع أواسط الثمانينيات، ثم مع اقتراب التسعينيات تعاظم تقويض أثر ثورة 1917 على العالم الشيوعي والمندمجين في فضاءِ أوهامه. ومن جديد برزت 1789 بفسحة الديمقراطية وحقوق الإنسان. ونهاية التاريخ. عربياً، شرعنا في التخلص من استبدادية يسارنا البدويّ. الإقطاعي. الأتوقراطي. ديكتاتورية لا رحمة لها ولا إنسانية في أحشائها. سيفٌ على الأعناق. والخيانة لمن يجهرون.

هل. حقاً. بهذا الشمول مفرداً يمكننا تعريفُ ما مضى في سبعينيات مغرب هذا القرن؟ أشك. وشكوكي تتأكد من رسوخها. أجرُؤ على قول ذلك بالقدر ذاته الذي جرأتُ به، في السبعينيات، على معارضة السياسي اليساري قبل اليميني. هناك ما هو أعمقُ من اليسارية والماركسية في المشهد الثقافي لسبعينيات المغرب. أعمق بمعنى أبعدُ تجذراً. إنه ما نستطيع تسميته ببحث المغاربة عن ذاتيتهم الثقافية. بحثٌ تلازمَ وأفقَ التحرُّر من كل ما ينفي إبداعيتهم. أكان المصدر شرقيّاً أم غربيّاً. أفقٌ ترتسم فيه زلزاليات بنْيَةٍ ذهنية تقليدية تضغط، بأسرارها اللامتناهية، على الروح الإبداعية.

(5)

أعمق من اليسارية والماركسية. ولكنهما معاً فعَلاَ فعْلَهُمَا في اختبار تصعيد المكبوت. ولا عِلْمَ لي إن كان هذا ممكناً بدونهما أم لا. أنحصر في الوقائع. أو في رؤيتي إلى الوقائع. حتى لا أدّعيَ صفاءً أتحاشى الثقة به. مع السبعينيات

أصبح الثقافي، الفكري، الفني، الأدبي، همّاً يوميّاً للأفراد والجماعات. واللغات المغربية. من عربية فصحى، وعربية دارجة، أمازيغية، تعثر على صياغات وتعبيرات نازعة إلى التحديث. وفجأةً أصبح الخطاب الفكري المغربي، إلى جانب الدرس اللساني والبحث التاريخي والنقد الأدبي، كما الإبداع المغربي: رسْماً، شعراً، أغنية، مسرحاً، رواية، قصة قصيرة، يصْنَعُ ذاتاً مغربية، تتجاوبُ مع هذا الإنتاج، عبر الجهات المغربية المتباعدة، من أقصى الشمالِ إلى أقصى الجنوب. تتجاوبُ في الوقت نفسه مع الثقافة العربية بفاعلية كريمة.

مع أواسط الثمانينيات، ثم مع اقتراب التسعينيات، عادت مؤسسات التقليد اللانهائية لتستولي على ما بإمكانها الاستيلاء عليه. فهي لا تحتمل إبداعية حُرَّةً تعرضتْ على الدوام للكبت، عبر تاريخ المغرب. هل أنا أبالغ؟ لا بأس. هي ذي مبالغتي تعبر عن عدم الخوْفِ من شيءٍ ما. أو لعلّها تعبر عن الخوف. من يدري؟

سبعينيات مغرب هذا القرن، هي ثلاثينيات مصر. وخمسينيات لبنان. والمغرب قريبٌ من غير المغرب، في المحيط الثقافي العربي. لحظات ثقافية تعوّدْنَا على انقطاعها في تاريخنا العربي الحديث. ونحن. الآن. تائهون. مشرقاً ومغرباً. وفي الليل أنصت. إلى شمس الليل. والرحيل. والخوْف.

30. أسطورةُ أن يفهَمُوك

(1)

نَسَبُك يعودُ إلى أولئك الفاسيّين المزدادين في نهاية الأربعينيات. 1948. وأبْعدُ اللحظات ترسُّخاً في ذاكرتك البصرية هي التي تجوب الآن عقبة الزرقاء. موزعةً بين القطّانين ورحبة الزبيب. وليس لك من عقبة الزرقاء سوى ذلك المجذوب الملازم لمصطبة البيت المجاور. وحلْقُ الرأس بآلة تشبه المشط. وغسْل الرأس بمادة تؤلم العينين. وتُبكيك. والزرقاء. الصاعدة بخفة الدرجات الواسعة. والعتمة المتساوية صيفاً وشتاء.

جيلك يأتي موالياً لجيل جْنَان السبيل. هكذا أسمّي الجيل السابق عليك. أنت. صديقي الذي يلازم أحشائي. في جْنَان السبيل جيل يعرف القاهرة بقدر معرفته بفاس. والجنان حديقة تطوف بالأرض. شمساً. ماءً. هواءً. أشجاراً. زهوراً. ونباتاتٍ خضراء. بِرْكةٌ ومقهى الناعورة. ناعورة الماء. أغاني عبد الوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش وأسمهان. ماءٌ ونفوسٌ غريبة. تطفح لأوّلِ مرةٍ من بين الفاسيين المؤلفين في الزوايا. والتصوّف الشعبي. والنفوسُ الغريبة من متعلّمين وحرفيّين وتجّار. شبيبةٌ لها الولهُ. الوحدةُ. النشوةُ. الحرقةُ. جيل الفرِيزي. والطربوش التركي الأحمر. وخصلة الشعر التي تظهر لأوّل مرّةٍ على رؤوس الفاسيّين. والبذْلة الرومية. وساعة اليد. وكوكا كولا. ومِنْ بين المتعلمين شعراء، يبحثون عن حريتهم فلا يعثرون عليها. والعلْمُ في فاس على أطرافِ الأسوار. لا صحافة تصدرُ فيها ولا كتاب يطبع. كل شيْءٍ مستورد من خارج فاس.

وجيلُك موشوم بعهد الاستقلال. بالدم الملازم لكل استقلال. وبالصراعات بين عهود وأنماط حياة. الاستقلال الذي لا تعرف معناهُ الكبير. في الصباحات الباردة. ونحن حوْلَ علبة بحجم الكفّ وذات لوْنٍ زيتي مغموق نجتمع. لون العتاد العسكري. نجتمع. ونوقد مادّتها البيضاء المتخثرة لندفىء الأصابعَ قبل دخول قاعةِ الدرس، في باب الخوخة. وشيْئاً فشيئاً يبدو الاستقلال نزوعاً نحو أن نكون. نحن. في عالم ليست فاس مركزه. ونماذجُ تهوي. أمامَنا. من تلقاء ذاتها تهوي. أو بها تعصفُ حياةٌ تتدفّقُ بعُنْفٍ على المدينة.

(2)

جيلُكَ أنت. وهذا السور الذي يحاصِرُ دواخلنا. لديْك ما يكفي لغير الصمت. والفجيعة. وأنت. وأنا. معاً. نصطدم بما ينفينا. بمن يقول لنا كلامُكَ جسارةٌ. نعم. نريد أن نكون جسورين. لنتعرّفَ على حياةٍ أخرى. ومغربٍ آخر. وثقافةٍ أخرى. وأدبٍ آخر. وحرية أخرى. تقرأُ شعراءَ وفلاسفة. وتطيل التأمل في أعمال فنية. من هناك وهناك. ولا تثق بما لديك من قناعة. جدران وسقوف تحس بوجَعها. وعلى الأبواب القديمة تودُّ لو تشُجّ رأسك، هذه الأبواب.

ولن يفهموك. أنت تسْتَفْرِدُ بكتاب في علُوّ غرفتك. لنْ يفهموك. وأنت تتأخر في العودة إلى البيت طائفاً ببنايات مدينتك الصامتة. لن يفهموك. وأنتَ تغشى المساجدَ ولا تُصلّي. لن يفهموك. وأنت تتحدث عن أخُوَةِ الألوان. لن يفهموك. وأنت ترفض حضور الحفلات العائلية التي يتصاحب فيها النفاق والنميمة. لن يفهموك. لأنك لم تعد ببساطةٍ تعرفُ من أنت. ولِمَ لا تتساوى مع غيرك في المعرفة والحرية وحبِّ الجمال. وكيف يمكن أن تحطم هذا السور المتعدد في دخيلتك ودخيلة غيرك. وهل أنت الشابُّ لا شبابَ لك. ولا حياة. مجرد أن تقول نعم. جواباً عن كل قول أو فعل.

نعم. واصْمُتْ. هو ذا قانون التربية. مدرسة صالحة لحياةٍ أخروية صالحة. وأغلال الجحيم. وسدنة النار. على عكس ما قرأتُ وما أحافظ على رؤيته، في كتب الأسلاف وكتب الأوروبيين الحديثين. أو في حضارة لها بقايا الضوء بين أزقة فاس وفنونها المنتشرة، بين أبنية وبيوت. وفي كل وقت لك من هذه الحضارة ما يسبيك وينقلك بين دمشق وبغداد وقرطبة.

(3)

في الجامعة تتوهم أنك ستعثر بين الطلبة على الفهم المفقود. من المناطق المغربية كلها إلى ظهر المهراز. في القسم الواحد. والسنة الواحدة. أحياناً ترمقهم يوشْوِشون وأنت تتحدث عن انعدام الفرق بين الكلمات قبل استعمالها في جمل وعبارات. إنّهُ انشغال باللغة غريب عنهم. وهم ينتظرون منك شعاراً سياسياً. ترديد ما يقوله الزعماء. أو بعضُ الأدباء المنتشرين في الصحافة. ولسْتَ من هؤلاءِ. إنّكَ تنصِتُ إلى الكلماتِ وهي تلتئمُ في أبياتٍ. والأبيات في مقاطع. تنصت إليها وأنت تقرأ ديواناً فريداً أو تبحث عن بداية قصيدة.

هناك في الجامعة كان المجتمع. بتناقضاته. ومستويات وعيه. ولم يكن الطلبة مشكلين لوعْيٍ نقيض إلاّ في مواقف سياسيةٍ أو نقابيّة. أما الثقافة والقيم والأحكام والأذواق والحساسيات فكانت وارثة بإخلاص لما يفعل في المجتمع المغربي، مدينةً وباديةً. تقدميٌّ يمجّدُ أحمد شوقي لأنه أمير الشعراء. ومن تعرّف على الشعر المعاصر يتوقّفُ عند المظهر السياسي للنص، أكان للسياب أم البياتي أم صلاح عبد الصبور. إنها فئة قليلة. ومع ذلك فهي مخلصة لولائها السياسي. أما الحديث عن الشعر وبناء القصيدة والتجربة الأساسية فتقتصِرُ عليه العصابة، بين مقهى «الرونيسانس» والكهف. هناك فقط يمكن أن نفسح للحوار حول المغامرة في الشعر والرسم ونكون ضيوفاً على العزلة.

(4)

وعند عائلة الكُتّاب المحلوم بها ترصّدَ بي العذاب. بأيِّ لغة تتحدث عن عذابك بين الكُتّابِ أيها الصديق؟ أنت وأنَا. معاً. ذاتٌ تفتّشُ عن أخوّتها فلا يقابلُها إلاّ اختيار الاستسلام أو العذاب. جفاء. سخرية. إشاعات. ضغينة. والمقصلةُ على أبوابِ الكلمات. ذلك العذاب لم يكن عذابك أو عذابي، وحده. عذاب الصامتين وهم في مكان ما تائهون. في الصمت. أو في البعيد. لك عذابُك وعذابهم. ولن يجرؤ أحدٌ على الاستمرار في الكلام.

من فاس إلى الرباط. عاصمة الثقافة الحديثة. والمؤسسات الثقافية

الجديدة. يا لهوْلِ ما أصبْتُ بِهِ في الرباط، بين دُعَاةِ الثقافة الحديثة! أنْتَ تنحازُ للثقافةِ وهُمْ يجعَلُون الولاء بداية الكلامِ ونهايته. والسيّدُ ـ المؤسسةُ يحمل في يديْهِ سوْطاً وسيْفاً. وانْطِقْ بما تُؤمَرَ أو لكَ العذاب. أفعالُك مؤامراتٌ. اعتراضاتُكَ جسارةٌ تلطّخُ وجْهَ السيّدِ ـ الطاغية. يتعدّدُ السادةُ حسب المراحل والعهود. السوط والسيف أمامك. يهدّدُكَ مرّتَيْنِ بالقتْل. أجل. بالقتْل. هذا الحديثُ جداً. الطاغيةُ إِلى حدِّ الجنون. ومثقفون يروْنَ إِليْكَ ويفرُّون أو يصمتُونَ.

لم تكُنِ الوَحيدَ ولا كنتُ الوحيد. لكن رُبّما اخترتُ مواجهةً أقوى لأحافظَ عليْك. أيُّهَا الصديق. في حرية لا تنخذلُ ولا تتنازَلُ أو تندم. بالسوط والسيف. في الصباح والصباح. عهْدٌ بكامله لسيادةِ تقاوِمُ حرية شبيبةٍ قالت. لا. لم أكن أعتقِدُ، أيها الصديق، أنّي ألقيتُ بك في محرقةٍ لا نجاة لك منها. عفوَكَ أيُّها الجسدُ الصديق. فأنا لم يسْبِقْ لي أن قرأتُ عن كُتّابٍ يدّعُون الدفاعَ عن الحرية فيما هم يسْلخون من كانَ منفرداً بالكتابةِ وحْدَهَا. وبالثقافةِ وحْدَها. هؤلاء الذين حصروا مهمتهُمْ في تقويضِ النفوسِ الواثقة مِنْ دفاعها عن حريتها.

ذلك العذاب عاجزٌ أنَا وأنْتَ معاً عن قياسه. كانَ الانتحار أهونَ عليّ. وعليْك. في كل لحظة. خارجَ البيْتِ وداخلهُ. كأنَّ المحرقة ملازمةٌ لك ولحركةِ أنفَاسِك. لا يفهمونك. حقّاً. لا يفهمونك. ولنْ يفهموك. أبداً. على أنهم يملكون من وسائل القهْرِ والإذلال ما لم يتوفر عليْهِ السابقون في مجتمعك الصغير. في فاس. ادخُلْ إِلى المؤسسَةِ الثقافية وستعلم مآلك. إنْ كنتَ واضحاً. مثلي. مُوَاجِهاً. مثلي. ولا بأسَ إن أنت لم تجرُؤْ على القول. عديدون صمتوا واستسْلَمُوا ليظفروا بأوْهَامِ الرحمة.

في الرباط نصبوا المقصلة. غلَقُوا عليْكَ الأبواب. لتُقْتَلَ وحدك. القريبون صامتون أو محايدون أو متآمرون. والبعيدون يتلذّذون. بكَ أنْت. وبكبريائك الجميلة. برأسِ صديقكِ التي تقتفي المقصلةُ آثارَها. من الشارعِ إِلى العمل إِلى المطبعة إِلى اللقاء الثقافي. وهم يتلذّذُون. بوحشيتهم. بسقوط الرأس على مائدتهم. كل مساء. وكل صباح.

(5)

أيها الصديقُ. في الكتابةِ تجلّيْتَ صديقاً. أنا شاهدٌ على ولادتِكَ عبر الكلمات وهي تشطحُ هذا الصباح. تملي عليّ عذَابَكَ. عذابي. ومن كان أسبق منّا في الوجودِ؟ سَلْ سِرَّ الكتابةِ وهو يتقدّمُ في بياضٍ يظلُّ بياضاً. أنت. وأنا. معاً. كُنّا في اللافَهْمِ نجرّبُ حظَّ اختراقِ ما ليْسَ كتابةً. وما ليس شعراً. في مجتمع النهْش العلنيِّ. مؤسساتٌ تستبدُّ به. لينتفي الذاتيُّ فينا.

لن يفهموك. ربّما لأنّي لم أخُنْ مُتَخَيَّلي عن الكتابة. في مغربٍ أقوى مِنْ فهْمِي. ربما لأني تأكّدتُ من أن المسألة الثقافية والكتابية في المغرب جماعيةٌ أساساً. ربما لأني كنتُ مستغرقاً في حرية شعراء وكُتابٍ وفلاسفةٍ وفنّانين عبر تاريخ أُمَمٍ وحضارات. ربّما كانَ ذلك طريقة أن أتشبث بالحياةِ بعد وداعِ السيدة.

الكتابةُ والصداقةُ دلّتاني على منعرجاتِ المقاومة. أغنِي مواجهةَ ما يلغي الثقافة وضرورتها. أتعلّمُ كيف أكتبُ. من أخطائي أعيد التجربة. وتجنّباً لها أصاحب السراديب. أغامر. صداقاتي العربيةُ، خارج المغرب، كانت حمايتي. وبيروت ملتقى الصداقاتِ. أنتَ. وأنا. معاً. ننتعشُ بقوّتِهَا. على هامشِ الرباط. وفي أرخبيل الكتابة. بين الماء والماء.

31. وهذا المَرَضُ

(1)

لم يكُنْ كافياً أن أتعوّد، منذُ الصبا، على جسدٍ نحيل، وأن أكْتُمَ عوارض أمراضٍ لا تعثُر على من يَرْعَى الكشْفَ عنها. الجسد سليم على الدوام ما لم يَسْقُطْ. وما لم يبلغ الاضطرابَ الحاد لوظائف الأعضاء. جسَدُ الطفل، الذي كنته في الخمسينيات، هو الجسد المسلّمُ للحجّامِ والفقيه. للأوّل حانوتٌ في بَابِ السّنْسْلَة قرب الرصيف، وللثاني بيتٌ أوْ جامِعٌ عبرهما يُعرَضُ عليه جسدي للعلاج. وكانَ عليّ انتظار بعْضِ سنوات لأكتشِفَ الطبيب معَ عيادته والصيدليةَ بأدويتها المصنوعةِ بالطرق التي كنتُ أجهلُهَا.

والجسد يقاوِمُ لكي يسْقُط في لحظات مفاجئة. كان الدُّوار أغلاَهَا. جسد يتلاشى في غفوة السديم. ثم لا ينام. ملامِساً جبْسَ الحائط. والدوار. والتلاشي. تيارٌ باردٌ. قلبٌ يجفُ. عرقٌ على الجبهة. ولا صوْتَ لكي أصيحَ أو أصرُخ. أطْوِي الركبة بحذرٍ شديد لتكون الأرضُ متكئي. أو أحياناً أسقُط بكاملي بغيرِ وعيٍ منّي. ثم اصطدامٌ بين برودةٍ وحرارةٍ من القدمين يَصْعد. اصطدامٌ بينهما يتصاعدُ. والقلبُ جافٌ تماماً. عتمةٌ تغشاني. صمتٌ. وحدةٌ لا يبصرني فيها أحدٌ. أقواسُ نجوم. وسقف يهوِي.

جسدٌ مهدّدٌ بالسقوطِ. ولا يشتكي. بذرةُ مقاومةِ الصوت بمفردها كانت تصدُ إعلاناً عن السقوطِ الذي يتكدّرُ. وكلما اندمجتُ في الجماعي تقلّصَتْ مراقبتي لحدودِ التّعب. كذلكَ كانتْ علاقتي بجسدي مستسلمةً لشبْهِ إهمالٍ أو

جفاء. ما كانت تطالبُ به الكتابةُ جسدي في نهاية دراستي الجامعية أصْبَح مضاعفاً. والشروع في فِعْلٍ ثقافيٍّ كان يعْنِي نسْيانَ الجسد كلية. تغذيةٌ وراحةٌ. خطوةٌ أولَى. وها هي بذرةُ مقاومةِ الموْتِ تحجبُ عنّي تبدُّداً كامناً تحت الجلد.

الليالي والنهاراتُ. السنواتُ والعمرُ. ما أتْفَهَ أن تقيسَ عمرَكَ أنت الذي لا تتساوى حياتُك مع حياةِ غيرِك! شرقاً وغرْباً. حديثاً وقديماً. هو الزمنُ يقضِمُ عظامَكَ. يُعدّدُ أشلأَكَ. ولن تلتفتَ للحكماء. العقلُ السليمُ في الجسْمِ السليم. وهَلْ أنا طالبُ عقْلٍ؟ لي الجروحُ. الرضوضُ. التعبُ. الوقتُ الذي لا وقْتَ لهُ. ومواقدُ النار في الرأس. والعينان الغائرتان، في النهاراتِ والليالي.

(2)

أتلعثم كُلَّمَا هيأتُ صدْرِي للكلام عن الشاعر أو الكاتب في المغرب الحديث. كلامي عن مستحيل الشعر والثقافة. عن السابق على قيمة النص. عذاباً وآلاماً. نادرون من ينصتون، عبر العالم العربي، وفي المغرب أيضاً. هل هناك ضرورةٌ حقّاً؟ جسدُك يتشقّقُ أمام ناظريْك. هذا حديث عن جسد مريض. ونحن نُعلي من الكلام عن الأفكار. أمّا حُطامك. ونسيجُ الشريان المتبدد. فلا شأن لسواك بها. أغثني يا عزيزي الشابّي.

من أين يبدأ تحديثُ الثقافة المغربية؟ الأجوبة تندفِعُ بقوّةِ الشلاّلِ وانجرافِ الأتربة والصخور. ضَعْ يدكَ على جوابٍ تستهين به لتحرق النيرانُ سائرَ الجسد. وأنت تائه تستغيث بمن خبروا الاحتراق في ليْل المستحيل. من أين يبدأُ ما يجب أن يبدأ؟ ويتندّرون من هذا المعتُوهِ. ساخرين. يستعجلون حكماً ويمضون تحْتَ أقواسِ مجد. وأنتَ رداؤك اللعنة.

هذا المغربُ القاسي. وهذا المشرقُ القاسي. أنتَ بينهما أشلاء وحطام. ابْحَثْ عمّا تقي به جسدك مِنْ قسوةٍ لم تمْسُسْ جسدَ أسلافك، وهم يرتدون الجلبابَ والبرنوسَ والعمامة. هادئون. مطمئنون. لا أسلافَ لي بين طلبة القرويين سوى الذين استوْلت عليهم لوثةُ الثقافة الحديثة. شعراً وأدباً. تاريخاً وأفكاراً. ليسألوا عن بدايةِ ما يجب أن يبدأ. ثم لا يدومُ السؤال. ينتصر الفقيه على المثقف. والسياسي على الثقافي.

عقود والسؤال هو ذاته. للجيل الجديد. من أين تكون البداية؟ التكوين الثقافي والشعري؟ الصحافة؟ الكتاب؟ الجمعيات؟ المطابع؟ الترجمة؟ السفر إلى خارج المغرب؟ البحث عن المصادر المجهولة للثقافة المغربية؟ حرية الحساسية الجديدة؟ اللقاء بالمثقفين؟ تعلّمُ اللغات الأوروبية؟ البحث؟ الفنون؟

السؤالُ عمّا لم يعُدْ مقنعاً هُوَ البدايةُ. وفي الجسد ينشأُ السؤال. لغة الخلايا إشارةٌ. أصواتُ مخلوقاتٍ تصرخُ في مناطق التفتُّت. وفي حنجُرةٍ مُدمّاةٍ يسْتولي عليّ تلعثُمٌ. أنا المهاجرُ من فاسَ نحْوَ عالَمٍ يظلُّ بعيداً عنّي. يبعُد حتّى التلاشي.

(3)

سأُلاحقُكِ أيتُها النوارِسُ في مداكِ البحْرِيّ. سأنحرفُ عن تربةٍ صمّاء. أطْلَنْتِيسُ. أطلنْتيسُ. أيُها العجوزُ ـ الصبيُّ. الصبيُّ ـ العجوز. والنوارسُ في دمائي. على الطريق الشاطئية بين الرباط والمحمدية والدار البيضاء. هل هو خطُّ المصير؟ أوه! كيف يكون لنا مصيرٌ نحن الذين لم نفرح بعْدُ برؤيةٍ مغايرةٍ للإنسان فينا. وللأشياءِ حوْلنا ومَعَنَا. وللكون الراكض كأفراسٍ عربيةٍ لا نراها؟

أجْرِي. مع أفرادٍ قلائلَ من جيلي، بين اتهاماتٍ. وأغوالِ تهديداتٍ. من أجل الفرحِ بعربيّةٍ حديثة. في مغرب لا يأبهُ بذلك. أنْسَى جسدِي. في الجانب الخلفيّ. مِنْ حطامي. ألاحِقُ الأطلنتيس. وتعلّمْ ألاّ تطلب شيئاً مِنْ غير ساعديْك وساقيْك. لا تطلب شفاعة ولا رحمة. بين الرباط والدار البيضاء انْحَشِرْ في التوقيت المضادّ لزمنك. واجْرِ. دائم الجري.

مطبعةٌ منشغلةٌ بأوراقِ صناديق الطماطم المصدّرةِ تقول انتظِرْ. والورقُ المفقود يقولُ لك انتظِرْ. وجمع الملازِم بالطريقةِ اليدويةِ يقولُ لكَ انتظِرْ. وأنْتَ تقيمُ هناك لتبدأ بما ترى أنه أوجب ما تبدأ به. تركتُ السماءَ والنباتاتِ في فاس. دافِناً جسدِي بين جدران وآلاتٍ فاسدةٍ. بين نفوس ساخرةٍ. وأخرى تهدّدُك. لأنك مجنونٌ بعربيّةٍ وبثَقافةٍ حديثةٍ وبحرية لا تنتظر من يهديها لك على صحْنٍ مِنْ ذهب.

(4)

هذا الجسد. أشاهد سقوطه في أحد صباحات فبراير 1979. رِجْلٌ. وساق. وظهر. ما للرجل ثقيلةٌ؟ بأيِّ سكّين تتقطّعُ أعصابُ الساق؟ ومن أين هذه الحرارةُ التي تتَقِدُ في الظّهر؟ جسدُكَ يسقط أمامَكَ أيها المجنون. يخونُكَ في الطريق بين الحياةِ والحياة. أنْتَ الذي تتحدّى المجتمع كيف لك أن تتحدّى الطبيعة؟ لمْ تسأل يوماً عن حدودِ الطبيعةِ فيك. وها أنْتَ كائنٌ من ألَمِ. وساقٍ لا تتحرّك. وظهرٍ لا يسْتَقِيم.

الطبيعة تعنفُ بكَ وأنْتَ مِنْ مستشْفًى إلَى مستشفى. ليجفّ الدّمُ في أعْلَى عظْمِ الساق. رجْلاكَ كسيحتان. بيديْك ترفع الرجْلِ مع آلامِهَا. ووصية الطّبيب بملازَمةِ الفراش. والنّفسُ لا تريد. السريرُ يرغمك على التمدد حتّى لا يتفتّتَ العظْم. عكازتان خشبيتان بهما يعيد جسدي تكوينَهُ القديم. واللّيْلُ الذي يتحوّلُ إلى نهار. الرجْلُ الثابتةُ في مكانها. والأعصابُ. أعصابُ الساقِ التي تهْزلُ. الشلَلُ يبلُغُ الوجْه. وعنفُ الصمت. في النهاراتِ والليالي.

جسدٌ يسقط مرّةً أولى ثم يتوالى السقوط. بين الرباطِ والمحمدية والدار البيضاء. هذا الأبيضُ الذي أصْبَحَ بي محيطاً في المرض أكتشفُهُ من جديد. بذلةٌ. إزارٌ. سريرٌ. أبيضُ سأكتب فوْقَهُ قصيدةً. لنفسي. عن ذلك المبضع. وأولئك المرضى الذين توحّدتُ بهمْ في السُّهاد. وأولئك المرضى الذين يفتحون علينا بابَ الغرفة لينبئونا بمَنْ في الصباح ماتوا. أجسادٌ مشوّهةٌ وصراخ. مَنْ جاءتْ دورتُهُ لينغرس في جلده المبْضَعُ فلهُ المخاوف. أدعيةٌ. وحكايات.

الأبيض. السرير. عدمُ الحركة. الصمت. والعظْمُ الجافُّ مهدّدٌ بتفتُّتٍ لن يقيني من السرير. عكازتان خشبيتان. وأنا شاهدٌ على سقوط جسدي. شاهِدٌ لنفسي على نفسي. سأقرأ بياضَ السقف. بياضٌ لا نجُومَ ولا سحابَ في أحشائه. بياضٌ ينخفِضُ ويَعْلُو. مرآةٌ لما بقِيَ مِنّي. في هجرةٍ من أجْلِ الحُطام. والرّجْلُ تذكّرني بما فعلت بها. صدفةٌ أم نتيجةٌ؟ أنصت لآلامِ أقاومُهَا برياحين الزهر والورد. في هذه الليْلَةِ واللّيالي الآتيات.

(5)

صدفةٌ أم نتيجةٌ؟ كثيراً ما تأملتُ في هذا السؤال. تحت السقف الأبيض. الصمت. وأنا ألازِمُهُ. سنتان. بقايا الجسد المريض في جسدي. سؤالي. أطرحه على نفسي. مهتدياً بالحالة نفسِها. مبتعداً عن جسد الرومانسيين وأمراضه. لعلي أعثر على جوابٍ أسافِرُ من خلاله إلى حالات أجْسَادِ كُتّابٍ مغارِبةٍ ومغاربيّين. وهم يدافعون عن حقِّهِمْ في الحياةِ والكتابة. تاريخ نهجرُهُ بحُكْمِ إلغائنا للجسَدِ. في نسق معرفةٍ تطفو على سطْحِ النهاراتِ والليالي.

هذا المرض ينقلُكَ مِنْ جسَدٍ إلَى جسد. وفي ذوْبِ الشفافية تقتربُ منه. إنَهُ كيمياءُ كتابةٍ وحُبْسةٍ وحياةٍ. بينهما تعيش. تنصت لجفَاءِ هذا الكاتبِ وهجاءِ ذلكَ الشاعر. أنتَ العدُوُّ دائماً. أنتَ المنتظَرُ الخلاصُ منْهُ دائماً. ناسين رسالةَ عبد الحميد الكاتب عن التعاطفِ بين الكُتّابِ والتآلُفِ بينهم. هذا المرضُ يتفشّى في جسَدِ مجتمع ثقافي غرير بأوهامه. باحث عن الانتصارات السريعة بين خرائب النفوس.

لم يفاجئني هذا المرض. بل فاجأني تأخُرُهُ وتباطؤُهُ. هلْ كان للْجَسَدِ ما يخفيه عَنّي قبل السقوط؟ وقبل السرير الذي يحتضن جسدي؟ رُبّما كان هناك شيءُ ما، أجْهَلُهُ. في السرّ يتكوّنُ ويضيءُ. بين فاسَ والمحمدية. بين الحياةِ والحياةِ. يضيءُ على عتبة منتصفِ النّهار. هناكَ أتلعثَمُ. ويدي على بداية ما يجبُ أنْ يكونَ البداية.

32. سَافِرْ
لتقْتربَ مِنْ أنْفَاسِك

(1)

حمّى السّفَر حُماي. منذ أن تكشّفتْ لي فَاسُ مستحيلاً للكتابة. بدايةُ السّفَر كانت في القراءة التي عثرتُ عليها في غير الخطاب المغربي. كنت بذلك أقتفي أثرَ الجيل السابقَ علي. والجيل الذي قبله. حيثُ ارتبط السفرُ بالتحديثِ الثقافي. كما لو أن هؤلاءِ السابقين عليّ تأكدوا من ضرورةِ السفر ليتعلّمُوا ما يقود خطاهم إلى ممرّاتها الخبيئة. بين القاهرة ودمشق وبغداد. طريقٌ أخرى لثقافة أخرى حديثة.

جغرافية السفر مغربية أيضاً. لعهود قديمة وحديثة في آن. الأندلس والمشرق. وابن بطوطة يبحث عن مداه اللانهائي. أنا الفاسيُّ المراهقُ نشأ بدخيلتي إحساس خاص بالسفر. القرويين مجرد فضاء هجرتُهُ المعارف الملازمة لاستمرارية الحياة. وفاس تفْتقد ما يسمح لها أن تكون حديثة. لي أن أسافِرَ. في الكتب والصحف والمجلات. ثم لي أن أسافر. لا مشياً على الأقدام. بين مدريد وباريس ولندن. ثم من بلد عربيّ. من جهة الشرق. إلى بلد عربيّ.

أسلافي. أيُها الأسلاف. طريقُ حجّكُمْ كان هو نفْسُهُ طريق معرفتكم. الشرعُ نهايةُ المعرفة. ثُمّ اللغة. والنحو. والبلاغة. والمنطق. ولكن في فاس كان اللقاءُ مرّةً ثانية. تفيض القرويين بمائها وعلمائها. القادمون إليها قادمون. حتّى من أوروبا. وفي القرويين تتحدّدُ مسافاتُ المحلّلِ والمحرّم. الممكن وغير

الممكن. مع ذلك كان الشعراءُ يهاجرون. ليتعلّمُوا حرية الشعر. يتيهُونَ. ولا يعُودون إلاّ نادراً.

من الكتب الحديثة أخذتُ أرْسُم جغرافية السفر. وكان الغربُ سابقاً. باريس أوّلاً. ثم لندن. وبينهما مدريد. على طريقِ القطار أنثرُ أنْفَاسي. وأسافر. كنتُ أختارُ طريقاً غير معتادةٍ للسفر. بالنسبةِ للمعرّبين. وفي فاسَ كان كلُّ شيءٍ يبدأُ بإضْرَارٍ مجنون. وأسافر. هذهِ المرةَ سأسافر. بغية الاقترابِ منْ أنْفَاسي. ليْسَ لي طلبُ مجْدٍ أو امتياز. بل طلبُ اقترابٍ حُرٍّ من الآخرِ الذي أعرفُهُ من كتب أولى. دواوين وفلسفات. وفاسُ تأمرني بالسفر كما يأمرني الغامض الذي يسكن الكتابة. هكذا تحزم أمتعتك الخفيفة لتنتقلَ من هاجرةِ فاسَ إلى دكنةِ باريسَ ولندن. من قطيعة ثقافية مع القرويين إلى إنصات مكينٍ لثقافات تتوالى حرياتُها ولحظاتُ ميلادها. وأنتَ تسافِرُ. بمتاهك. وفقْرِك. ليس لديْكَ غير أنْفَاسٍ طائشة. كأنها الريح. كأنها الدم. كأنها وشومٌ تحتفظ بآلامِ وخَزاتِ الإبْرَةِ المُحمّاةِ. والجسد الموشومُ لا يعرفُ اليدَ الواشمة.

(2)

سفرٌ. ليكُنْ. ثُمّ اتّسَع السفر. بصُدْفةٍ ربما. نحْوَ الشرق. كما اتّسَع نحْوَ الغرب. بينهما كنتُ المتمرّدَ والمطيع. العزيزَ والذّليل. المقتحمَ والمنكفىء. الفرِحَ والمكتئب. تعارضاتٌ تعصفُ بي. لأني بتاريخي أسافر. أقصد تاريخي الثقافي. لي. أنا الفاسي. المغربي. المتورط في عربيّةٍ أبتهجُ بجمالها. وأعشقُها متكتّماً. أو متعلّماً من غيري مسالك البوح.

هل كان لي أن أسافِرَ من دون هذا الشوق؟ أو هذا الذي يقرّبُني من أنفاسي؟ بلا تحديد أحياناً. مُغفَلٌ. وأنا أتْبَعُ أمْرَهُ. لم يكن ذلك يخطر على بال أبي. منذ أن قال للفقيه، على عادة المغاربة: اقْتُلْ أنْتَ وأنا أدْفِن. والآباءُ القساةُ لا يتوقّفُون. يتوالدون في القيْظِ والزمهرير. اقتُلْ وأنا أدفن. أكاد كلَّ يوْم أسمعُهَا تتردّدُ. في الصحافة. في اللقاءات. وفي الصداقاتِ التي ليسَتْ صداقاتٍ. اقتُلْ وأنا أدفنُ. لا يتوقّفُون. أطاعِنُ خيْلاً. وأسافرُ. لتقتربَ الأنفاسُ مِنَ الأنفاس. في السفر تسْتَفْرِدُ بالوحدة. بين طرقاتِ الغربِ والشرق. لا نجاةَ مِنْ أمْرٍ صادرٍ بحقّك على الدوام، بل لأنّك تسافِرُ في ألَم حريةِ كتابةٍ وحياة.

وأنتِ أيتُها الكلماتُ. لِمَ تُبطئين؟ سأكتب بأصابع قدمِي إن هيَ أصابع يدي انسحقَتْ. سأكتبُ بصَمتِي إنْ هيَ أصابع قدمِي احترقتْ. سأكتبُ عن هذا السفر الذي أعطى لنفسي درْعاً وريحاً وغمامة. وأسكنني في البحث عن فضاءٍ لا يشبه أسوار الضريح الوحيد لأنفاسي. لأسْتَسْلِمَ. ذرّةً. فذرّةً. لأقبّلَ يديْنِ قاسيّتيْنِ. لأُسمّيَ الحجرَ غمامةً. وأتآلفَ مَعَ اليقين.

أسافِرُ في الغربِ لأقرأ الشرق. وأسافِرُ في الشرْقِ لأقرأَ ما يتضاعفُ مِنْ حُطامي. أحياناً كنت أردّدُ: هذَا الشرقُ مسْكَنِي غير أنّي فيه أتذكّرُ تاريخ إقصائي مِنَ الشرق. وفي الغرب كنتُ أردّدُ: هذا منْفَايَ فإذا برحمةٍ مَا تلفنِي وتقذفُ بِي إلى حيثُ جسَدِي يتّقِدُ قناديلَ وكواكبَ لا تَنْتَهِي. إلى أيْنَ أسافِرُ إذن؟ شوْقٌ واحِدٌ يكْفِي للسّفر. وأنْتَ بين متاهتين.

كنتُ كُلّما هممْتُ بالسفر أحسُّ بنفسي الخفيفَةِ تنتصِرُ عليّ وتسْعَى على أعشابٍ لا تفارُقُها الطيوب. سأرْتَقِي سفحاً بأنْفَاسِي. سأشُدُّ باليديْنِ على صخورٍ وأحْجارٍ مسنّنةٍ ليضحَكَ الجذعُ. وفي انحدَارِ الأعَالي سأنْثُر مَا تبقّى مِنْ دمِي. سفَرٌ إلى شرْقٍ يؤاخيني. سفَرٌ إلى غرْبٍ يهَبُ لي ما ليْسَ استبْداداً في الغرْب. وكلّما ارتفعَتِ الطائرةُ طافتْ بي الظنونُ. لأيِّ شرْقٍ أنْتَ مُسافِرٌ؟ لأي غرْب؟

(3)

تاريخٌ بكاملِهِ يُسافِرُ معي. علماءُ وشعراءُ ومتصوّفَةٌ يسافرون. تحت جلْدِي يسافرون. يرى بعضُنَا إلى بعْضٍ. والصمتُ أخِي. ما أعرفُهُ عن صمْتِ هؤلاءِ وأولئكَ قليلٌ. والصورةُ مثبّتةٌ أمامي. من أحياء فاسيّةٍ متداخلةٍ يسافرون. طرقُ تازةَ أو وزّان. ثم طنجةُ أو وجْدَة. وتمبوكتُو خطٌّ آخر لسفر دوّنَهُ النادرون. العصورُ تتمازجُ في السّفَرِ الواحد. ولي شأنٌ بكل ذلك. مع هذا فأنا وَحْدِي. مَرْمَاي جهةٌ مجهولةٌ. وسفَرِي تقْصُر مدّتُهُ. بضعةُ أيّامٍ أو أسابيع. ثم أجدني راجعاً إلى نقطةِ انطلاقي. ذهابٌ وإيابٌ يتكرّرانِ. ليتكرّرَ المتاهُ والمجهولُ. في الجهَاتِ وفي نفسي.

في البلادِ يرى إليّ الآخرون بمتخيّلِهِمْ عن أسلافِي. قد أبْدُو حكيماً مغربيّاً. أو أبْدُو جاهلاً بالعربيّة. أو أبْدُو ببرنوسٍ وعِمَامة. أو أبْدُو متكلّماً

ببزبريّةٍ. أو أبْدُو قادِماً مِنْ أرضٍ لا أحدَ يعرِفُها. وفي الحالاتِ مجتمعةً أبْدُو ما لسْتُ أنا. هذا يكفي ليسْخَرَ مِنْكَ أحدُهُمْ أو يبالِغَ في إيلامكَ كما لوْ كنتَ فريسةً منتظَرَة.

كان عليّ، إذن، أنْ أحتاط باستمرار. أتحاشَى مَنْ لا أعرفُهم. فأنا أريدُ الاقترابَ مِنْ أنْفَاسي. من خلال صداقاتي الكريمة في القاهرة وبيروت وبغداد أو صنعاء. معهم بمفردهم يصبحُ إنصاتي مُنعِشاً. ومعَهُمْ يتحوّلُ الشرقُ إلى جُزْءٍ منّي. يسمحون لي بالكلامِ وبالانفجارَاتِ. السؤال عن المغرب يمكن أن يكون في الآن ذاتِهِ سؤالاً عن المشرقِ أيضاً. بدون تردُّدٍ. هناكَ أوْ هُنَا. ما الذي نستجمعُهُ لتشْرَعَ المعرفةُ في الاشتغالِ؟ علامات مُبهمةٌ أو مسالكُ أفاجَأُ بهَا. وأنا قريبٌ مِنَ الرّوْشةِ أو متأمّلٌ في النّيل ودجلة. صداقاتٌ تعرجُ بي إلى أنْفَاسي. والجهاتُ لم تعُدْ مُعْتَقَلةً في كتاب. إنها تاريخٌ يتّسِعُ لحوارٍ وهواءٍ وانفلاتِ قدمٍ تبحثُ عن كتابتها في بعثرةِ الجغرافيات.

(4)

الشرق أم الغرب؟ المهم أن تعثر على مكانٍ تقتربُ فيه من أنفاسك. حريةً ومعرفةً. لكن الشرق يوماً بيوْمٍ يضيق. تمزّقاتٌ تحتدُّ لتحتد. ذلك الشرقُ يتسرّبُ من بين خلاياكَ إلى هاويةٍ مشتركة. تنغلق الثقافاتُ على ذاتها. بُعْدُكَ العربيُّ يكادُ يتحوّلُ إلى وهم. في المطارات تتعرّى آدابُ الضيافة. وإلى الغُرَفِ الخلفيّة يأخذونك لاستنطاق مُشين. أنْتَ صِنْوُ مجرمين ومهربين. شبهتُكَ دامغة.

إلى أيِّ شرقٍ ستسافر في عهْدِ القتْل؟ وريْبةِ العربيِّ من العربيِّ؟ ما الذي تبقّى من شرقِكَ القديم؟ طه حسين مشنوقٌ على أبْوابِ الخرائب. جبران خليل جبران مقيّدُ اليدين تحت أرزةٍ مُفَحّمة. سلامة موسَى شحّاذٌ في مقْهَى الفيشاوي. كُتّابُكَ أيُها الشرق بألمهِمْ يتنادوْن. وأنا أهربُ منَ الشرقِ مُسافراً في الشرق. والدمِ. والغبار.

غربُكَ الذي يشدُّ بقبضتيْهِ عليْك هو نفْسُهُ مكانُ التواصُل والتعاطف. في الغرب منْفَى أصدقاءِ شرقك. باريس أو لندن. والنفوسُ المتساقطة كُلَّ صباح تتجنّبُها بحثاً عن غرْبٍ يتوارَى خلْفَ الغرْب. هناك تقتربُ مِنْ أنفاسك وأنْتَ

تضيع. آداب وفلسفاتٌ وفنون. من أجل هذا الحوار الصعب والممكن معاً. لسْتَ بحاجة لتقول أنا منك الشرقُ أو الغربُ حتّى يجالسَك شاعِرٌ أو كاتبٌ أو فنّان. يتبادلَ وإياكَ الإنصات. لا تكترثْ بي كثيراً أيُها الغرب. لا تصدّقْ شيْئاً. فأنا عربيٌّ قادم من المغرب.

(5)

سَافِرْ في سفرِكَ. أسْفَارك. وأُدْرِكُ أنّ السّفَر في السّفر هو بدايةُ الرحلة نحو الآخر والذات. هذا الشعرُ الذي تبحثُ عنْهُ سؤالٌ قبْلَ أن يكون جواباً. في السفر تتّضِحُ التلاقياتُ التي عادةً ما تشوّهُهَا معرفتنا الشبحيةُ بالغرب. وفي السّفَرِ أيضاً أتعلّمُ كيْفَ أكونُ عربيّاً خارجاً على العروبةِ المريضة.

سافِرْ في سفرك. وقاوِمْ مستحيلَهُ فيك. حوْلَك. أنت الذي أدركت أن السّفر منفذك إلى الحياة. والكتابة. أحياناً أحسُ، وأنا أصعد مدرج الطائرة، بأنّي أتخلّصُ من كابوس قديم. قديم جداً. أسمعُ من كان قبْلي يحرّضُني على السّفر. سافِرْ في سفرك. يقول لي. أصعد الدرج لاهثاً أو دائخاً. لا ألتفِتُ حوْلي. لأنّي إلى هناك أُلقِي بكاملِ أنْفاسي.

جسدي يرغبُ في سفرٍ غريب. يفتنُنِي قليلاً. أوْ يقربُني من أحيائي وأمواتي. سفرٌ بدون عودة إلى هذا الكابوس. في أمكنةٍ تجْهَلُ الجغرافيات. أمكنة أسْندُ رأسي على أبوابها. وأتوه. في معرفة سعيدة باختلافاتها. شرقاً وغرْباً. لا شرْقاً ولا غرْباً. وفي السفر، بدايةُ أن تكون.

33. كُلُّ شيْءٍ لِلْقبِيلَة

(1)

كانَ عليَّ أنْ أكتشِفَ القبيلةَ كَيْ أُدركَ أنّ كلَّ شيءٍ للقبيلة. تلك هي العتبة المفاجئة التي اصطدمتْ بها قدمي، وأنا مُشرفٌ على الانتساب إلى المجتمع الثقافي في الرباط. عن بداية السبعينياتِ أتحدثُ. والعَنَاءُ قليل. إنَّهُ الانتقالُ من سلطةِ مدينةٍ تنهَارُ إلى سلطةِ مدينةٍ تنشأ. من فاسَ إلى الرباط. وهذا المختفِي بين بياض الكتابةِ في عصرنا العربيِّ الحديث يداهمكَ مِنْ غير تأجيل.

القبيلة. أيُّ رُعْبٍ تُصاب بِهِ، وأنتَ تَسْعَى نَحْوَ العالَم بمُتخيّلٍ مُدَججٍ بالحرّيةِ والفرديةِ والجمال! القبيلة. كلمةٌ واحدةٌ تكفي، لتقويض انغراسِ الذاتِ فيك. ونُضج خِطَابٍ رافضٍ للاسْتبدادِ والإجماعِ. رُعْبٌ لنْ يسْرِي في كاملِ أعضائك إلاَّ إذا كنتَ خارجَ القبيلة. أنا الذي سمعْتُ، في صباي، عن المذابح بين حزب الاستقلال وحزبِ الشورى، وجدتُ نفسي، وجهاً لوجْهٍ، أمامَ القبيلة.

إذن. لنْ أنَام الليلةَ. واللّيَالي التي تلي الليلة الأولى. لنْ يَنامَ كُتّابٌ وأدباء. لَنْ تنامَ اللغةُ العربية. لَنْ تنامَ الألُفةُ والمودّة. لَنْ تنامَ الحرية. لَنْ ينامَ زمنٌ ثقافيٌّ. وفي الأرَقِ المحجُوبِ، لَنْ يَرَى أحدٌ أحداً. لُغةٌ حاجبَةٌ. خطاباتٌ. ندواتٌ. صُورٌ. وأنت. من بعيد. لا ترَى إلاَّ حريتَكَ وفرديتَك عبر سطُوعِ الجميلِ في اللّغةِ الحاجبَة.

ونحْنُ مِنْ أهْلِ الكتّابِ والحجَاب. ما لسْتَ أنْتَ حجاب. وما أنْتَ

حجاب. ونحنُ من أهْلِ آدابِ الحجَابِ أيْضاً. ازْدَوِجْ في كلامكَ حتَّى تكونَ محبوباً. أقصدُ. حتَّى تعيد إنتاجَ اللعبةِ بينَكَ وبيْنَك. بيْنَكَ وبيْنِي. وفي الحجابِ يكْمُنُ السرُّ. حجابٌ أوْ قبْوٌ أوْ ديماس. واعْتَنِ بشؤونِ الحجاب. اجْعلْهُ على قلْبِكَ كيْ تصْفُوَ حياتُك. علَى وجُوهِ الآخرينَ بورْدةٍ باركْهُ. واسكُنْ إليْهِ.

للقبيلةِ حِجَابٌ مِنْ لُغةٍ أو ما يرْقَى إِلى مرتبةِ اللغة. وأنْتَ مفتونٌ بلغةِ الكشْف. تريدُ للأشياءِ لمْساً وللعلاقاتِ رنيناً. مندفِعاً بعُنفوانكِ المكبوتِ تهجُمُ على العائلةِ. على العتبة يفاجئك الحجاب. والحاجب. والمحجُوب. كلماتٌ تدورُ بسرعةِ رياحٍ شرقيّةٍ. وأنْت. على العتبة. وها هيَ الأدلةُ والرموزُ والعلاماتُ واضعةٌ لكَ آدابَ الحِجَاب.

(2)

خرجْتُ على العائلةِ وأنا في بيْتِ العائلة. تمرّدْتُ عليها باختيار اسم آخر. حمّاد. نجاةٌ من سيادةٍ ليْسَتْ لي. وبمجرد ما أدْلِفُ إِلى البيْتِ أُحيِّي برودَةَ المجَازِ وجبْسَهُ الرماديَّ بتأثير مِنْ بقايَا ضوْءِ الشمْسِ المتسرّبِ إِلَى عتمةِ المجاز. أنصتُ للماءِ المتدفّقِ مِنْ أساطيرِ صُنْعِ القنواتِ في عهْدِ بني مرين. وفي وسط الدارِ أُسلّمُ على شجرةِ الخوخِ وشجرةِ الليمون وشجرةِ البرتُقّال. أُلقِي ببعْضِ أعضائي إِلى الصهريج. ثم أصْعَدُ الدُرجَ المزَلّجَةَ بقدَمين راقصتين. شراجِبُ أُطلُّ مِنْهَا على الضوْء. والجبْس. والعُلُوّ القريب مِنَ السّماء. وفي لمْحِ البصر أُغلِقُ عليَّ في غُرْفتِي المعلّقةِ بين أزمنةٍ برُمّتِهَا.

بهذه الحركاتِ كنتُ أتمرّدُ على طقُوسِ الطاعة. والحشمة. والعيْب. ولي وخدتِي. في الكتب حريّةٌ لا حدّ لهَا. أكوانٌ وعوالِمُ وحيوات. لَنْ أحْلُمَ بغير حريتكِ أيّتُهَا الكتابة. ولوْ في فاسَ التي لم تبْقَ فيها من حيويةِ الثقافةِ سِوَى آخرِ المكتبات. وأنا أقرأ بحسرةٍ دائمة. أقرأ. وفي القصيدةِ يكونُ اختبارُ المسْتَحِيل. أعْتَقِدُ أنّهُ اختبارٌ يتِمُّ في القصيدةِ وهجْرتِهَا. مغرباً ومشرقاً. أبْيَاتٌ لامتيازَ لِي فيهَا.

هذه اللحظَاتُ الأساسيّةُ لانبثاقِ ذاتٍ متمرّدةٍ. وتربيّةٍ ثقافيّةٍ للتمرُّدِ كأفُقٍ لحياةٍ لا تشبه ماضيها. إنها لحظاتُ المتاهةِ بين ضيِّقِ الأزقّةِ وبين لعبة الضوْءِ والعتمات. أكادُ أشُمُّ كلَّ خُطوةٍ بين المخفيّةِ والصفّارِينَ وعين عَلُو والطّالعَة

الصَغِيرة وسيدي أحمد الشَاوِي وزقاق البغل. أكادُ أشمُ كُلَّ خُطوةٍ في جغرافيةِ المتاه. والزنقَاتُ تركُضُ في شراييني. الكلماتُ تَستَوْلي على الزنقاتِ بجَحِيمِهَا. وأنَا على مقرُبةٍ مِنَ المسَاءِ. سَالكاً بين القشّ والغبار.

(3)

عتبةُ القبيلة. ألهذَا تُسَلّمُنِي الكتابة؟ من فاسَ إلَى الرباط؟ ومن حريةِ الكُتبِ إلى مؤسّسَاتِ الكتابة؟ هَلْ هذا مآلي حقّاً؟ أتمرّدُ على مُجتمعٍ وتاريخ من أجْلِ عتبةٍ. فلا أكْتَشِفُ غير القبيلة. وأيْنَ أسْلافِي الذين زوّدُوني بحقّي في التمرُّدِ والعصيان؟ ومَا لهذِهِ الكتاباتُ تتمرّدُ ثُمّ تحجُبُ القبيلة؟ تقبَلُ بذُلّ لا تكْتُبُه؟ ما سرُّ هذِهِ السّطوةِ التي لا مَرَدَّ لَهَا؟ بأسٌ شديد. وطاعةٌ عمياء. والقبيلةُ منتصِرةٌ بصمْتِ الخاضعين لها.

هل حريةُ الكاتب وفرديتُهُ مجردُ ألفاظ؟ أو ألفاظٌ شقيّةٌ بازدواجيةِ دلالتها؟ ولي أن أحفِرَ السديم. جسَدِي يُغذِي الكتابة فيما الكتابةُ تُغذِي جسدي. ولن أخون. تاريخٌ ينتصِبُ أمامي. أُمَمٌ وحضارات. أفرادٌ تائهون. هذِهِ الأخوةُ في الكتابةِ والحريةِ لا وطنَ لها. والكتابةُ وطني الوحيد.

هَلْ قُلْتُ شيئاً لم يُصرّحْ بِهِ غيري؟ أبداً. فقط، أقتفي أثراً لأتشبّث بحريةِ خارج كُلِّ قبيلة. ومع ذلك فإن قولاً كهذا هيّأ لي ما هيّأ. منذُ بدايةِ السبعينيات. من فاس إلى الرباط. والقبيلةُ منتشِرَةٌ وسيّدة. حتّى أصدقاؤك. القريبون. سمّوْا قبيلتَهُمْ. وحاكموك.

كيف تحافظ على حريةِ الكتابةِ ولا تستَسْلِمُ لبَأسِ القبيلة؟ ذلك هو السؤال الإشكالي الذي لَنْ أتخلّصَ منهُ ولرُبّما لَنْ يتخلّص بدورِهِ مِنّي. لكنّ السؤال بحدّ ذاتِهِ شبهة: كيف تقابِلُ مبدأ الطّاعةِ بالسؤال عن شرْعيةِ المبدإ؟ هنا يكمن منجَمُ التعارضاتِ الكبرى بالنسبة للباحث عن الكتابة بالعربية في المغرب، وتأكيداً عبر عموم العالم العربيّ.

(4)

العينيُ أسْبَقُ. في المغرب. والعربية. وتعارضاتٌ تنتسِبُ لبنْيَةٍ ثقافية تُسمّي نفْسَها حديثةً وما هي بقديمةٍ ولا حديثة. إنها وضعيةُ الثقافةِ والمثقّفين في مجتمع

فِقْهِيّ وتقليدي معاً. مهما تبدّلَتِ الأسماءُ والمرجعياتُ والأساسيات. كل هذا يثبت حداثتنا المعطوبة.

قبيلتنا سياسيةٌ. والثقافةُ ملغاةٌ من مشروعها. بمعْنَى أنّها مضادّةٌ للثقافة في منظور حديث. خلاصةٌ مأساويّةٌ. وإنّها لكذلك. خُذْ مِنَ الشعْر ما تُزيّنُ بِهِ الأمسيات. تعلّمْ من الفكر والفلسفة كيف لا تقرأُ ذاتك ومجتمعك وتاريخك ومؤسّسَاتِك. ثم افْخر، بعد ذلك، برولان بارت. أوْ ميشيل فوكو. أو جاك ديريدا. أوْ هبرمَاسْ. أوْ إيزرَا باوند. افْخرْ بِهِ حين يُصْبِحُ امتيازاً في مُجْتمع أمّيٍّ وحين يُصْبِحُ ألفاظاً ألفاظاً. والراسِخُ يرسُخُ فيكَ وبكَ. ثُمّ أنْتَ. مَنْ أنْت؟

قبيلتُنا سياسيّةٌ. هي الامتدادُ للعصبيّاتِ المريضة. بيدِهَا شؤونُ ثقافةِ المعارضَة. وشؤون الثقافةِ بكل اختصار. لأنّها المستقطبةُ للنُّخبة، الكاتبة بالعربية أساساً. أما الرسّامُون والكاتبون بالفرنسية والمسرحيّون والموسيقيُّون والمغنّون فلهُمْ وضعيةٌ مختلفة، بحكم طبيعة بنية القبيلة ومؤسّساتها. الصحافة هي العنصر المهيمن. والصحافة اسمٌ فقط. هي منشوراتٌ حزبية قبل كل شيء. بذلك تستولي على الشبان وآخر الكهول. والسلطةُ تتّسِعُ إلى اتحاد كُتّاب المغرب. والجامعة. والأسفار الثقافية. واستقبال الكُتّاب العرب. دائرةٌ مُغْلَقة. ختْمُ الشمْع رصاصيٌّ. والألفاظ ألفاظٌ في دائرةِ الحِجَاب.

لن تزدادَ النّفْسُ إلاّ رُعْباً. ولكنْ أيْن الثقافة؟ أين الإنتاج الثقافي؟ أين أسْلاَفي وأحفادي؟ أين المعرفة؟ أين المغرب؟ أين الإبداع؟ عبثاً أنْ تسْأل. فتلك مهمة القبيلة السياسية. إلْغَاءُ الثقافة. تزيين الأسْوَاق بأخْبَارِ كاتبٍ مُشْتَاق. والذاتُ بعذَاباتها. واللعبة محجوبة.

(5)

كيف تتجرّأُ على النُّطقِ بمَا تكْتَشِفُهُ؟ خِطَابُ المعارضة مُوَجّهٌ ضدّ المؤسساتِ الرسمية. وضدّ قبائل مصنّفة ضمن اليمين. اللغة بسُلطة الإيديولوجيا ناطقةٌ. جاهِزٌ عن جَاهِز. وأنْت؟ وأصدقاؤك؟ ووغدُ الكتابة؟ وصباحُ الحرية؟ وقدَرُ أن تكُون أو ألاّ تكُون؟ وغياهبُ الصمت؟ والحاجبُ والمحجُوب؟ أكُلُّ هذا، دفعةً واحدةً. من أجل الكتابة. وحريتها؟ أكُلُّ هذا. جزاءُ تمرُّدِك على

مجتمع. وقيم. وثقافة. ورؤية. وحياة؟ كيف أستبْدِلُ عبوديّةً بعبوديّةٍ. بلْ كيف أتمرّدُ على عبوديّةٍ رحيمة مِنْ أجْلِ عبوديّةٍ لا خيار فيها بين الطّاعة والسّوْطِ أو السّيْف؟

وأنْتَ المخلوقُ من كلمة الحريةِ. المخدوعُ بالطقُوسِ الأُولى للنقيض حولك. أنتَ الذي أحرقْتَ سُفُناً وسُفُناً من أجْلِ حرية أن تكتُب. أنت الواصِلُ بيْنَكَ وبيْنِي. ها هي عتبةُ تفاجئك. في مغرب السبعينيات. لم يُخبرْكَ بها أحَدٌ في كتاب. هي هناك. عندها الطاعة أوالصمت. الصمتُ أو الموت. بي يطوفُ صامتُون وميّتُون. ولي شيْءٌ مِنْ مآلِهِمْ. والكلماتُ تُضفِي. واللّبَاقة. والديمقراطيّة التي تخشاها السلطة. وأنْت. في الغياهب. والسّوْط. والدم. مثقّفُو المعارضة يتناوَبُونَ علَى جلْدِك. القبيلةُ بمثقّفِيها. يجلدُونَك. وفي الغياهب. أنت. وهذا التاريخ. الذي. لا. يكتبه. أحَدٌ. ولا. أحدَ. يجرؤُ. على. تمزيق. الحجَاب.

34. أحْجَار

(1)

لِمَ لاَ أمجّدُ الأحجَاز. حتّى تَبْتَلّ العين بالزُّرْقَةِ. والصمتِ. والنشيد؟ لِمَ لاَ أسْكُنُ إِلَى الأحْجَار؟ عشقاً. ومنفى. وعبُوراً. ونُسْكاً؟ لِمَ لاَ أسافِرُ إِلَيْهَا. وفيها؟ هذه الأحْجَار. عادة ما تختفِي عن العين. وفي وحدتها تقيم. منفصلةً عنّا. هاربةً في مساحاتِهَا المتبعثرة. بين الطبيعةِ والحضارة. بين المدنّسِ والمقدّس. وبوحدتها تقاومِنُا جميعاً. لِمَ لا أختارُ مكاناً لأرَاهَا. مهشّمَةً. ملْسَاءَ. منقُوشةً. مرميةً. مضمُومةً. خارجةً منَ الريح. والماء؟

هذه الأحْجَار. وحْدَهَا. في صباح مطريّ. وسحابٌ خفيف. يتدافعُ في الأفق. ليختلِطَ بالبحْر. وبالنّوارسِ التائهة. وبزوارقَ لا عِلْمَ لي باتّجاهها. صدْرٌ يسْقُط في العتمات. لعلّهُ صدْرٌ ستتضاعفُ برودتُهُ. وإلَى الحشرَجاتِ سيمْضِي. بغير إِرادةِ منّي. أحاول الإمساكَ به. ولكنّ الأصابعَ لم تعُدْ أصابِعِي. إنّهَا هناك. تلْمسُ الأحجار. تتحسّسُ سطوحَهَا. تُتَابع ضرباتِ النقّاش. بحركةٍ متوازنةٍ. تترُكُ على الحجَرَةِ عيْناً. وجُهْداً. وتعباً. وعضلاتٍ تتمزّق. ودماً. في صباحٍ يتكرّرُ. كأنّهُ يحافِظُ على إيقاعِ أبديّتِه. وهبُوبِ الأنفَاسِ. حارّةً. مِنْ جهَاتٍ مجهُولةٍ.

لتكُنْ هذِهِ الأحجارُ. أحجاري. رقيمٌ يُسِرُّ إليّ بغضاً مِنْ هيرُوغليفيّتِهِ. وَلاَ أكترثُ بغيره. أحسُّهُ مُترقرِقاً. سائلاً. يكْسُوني بأشباحٍ. والوقْتُ أخي. هل هذا يكْفِي؟ أجَل. يكْفِي. تتّسِعُ العين. لتشْرَبَ ابتدَاءَ الصّمْت. منَ البحْرِ.

والشّعَاب. والسُّهوبِ. والهضَاب. ومنابِعِ الشّمْس. لم أعُدْ أقْوَى على الاستسْلاَمِ لضجيجِ المُدَّعين والمتحذْلقين. فقطْ هذِهِ الأحجار. وابتداءُ الصّمت.

شكراً أيُّها الصباح. سأصاحبُكَ إلى حيثُ تبتَلِيني. مِنْ حجَرٍ إلَى حجَرٍ. تلْكَ عذُوبةُ أنْ تَرَى. وتنصتَ. إلى سُكركَ. لا بفعْلِ نبيذٍ. بلْ بمجرّدِ أن تلْمسَ الأحْجَارَ. وتنذهِلَ بأشباحِهَا. راقصةً في جسَدِكَ. تقطُر. وتغذُبُ. تُملي عليْكَ نحْوَهَا. ومُعْجَمَهَا. عابثَةً رُبّمَا. هاجعةً رُبّمَا. خلائقُ في الخلاَيا تتواصَلُ. والعراءُ أفُقٌ أبيضُ. أحجَارٌ. مُطمئنّةٌ. لنفْسٍ يتعذّرُ عليْهَا الاطمئنَانُ. في الأوْقَاتِ كُلّها.

(2)

قادتْني فاس إلى مُصاحبة الأحجَار. عبر سُور المدينةِ الحجريّ. حَجَرٌ وعجين التراب المخلوط بالملح. والأسوار تحرسُ المدينة. مراصِدُ تتخلّلُ الامتداد الخطّيَّ للسُّور. ثُمّ تنهدم الأسْوَارُ، بفعل الزمن أو الحروب، فلا يبقى سِوَى الحجر. يمكنُكَ أن تلْمَسَهُ وتمرِّرَ بأصابعكَ على بقايا أصابعِ البنّائين ودمِهِمْ. للبيوتِ حيطانٌ مبنيّةٌ بالآجُرّ الطازج في أفْرَانِ الفخّارِينَ، قريباً من باب الخُوخَة.

هي الأحجار الأولى التي تراءتْ لي الأبديةُ على سطوحها. يفوحُ الآجُرُّ هو الآخَرُ بعطر أبديته. وأنت تصطدم ببيْتٍ من عهد بَنِي مرينٍ أوْ بنِي وطّاس. إنّكَ عابرٌ فقط. أما الآجُرُّ فباقٍ هُنَا. قبْلكَ وبعْدَك. مع ذلك. تظل الأحجارُ متمسّكَةً بالأبديِّ فيها. خارجةً من الرياح والماءِ. جارحةً سماءَ نسيَانِها. ولك أن تلْهُوَ قليلاً بصمْتِك. وبساقيْكَ الخفيفتين وهما تخترقانِ الحشائشَ من أجلِ صمْتٍ يلْمَسُ الأحْجَار.

بابُ الحمْرَا كان مجاوراً لبيْتِنَا. نصِلُ إليْهِ من ناحية مدرسةِ العدوة، أيام الدراسة. أو نصل إليْهِ عبر رَاسْ الزّاوية. هذا الممرّ المعتم المسكون بالماءِ ووجوه جنّيات يتحدّثُ عنها الجميع ولا أحدَ رآها. بابُ الحمْرَا. مكان لما يتاخِمُ البيوت. وهناك مقبرة أهْلِ العدْوة. في نهاية المقابر ترتفع الأسوار. حارسةً أموات المدينة وأحياءَها.

مسرعين، يعْبُر النّاسُ بابَ الحمْرا. واثق من أنَّ الأحجار لم تكن على الدّوَام مقصدهم. أنا أيْضاً كذلك كنْتُ. فوق المقابرِ أو على جنباتها كان عربيدون ومقامِرُونَ يقضون نهارهم. يسخرون من المقابرِ والأسْوَار معاً. من الجهة الخارجية لا أحد. الأحجارُ وأشجارُ الزيتون والأعشاب والصمت. كُلُّ الأزمنة تنتسب لهذه العناصِر. وأنا أحسُّ أوْ لاَ أحِسُّ بهَا. مِنْ أيْنَ جاءتْ هذِهِ الحجرةُ؟ أي يدٍ نحتتْهَا؟ كيْفَ وُضِعَتْ في السُّور؟ كَمْ مِنْ مرّةٍ سقطَتْ ثم أعيدتْ إلى مثيلاتِها؟

(3)

لي هذَا الصباحُ. إذن. وأنا. وجهاً لوجْهٍ. أمام الأحْجَار. عيْنَاي عليْهَا. أتفرّسُ فيها. سطوحٌ متراميّةٌ بنتوءاتِهَا. قُل إنّهَا بَسيطةٌ تنشأ للتّو لكي لا تفْنَى أبداً. لها ما يكْفِي من الحيادِ واللاّمبالاةِ كي يعجز أي فناءٍ عَنْ إبادتها. هي ذي وحْدَها. هذه الأحْجَار. والبَحْر يحافظُ على عُنفِهِ. أمواجٌ تتعالى كما لو كانتْ تكبيراً لشكل جناح حمامَةٍ يهوي ليعْلُوَ مِنْ جديد.

جسَدِي فاجأني هذا الصباح. فاجأني حقّاً. عيْنَاي تريَانِ إلى الأحْجَار وتستلذّانِ إطالةَ الرؤية. أوْ المرورَ من الرؤية إلى الغفْوةِ. جسدي الذي يفاجئني هو نفسه الذي كان البارحةَ لا يُحسُّ إلاّ بأفكارٍ تتصارَعُ في أحْشَائي. لي اليومَ عيْنَان. وأحْجَارٌ. وأنفَاسٌ أرمُقُهَا تنفتحُ وتنغلقُ. ما كان يقيّدُني يذوبُ في تواصل صمْتِ هذا الصباح.

جائزٌ أن تكون عيْنَاي متعبتين. أحجارٌ. واختلاطُ بعْضِ أنْفَاسٍ ببعْضٍ. رؤيتي للحجر نسيْتُها تماماً وأنا أهتمُّ بالمصيريِّ في الثقافي والتاريخي ـ الاجتماعي. وعودةُ الحجَر إلى سكون العينين هي عودةٌ مريبةٌ. تلْك حالة عودة لحنٍ أو أغنية مضَى عليهما زمن في علاقتنا بهما. ثم يُوغِلاَن في اكتساحِ جسدك. ذاتَ هنيْهةٍ. من غير أن تفطن بذلك. بل قد يكون مِنْ صِنْفِ ما أصبحْتَ تمجُّه.

والبحرُ لا يقنعُني تماماً بما حدثَ لي هذا الصباح. من الريح والماءِ تخرجُ الأحجار. ولكن البحْر وحْدَهُ لا يكْفِي من أجْل كُلِّ هذا الاستغراق في الرؤية.

حَجَرٌ. أحْجَار. بين شاطىء سيدي عبد الرحمن بالدار البيضاء ومانيصمان بالمحمّدية. أرخبيل من الحجر. أكوانٌ تتدافع. وأنا لا أجْلِسُ تحت شجرة. في استغراقِ الرؤية حكمةٌ مَا. ومِنْ أين لي بالحكمة؟ هناك في إيران، مثلاً، شيخٌ تظلّله شجرةٌ. بجانبه امرأةٌ فاتنة. قنينة خمر. والطبيعة تحيط بهما. تلك صورة الحكمة التي نبلغها في فترةٍ متقدّمةٍ من العمر، علَى الطريقة الإيرانيّة القديمة. وما حَدَثَ لي هذا الصباح مخالف لذلك. عيْنايَ على حجرةٍ. والحجرةُ سطوحٌ. نتوءاتٌ. درجاتُ ألْوانٍ. شروخٌ تكادُ أن تكون ملْسَاء. حجرةٌ ثابتة في الرمل. لنصفها العُلْوِيِّ خرومٌ. وبياضٌ متأصلٌ في عناصرِ التكوين الأولى. وعروقٌ دقيقةٌ أو شاحبةٌ. رنين لكما معاً.

(4)

أمام الأهرام. في منتصف الليل. يتضحُ كلُّ شيء. أغني يتحوّل إِلى طوفان من الإِحْسَاسَات المنفلتة باستمرار. أتحاشى اللقاءَ بالأهْرَام نهاراً. للّيْل سراديبُهُ التي تفضِي بي إِلى السكينةِ القُصْوى. الأحجار هنا ليْسَتْ أحجاراً. هي صروحٌ. أنْفَاسُ خلائق وأمم. وبصعود عينيْكَ نحوَ الأعْلَى يتضاعف الصّمْتُ. إنها، وحدها، سِرَاطُ الأزمنة إِلى أبديّتها. من يجرؤ على تكذيب الأبدية في ليْلِ الأهراماتِ وشرُوقِهَا؟

تلك الأبديةُ الملساء. على سفوحِ الإهْرَامَات. لا أسْعَى إِلى كرامةٍ. أنا واقِفٌ في صمْتٍ يَسِيلُ مِنْ أحْجَارٍ منحوتةٍ. ومِنْ أعضائي بكاملها. أستلِذُّ صمْتَ الأحْجَارِ وصمْتِي. أحْجَارٌ مستطيلةٌ وضخمةٌ. أحجارٌ بلوْنٍ واحدٍ. وكل واحدةٍ تُفسِحُ لغيرها حتّى تَعْلُوَ أكْثَر. تنجذب أكثر نحْوَ نقطتِهَا الأخيرةِ في عُلوٍّ هو نهايةُ التوازُنِ. فارغةٌ هذِهِ الأحجارُ. وأنا في الصمت.

لا رحمة أوسعُ من فراغٍ كهذَا. خلاياكَ تنحلُّ. أنْفَاسُك تصْفُو. والدمُ. الذي هو دمُك. يظلُّ محفُوفاً بكَ. وبإخْوَتِكَ. في نحْتِ أحجارٍ. ليْستْ أحجاراً. هيَ توافداتُ أنْفَاسٍ. عضلاتٌ قادرةٌ على الصباحِ والمسَاءِ. عنْدَ هذِهِ الأحْجار. وسراديبهَا الشمسيّةِ أو القمريّة. لديْك أنتَ. هبُوبٌ عليْكَ التبس. وأنْتَ ترى إِلَى الأحْجَار. واحدةً واحدةً. في الأهراماتِ. ارتفعتِ الأحْجارُ خطّاً مائلاً وصارماً. والنقوشُ نحتٌ آخَرُ للأنْفَاسِ في هذا الصباح.

(5)

كانَ عليّ أنْ أتأمّلَ ما حدَثَ. آنذاك. في بدايةِ الثمانينيات. وأنَا أطمئنُ إلى الأحْجَار. في صباحٍ يبْدُو لي أبديّاً بدوْرِهِ. عندما استوْلتْ عليّ الأحجَارُ. مرّةً أخرى. أحسَسْتُ أنّ ما يفاجئني بهِ جسَدِي ليْسَ الحجَر ذاتَهُ لتلْكَ المراهقةِ البعيدةِ ولا الحالةَ ذاتَها. هناك ما يمكن أن يُؤذِنَ بميلادٍ جديدٍ لجسدي. أو لعلاقتِي بالأشْيَاء. وبالعالَم. بالكتابة وباللغة. وما هُوَ قادِمٌ مِنْهُمَا إلى حيْثُ أقِيمُ في هذه الناحية، التي اسْمُهَا المحمدية.

ضرباتٌ لنحْتِ الحجَارةِ. خزٌّ أخْضَرُ لامِعٌ بين حجرةٍ وحجَرةٍ. رماديٌّ متموّجٌ. طبقاتٌ من الريح والماء. هذه الأحْجَار. أحْجَاري. أنظّفُها بفُرْشاةٍ جافّةٍ. محافظاً على رمادِهَا. وفي الكثبانِ الرمليّةِ أزرعُهَا. مُنتقِلاً بِهَا مِنْ سفْحٍ إلَى سفْحٍ. والأُفُقُ يَنْحَدِرُ من هذه الوشُوم المعلّقةِ بأنْفاسِهَا. لنْ تحتاجَ هذه الأحْجَارُ إلى مَنْ يدُلُّهَا على توازُنِهَا. إنّها الأنْفَاسُ مبعثرةٌ. والريحُ تحرّكُ حبّاتِ الرّمْل. بارتفاعٍ قليلٍ. سأتْبَعُ خطّ مَسَارِكِ أيّتُهَا الأحجارُ. فأنْتِ السّنَابلُ. والفراشاتُ. والمتَاهَاتُ. التي أضيءُ بها مسافة حيرةٍ. هيْهَاتَ. أنْ تمْضِي.

35. سَعادةُ البَاشَا

(1)

هي حروفٌ متعارضةٌ شكّلتْ كلمةً. كلمةً تركيةً تماماً. هاجرتْ إلى المغرب مثلما هاجرتْ كلماتٌ أخرى، ثم نسيجٌ من الكلمات التركية التي أصبحتْ حاضرةً في الحياة المغربية، الحضارية والإدارية. رغم أن الأتراك انهزموا على أبوابِ وجدة، في الجهة الشرقية المحاذية للجزائر. هناك ظل الجيشُ وظلتِ الأسلحةُ والخيامُ والأعلام. علّمَهَا المغاربةُ أنْ تبقَى هناك. ترَى يائسة إلى الهضابِ الشرقيّةِ وبابِ تازةَ وفَاسَ وجبالِ الأطْلسِ ومرّاكش وما بعْدَ مُرّاكش. ظلُّوا هناك، هؤلاءِ الأتراك، متحسرين على إمبراطوريتهم الناقصة. وعلى أعلامهم اليائسة من الارتفاع فوق التراب المغربي.

والمغاربةُ المحارِبُونَ للجيوش التركية هم أنفسهم الذين استقبلوا كلماتِ تركيةٍ بمدلولاتها. يطعّمُون حياتهم الحضارية والإدارية بالخبرةِ التركية. لا يتأخرون في ذلك. على هذا الحال كانوا. وسيكونون. تأثيث البيوتِ وتجميلُ الألبسةِ وتنظيم الإدارة. اللونُ التركيُ يرافقُ الألوان المتعاقبةَ على المغرب. منذ الفينيقيّين والرومان. وهيَ جميعُها تتكيّفُ مَعَ المحلي أو يتكيّفُ معها. مشيئةُ ذلك كيمياءُ عسيرة عن الإدراك الدائم.

الطربُوش. البابُورُ. الجبدُور. كلماتٌ كانت تَشِمُ فضاءَ طفولتي. في بيْتِ العائلةِ وبيوتِ الأقارب. وليْسَ ضرورياً أن تعرف الأصول. نتعاملُ مع الأشياء التركيّةِ بكلماتِهَا. نتبادلُ العلاقةَ معها. ولها دلالةٌ على الأوضاعِ الاجتماعية المتوسّطة أو العليا. باستثناءِ الطربوش الذي يغْني الحداثة. أناقةُ الطَربوش تتخلّى

عن عهْدِ العِمَامة. الطربوش أحمرُ قاتِمٌ. في القطّانين يباع. متْجَرٌ يتوفَّرُ على المقاسَاتِ كُلِّهَا. هو المنتِجُ والبائع في آن. ولم أسْعَدْ قطُّ بالتعرُّفِ على آلاتِ وطريقةِ الصنع. في الأعياد والحفلاتِ يَنْشِطُ المتجر. وصاحبُهُ خبيرٌ بقياسِ رؤوس زبنائه. طربوشٌ لكلِّ فاسيٍّ حديث.

(2)

كانَ عليَّ أنْ أترصّدَ أخبارَ خارج البيْتِ لأسْمَعَ كلمة الباشَا. إنه الحاكِمُ. الصّنديدُ. المتجهّمُ الوجه. الماكِرُ. الوقحُ. المُهِين. وصاحبُ البَطْشَةِ الكُبْرى. الباشَا التّازِي والبَاشَا الكّلاوي. اسْمَان لهُمَا ما يكْفي من الرُّعْبِ في العهد الاستعماري. ولم يحدُثْ لي أن اقتربْتُ من صورةِ الباشَا إلاّ مِنْ خلال الأوصافِ المتداولة لهما بين النّاس. الحاكمُ الفرنسيُّ والباشا. الجنودُ السينيغاليُّون والبَاشَا. ورعْبُ الباشا يفُوقُ رُعْبَ جيْشٍ بِكامله. إنّهُ الذي عيْنُهُ لا تنام. القادرُ على كُلِّ شيءٍ. يأمُر بالعذابِ. والعتروسُ. الجلاّدُ. ينفّذُ الأمر أمام الباشا. ورُعْبُ الباشا مُنتَشِرٌ كالطّاعونِ في كلِّ زاويةٍ. من زوايا المدينةِ. دروباً وبيوتاً.

بقليل من الجُمل والأخبار تركّبتْ عندي صورةُ الباشَا الكلاوي، في مُرّاكش. ولم يكن التّازي. باشا فاس. يمتلك الشخصية ذاتها. الكّلاوي. القاسي حتى الإبادة، هو ذاتُهُ المحبُّ للمعمار المغربي وبذْخِهِ حتّى الجنون. هو ذاتُهُ الذي يلْبَسُ في باريس بدلةً أوروبية ويختارُ عشيقاته مِنْ بين راقصاتِ البالية في أوبرَا باريس. أو هو الذي يحجز طائرةً خاصة بنقل أوركسترا باريس للعزْفِ في مُرّاكش. أو هُوَ صاحِبُ جائزة لجَانِ التحكيم الأرْبَعَة التي يفوز بها كاتبٌ بالفرنسية. أعْنِي أنّهُ الشخصيّة المزدوجة. لها الجلبابُ والعِمَامةُ والسّوْطُ والسّفْكُ والعباداتُ والحريمُ والرّقَابُ مع المغاربة. لها الأناقةُ الباريسيّةُ والحاشيةُ الفنيّةُ والثقافيّةُ والأنبذَةُ المعتّقَةُ واللّبَاقةُ والبلاغةُ والعِشْرَةُ الجذّابةُ معَ الفرنْسِيّين. إزدواجيةُ الداخِلِ والخارجِ. الذاتِ والآخرِ. القدَامَةِ والحداثةِ. الفتْكِ والتّسامح.

(3)

كذتُ أنْسَى صورةَ الباشَا في مراهقتي. وما زلْتُ أتذكّر تلك الصورَ المعروضةَ للبيْع على الورَقِ المقوّى بظهْرِهَا الرّماديِّ الخشنِ وهي تثبتُ الباشا الكّلاوي جاثماً على ركبتيْه يقدّم الطاعة لمحمّد الخامس في فرنسا ويطلبُ منهُ

العفو. يقبّلُ الأرْضَ بين يديْهِ. مستسلماً. نادماً على تعاونه مع الاستعمار في تدبير نفْي الملك ومبايعة العلماءِ وشيوخ القبائل لابْنِ عرَفَة، الذي أصْبَح مَلِكاً في فترةِ نفْي محمد الخامس إلى مدغشْقَر.

كنْتُ أنْسَى تلْك الصورةَ واسمَ الباشَا. في مراهقتي. حينما أصبحْتُ منشغِلاً بالشعْر ومُهْتمّاً بالموسيقَى والقراءة. ثم بقضايَا الإنْسَان والجَمالِ والحريّة. على قدْرِ مُرَاهقَتِي. بين ظَهْر المهرازْ والمخفيّة. الكتبُ والأوراقُ (أو الدفاتر) والأقلامُ والإسطواناتُ كانتْ أدوَاتي المفضلة. كانتْ أشْيَائي التي أصْنَعُ منْهَا عالماً لأخيلتي. بانْسِجَام مع ذلِكَ كانتْ صداقاتي محدودةً. فالعُزْلةُ مبتغايَ. وفيها أعثرُ على حريّةٍ لا ينَازعُني أحدٌ فيهَا.

بمجرّدِ ما شرَعتِ النّصُوصُ في اقْتِسَامِ ملْكيتِهَا. عبر النّشْر. ثُمّ في العلاقةِ معَ المجتمعِ الثقافي. وحضُور العمل الجماعي. وبروزِ المؤسّسة. انبثقَتْ صورةُ الباشَا من جديد. لا مِنْ خِلاَلِ الجُمل والأخْبَار ولكن في الملموس. اليومي. وجْهاً لوجْهِ. وها هُوَ الباشَا يظْهَرُ لي. أنَا الذي كنْتُ أنْسَى صورةَ الباشَا المخْزَنّي.

هُوَ ذَا الباشَا الثّقَافيّ. خَزرةُ العيْنين. تلكَ هي العلامةُ التي تلخّص وجه الباشَا. مرسومةٌ على الجبْهَةِ والحاجبين. منغرسةٌ في عيْنيْك. تنفثُ السمومَ بآلامِهَا في جسَدِكَ بجميع أعضائه. ولا تدركُ سبباً واضحاً لتلْكَ الخزرة. ثم ذلِكَ الغضب الذي يتصاعَدُ من الكلماتِ وتحْريكِ اليديْنِ إلى الأعْلَى وباتجاهِ وجهك. تختلطُ الكلماتُ بالإشارات. في عُنفٍ وعدوانيّةٍ لا مُبرِّرَ لهُمَا. أو هي تتناقض مع ما كنتَ تقرأهُ لصاحبِهَا.

سعادةُ الباشَا. عشْتُ لأحْظَى بصورةِ الباشا. أيْضاً لأحظى بعذابي على يديه. هو التقدميُّ اللّبِقُ الأنيقُ المزدوجُ الثقافة. الحامِلُ لمشاعِلِ الكفاح ضدّ السلطة. المتصالح معَ جميعِ أصْنَافِ المصالح. هكذا عشْتُ سنواتٍ لأحْظى بسعادَةِ الباشَا. بعُنفِهِ الموزّعِ بين الدّهَالِيز.

(4)

هلْ حقّاً يستطيعُ المثقّفُ التقدميُّ أن يتحَوّل إلَى جلاّدٍ؟ وضارِبِ أعْنَاق؟ كيف يمكن للأدب أنْ يكونَ وصلَ إلى هذَا القلْب؟ وبأيِّ جسَدٍ يدافِعُ عن قيَم هو

أوّلُ منْ يسحقُها؟ أوَكُلّما نطقتُ أوْ فعلْتُ كان سيفُهُ أسْبَقَ مِنْ حركَتِي؟ وكمْ مِنْ قناعٍ يلزمُ هذا الوجْه؟ أم أنّ الأقنعةَ التي رأيْتُ هي مجردُ أوْهَامٍ كذبتْ عليّ؟

سعادةُ الباشَا. تاريخٌ ينحدرُ من الأزمنةِ القديمة ليؤكّدَ استمرارَها وإعادةَ إنْتَاجِهَا. لا مجْدَ إلاّ مجدُ سعادةِ الباشَا. ولا طاعةَ إلاّ له. واحدٌ. أحدٌ. واليدُ التي يكتبُ بهَا عن الحريةِ والديمقراطيةِ هي اليدُ نفسُها التي تجْلِدُ وتقْتُل. ضَعْ رأْسَكَ بين غُفْرَانِهِ فأنْتَ حُرّ. ارْفَعْ كلمتَكَ ودافِعْ عنْ حرّيتك فأنْتَ مطلوبٌ. يُدْرِكك. حتْماً. بعُنْفِهِ الأكيد.

لكَ أنْ تختار الزمانَ والمكانَ لتنْسَى. وهو لا ينْسَاك. في الشوارعِ. في العمل. في المقاهي. في الحاناتِ. في المكاتب. في النّدواتِ. وهو لا ينْسَاك. عُنْفٌ يتجدّدُ بشراسَةٍ أعْتَى. دمُكَ يَسِيلُ وهو يضْحَكُ. جسدُكَ بعُكّازتين وهُوَ يضْحَك. أعضاؤكَ في السّعِير وهُوَ يضحك. سعَادةُ الباشَا.

(5)

كنتُ أقاوِمُ دونَ أنْ أعْلَم أنّي حَقّاً أقاوِمُ. مِنْ بين طبقَاتِ العُنْفِ المظلمة كنتُ أختطِفُ قلماً وأكتبُ. وفي الكتابةِ وحْدَهَا كانَ سِرُّ المقاومة. بعِنَادٍ أتعلّمُ كيْفَ أتعلّمُ الكتابةَ. سعادةُ الباشَا يُنجبُ سعادةَ الباشَا. يتوالدُونَ مدَججين بعُدْوانيّةٍ لَهَا السّمُومُ كلُّها. والكتابةُ لا تعِدُنِي بغير المزيدِ مِنْ عُدوانيتِهِم. عُدوانيةِ سعادةِ الباشَا.

والأصدقاءُ يتخلّوْنَ عنّي. واحداً. واحداً. في كُلّ لحظةٍ يهيّئون المكيدةَ كما يشاؤون. ينصبُونَ الكمائن حيْثُ لا تتوقّع. حتّى المقرّبُون، محايدون. أوْ متواطئون. وأنْتَ كيْفَ تقاوِمُ كل هذِهِ العُدوانية؟ وكيْفَ تفْهَمُ سِرّ الدمار المتواصل لقيمٍ يتباهَوْنَ بالدفاع عنها؟ ومِنْ أيْنَ لنا بمصْدَاقية الكاتبِ والفنّان؟

عبثاً أسْأل. سعادةُ الباشَا منتصِرٌ بتاريخه وحاضرِهِ. وهزائِمُ أمّةٍ وثقافةٍ تتوالَى. أعْلَمُ. ليْسَ ذلِكَ مُهِمّاً. واندحارُ مُسْتقبَلِنَا ليْس مُهِمّاً. والتشطيبُ علَى حرّيتِنَا ليْسَ مُهمّاً. وأنْ نكُونَ أوْ لا نكُونَ ليْسَ مُهمّاً. فقط. أنتَ. سعادةُ الباشَا. وسعادةُ الباشَا.

36. الجَحِيمُ الثّالِثَة

(1)

إنها جحيم رمُوزنا النضالية التي كانت تكتسِبُ سلطة الرمز فوْر الاعتقال. رمْزُ المواجهةِ والفِدَاء. رمْزُ ما يصلُ المقاومةَ القديمةَ بأخْتِها الحديثة. سلْسِلةٌ تحافظ على تقاليد الدفاع عن الحريةِ والكرامة. تلك الرمُوز، تتوحّدُ في شعلتنا الجماعية. من أجل أن نكون، شعْباً دائم الحيويّةِ. أسماءُ تتمزأى لك صَقِيلةً تحتَ أشعة الشمْسِ ونعُومةِ القمر. في الأيّامِ والأيام.

في البدء كنا نسْمَعُ عنْهَا. السّمْعُ وحْدَهُ. ثم انصرفْنَا إلى القراءة عنْها في الكتب النادرةِ. باللغاتِ الأجنبيّةِ أو مترجمةً بتستُّرٍ إلى العربية. تلك الرموزُ تدورُ في كاملِ جسدَنَا مع الدورةِ الدموية. حتى لاَ يبْقَى لنَا غيرها. دمُنَا مخلُوقٌ منْهَا. هي بدْءُ مُعْجَم الحياةِ والحيويّةِ في آن. أناشيدُ ترافِقُها. صوَرٌ تتضاعفُ في العين. ومعرفتُنَا تتفاضل بعددِ الرمُوز التي نعْرِفُهَا سِرّاً. خوفاً من الذين يحاربُونَ ميلاد الرّمْزِ فينَا. ونحْنُ على وعْدٍ معها في الخيالِ والذاكرةِ معاً. في ماضٍ لا يمْضِي. وحاضر ليْسَ بالبَسِيط. حدودُ الزمنينِ تلْتَبِسُ عليْنا. رُبّما لأنّ الرّمُوزَ أقوى من الزمن. تضيءُ دوْماً بالمقدارِ ذاتِهِ الذي لا يَشيخ. السُّحنةُ هي ذاتُها. والأعماقُ العجائبيّةُ الآسِرَةُ لعيونِنَا. إلَيْهَا نلْجأُ، كيْ نرى أبْعَد منْ توجُعاتِنَا. حجَابٌ يُرْفعُ تِلْوَ حجاب. ونحنُ إلَيْهَا سائرون.

رموزُنَا الشّبابيّةُ. الكهْلَةُ. رمُوزٌ نرتدِيهَا لنُشْرِقَ قليلاً. في عتماتٍ لم نخْترِعْهَا. فالطفُولةُ راسخة فينَا مهْمَا فرّتْ مِنْ بينِ أصابعِنَا. والرمُوزُ طفولتُنَا.

هناكَ وهُنَاك. ولكنَهَا هُنَا. حاضرةٌ باخْضِرارها. وشموسِهَا التي تدورُ مع الدورةِ الدموية. مشاعِلُ تنخفِضُ السماواتُ لالْتِقَاطِهَا والدوران بهَا على مقرُبَةٍ منَ الخَلْقِ. نيازكُ أو نجُوم. تسْهَر في أحلامنا ونحْنُ نخطُ ما نخطُ. على ورقةٍ. تتخلّى عن حيادِهَا.

رموزُنَا الأولى. بها قرأْنَا جغرافيةَ الحياةِ. ومصائر الشعوب. وهي تغبُر كلماتنا التائهة معَ أضواءِ وظلالِ الرّمُوز. لنْ يهُونَ علينَا شيءٌ. لدينَا كفايةٌ من الحماسِ والإيمان. بهما نحلُم لنتذكّر. أو نتذكّرُ لنحْلُم. مُتسَارِعَانِ إِلى النّفوسِ. دورةً تدور بنَا. والأهل. والتاريخ. وهذهِ النّحْنُ الساعيّةُ إِلى ثباتِهَا. عند خنادِقَ تصطدِمُ بهَا الخطوةُ والطفولةُ.

(2)

هكذا. إذَنْ. نشأْنَا. جيلاً عارياً إلاّ مِنْ رمُوزِهِ. أسماءُ مغربية. عربيّةٌ. إنسانيّة. حبْلٌ سريٌّ لأُغنيَةٍ تَتّقِدُ أبجديتُهَا في العروق. والشجرةُ تغلُو وتسمُق. تحْتَ ظلالها نتفيّأ. والمدارِجُ مُنخفِضةٌ لترتفِعَ الأقدام. معهَا النّفُوس. معارِجُ منْ طيوبِ الياسمين. مِسْكِ اللّيْل. العطرْشة. الفُلّ. السّوْسَن. من شقّ صدُورَنَا؟ مَنْ أوْصَانَا بشجَرَةِ الرمُوز؟ مَنْ علّمَنَا ذَلِكَ كُلّه؟ وقَذَفَ فيهَا ما قَذَفَ. عشْقاً. وحُلْماً. ويقيناً. وطاعةً. ولوْعَةً؟

قبل الاستقلال كُنّا بحمَاسٍ نُغذّي الطفُولةَ برمُوزِنَا القريبةِ منّا. محمد الخامس الذي ننتظِرُ كل يوم غُروبَ الشمْسِ لنشاهدَهُ مُطِلاً علينَا منَ القمر. إنّهُ منْفِيٌّ بعيداً عنّا في مدغشْقَر. ولكنّ وجْهَهُ قريبٌ منا عَلَى قمَرٍ ضاحكٍ بين الأصابع المشيرةِ وزغاريد النّسَاءِ المتجاوبَةِ بيْنَ السطوحِ البيْضاء. علاّل الفاسيُّ. الزعيمُ المقيمُ في القاهرة. ومع ذلك فالصورةُ متداولةٌ بين الكبار والصغار. جلبابٌ وزّانيٌّ محبّبٌ. لحيةٌ مقصوصةٌ بعناية. عِمَامةٌ. وعينَان مشعّتَان. علاّل بنعبد الله. الفدائيّ الأوّل. يهجُم على الملِك بن عرفة بسكّين. وعسكريٌّ فرنسيٌّ يصدّه من على سيارَةِ الموْكب الملكي.

رموزٌ ثلاثة بها احتمينَا من جنودِ الاستعمار الموزّعين على أزقّةِ فاس وأبْوابِ أحيائها التي تُغْلقُ مسَاءً أوْ لأيّام. رموزٌ سياسيّة وفدائية. رمُوزٌ نضاليّة.

وبعد الاستقلال تعَدّدتْ أسماءُ الرمُوز. مِنْ طارق بن زياد إلى عبد الكريم الخطّابي. مغاربةٌ مِنّا ولأجلِنا. لأجْلِ فضاءٍ تتكَامَلُ فيهِ الحريةُ مَعَ الأمْن. فضاء مغربي تشمُه رموزُهُ كما تشِمُ أهْلَه. أمازيغيّين وعرباً. مشارقةً وأندلسيّين. صحراويّين وجبليّين. بعيدين وقريبين. من إفريقيا وحوض البحر الأبيض المتوسط. رمُوزٌ تنسُجُ أُلفتَنا بالمتعدّد. دون أن ندرك ذلك تماماً. رموزٌ تتركُ على جسدنا انجذاباً نحو المستقبل والماضي في آن. نحن الذين أصبحْنَا مراهقين وحالمين.

(3)

لكن رموزُنا الجديدة. أين رموزُنا الجديدة؟ هذا السؤال يتضمّن البحثَ عن استمرارِ الأبديِّ فينا. كما يدلُّ على نوْعِ الطريقة الذي بِهِ يمكن للرّمْزِ أن يحْيَا فينَا أيضاً. أو مكانُ الرمْزِ في جسَدِنَا. الأبديُّ واللانهائيُّ أخوان. والرمُوز حارسةٌ ومولّدةٌ لهما معاً. لانهائيُّ الإنسان يتعذّرُ أنْ يتحقّقَ في غياب الرموز. في غياب تجدُّدِها. من جيل إلى جيلٍ. ومن زمَنٍ إلى زمن.

ذلكِ هو بحثنا غير الواعي عن رموزنا الجديدة. لضمان اندماجنا في أبديةٍ ولانهائية ننتصر بهما على الآني والنهائي. بحثٌ وسؤالٌ تفجّرَا فوْرَ ما آلتْ إليه أحداث 23 مارس 1965. شبيبةٌ ضائعةٌ بعد الاستقلال. ومآزق الاختيارات التعليمية الأولى بدتْ عنيفةً لنا جميعاً، نحن تلاميذ الإعداديات. تعليمٌ كُنّا نرى إليْهِ مضاداً لما هو مستقبلنا. في جُلِّ المدُن كان التلاميذ رافضين. و23 مارس 1965 سيكون دم الخروج إلى الشوارع لرفض ما يُلْقي بنَا إلى الهاوية. شبيبةٌ غاضبةٌ. رافضة. لهَا الدمُ. كما كان لمنْ قبلها في العهد الاستعماري. دَمٌ ومعتقلات.

استمراريةُ الرمز جاءتْ غُفْلاً. الجماعةُ بدل المفرد. واللامُسَمّى بدل المسمّى. وفي بداية السبعينيات سيشْتغِلُ الرمز ـ التاريخُ. وسنكون أمام وضعيّة كفاحيّةٍ تتكاثر أسماءُ رمُوزِهَا. حتّى أصْبَحَ المعتقَلُ هو الرّمْزُ بحدّ ذاته. لا تفيد واقعةٌ بطوليّةٌ في تعْيِين الرمز بقدر ما يكونُ الاعتقالُ نفسُهُ معْبَراً لميلادِ الرّمز. إنطلاقاً من لحظةِ الاعْتِقَال يشْرَعُ جهازُ الرّمْز في الاشتغال. يولَدُ الاسْمُ. في البدء. ثم الصفاتُ والسلوكاتُ الضرورية لاستحقاقِ التّسْمِية.

لم نكُنْ نتوهَمُ جنّةً للمعتقَل. العذابُ هو أوّلُ ما يحضُر إلى خَيالنا. النهارُ والنّيْلُ. الليلُ والنّيْلُ. وهَا هُوَ محْتَمَل الآلام. صُوَرٌ نقرأ عنهَا في بلادٍ أخرى. أنباء عن الأحوال الصحية. وأثناء المحاكمات نقرأ أيضاً عن العذاباتِ وآثارِهَا. ونحنُ أيْضاً نتعذّبُ لعذابِ غيرنَا. نُعبرُ عن ذلك. مُجازِفين. متمرّدِين. والرّمْزُ يفْعَلُ فينَا فعْلَه. نتضامَنُ. ولا يكْفي. ثمّ نصرُخ. ولا يكْفِي.

(4)

فجأة. حدث ما لم أكُنْ أنتظِرُهُ أوْ أظنُّه. إنّهُ الرّمْزُ الذي يتحوّلُ إلى سيِّدٍ. ناطقٍ بالحقيقة. كاملةً. خالصةً. آمِرَةً. فاعلةً. السيّدُ الرّمْزُ. الشابُ السياسِيُّ، أصْبَحَ مالِكاً للحقيقة. حتّى أولئك الذين لم يفلحوا في تكوين أنفسهِمْ ثقافةً عامّة. أولية. أصبحوا مالكين لحقيقةِ كُلّ شيء. ومِنْ عذابِهِ يُقْبِلُ علينَا العذابُ. هو الآمِرُ به. المحرّضُ عليه.

أصْبحَ السيّدُ الرّمز يُفْتِي في الشعر. والقصة. والرواية. والنقد. والفنون. والفكر. والتاريخ. والعلم. والحُبّ. واللباس. والصداقات. في كُلّ شيء. وعليْكَ الطّاعة. أنا لا أُحْسِنُ الطاعةَ على الدوام. متشبّهاً بخيالِهِ المريضِ عن ماركْس وإنجلز ولينين. يضَعُ الخطاطاتِ اللازمةَ للمعرفة الكليّة. الشاملة. ويأمرك. بل لا يسْمَحُ لك بالكلام. أمامه. أو خارجَ الأمر. كُلّما حرصْتَ على مساندتِهِ كلما عظُمَتْ عبوديتُك.

لم أقْبَلْ عبودية لأكُونَ عبْداً. والتساؤل يتّضِحُ عن صناعةِ الرمز في وطني. الرّمْز السياسي. من الخالِقُ للرّمْز؟ عتبةُ الاعتقال أم غير المعتقَل؟ سؤال وسؤالٌ. ولم يكن لي من القوّةِ ما أعلن به عن الاختلاف. والتعامُلِ معهُ كإنْسَانٍ أوّلاً. أقاسِمُهُ العذَاب. إنْسَاناً لا سيّداً. وهو لا يعْبأُ بصمْتِي. لا يعْبأُ بحرْصِي على حُلْمِنَا معاً. على ضحكاتنا التي كانَتْ تتخلّلُ الكلمات. إنّهُ السيّدُ. وعليّ أنْ أفْهَمَ ذلك.

(5)

قوْلُ «لاَ» كانَ تأكيداً على حريّتي. في الجحيم الثالثة. حيْثُ أصبحْتُ محاكماً مِنْ طرفِ أقرب الأصدقاء. لمجرد أني ملازِمٌ لحريتي. وحرية الكتابة.

لمجرد أني أتأمل الثقافة المغربيّة والعربيّة من مكان آخر. لا يدركُهُ حتماً. بيْنِي وبينَك الزمَنُ. يَا مَنْ كُنْتَ صديقاً وفضّلْتَ استعْبادِي. إلى الجحيم الثالثة ألقيْتَ بي. ليزدادَ السّعِير. وأخْتبِرَ مستحيلَ الشّعر، مِنْ مكانٍ آخر.

كُلُّ شيءٍ مُبرَّرٌ لديْك. الرّمْز يتفتّتُ في الدخيلة. وفي العين. سأشقُّ جبْهتِي لأكونَ شاهِداً علَى دمِي. قولُ «لاَ». وخذَها. كلمة. والسّوْطُ بيَدِكَ لتنضَمَّ إلى غيركَ من الجَلاّدين. صفاتُ الخيانةِ كُلُّها الْتصقَتْ بي. تطارِدُني. وأنْتَ سعيدٌ بما تعتبرُهُ انْتِصَاراً. أفتّشُ عنهُ فلا أعثُر إلاّ علَى فشَلِك. وأوْهَامك. أوْهَام الرّمْز.

والجحيمُ الثالثةُ جحِيمِي. ليْسَتْ مِنْ شأنِك. تفصِلُ بيْني وبيْنَك «لا». وأنْت. تسْتثْمِرُ عداوتَكَ لي. ويزدَادُ مجْدُك. في الأوْهَام. تبرّرُ بما تَشَاء. ليبْقَى الرّمْزُ ملتئماً. في زمَنٍ يتلاشَى فيه حُلْمٌ كان. وكابوسٌ كان. سمّيْناهُ رمْزاً. وكَانَ. يَا. مَا. كَانْ.

37. قُوّةُ اليَأْس

(1)

سيكون هذا الصباحُ. الصباحُ. لي وحدي. سأُسْنِدُ رأسي على آجُرّ فاسيٍّ في تمام القيْظ. لن أفترضَ شيئاً. قيظ فاسيٌّ أو شنقيطيٌّ أو قيروانيٌّ أو بغداديّ. قيظٌ لرأسي. في صباح يتكرّرُ كلَّ صباح. منذ 4 يناير 1984. دوخةٌ لاهبةٌ في الرأس. رأسي. وصباحي بالصمت أسيّجُهُ. لقالِقُ مئذنة باب بوجلود. ورأسي مسنُودٌ على آجُرٍّ يذكّرني هو الآخرُ أنّهُ سيمْضِي. وغبارُ القادمين الأوائلِ يمْضِي. معي. في هذا الصباح.

دوخةٌ أو وَجعٌ. كيف أميّزُ بينهُمَا؟ ليْسَ لي سرْجٌ ليكون لي أعزّ مكان. آجُرٌّ بعيد. وقيْظٌ رأْسِي. أو قيْظُ الآجرّ. من يدري؟ لهيبٌ في أحشائِهِ، كتبٌ تتآكلُ ليبقى الرماد. منتصراً دائماً. وهذا الصباحُ متشبثٌ بأنْ يظلَّ صباحاً. وفيّاً لوردةِ الكتابة. مهما علت الموانعُ لتفتك بنا معاً. ستخترِقُ الشطحةُ عظامي. معها أتأمّلُ يأْسي. قويّاً. وصاعقاً. حتّى لا ينْسَى أيُّ عُضوٍ رمَادَ ذلكَ الصباح.

هلْ أدّعي أنه كان صباحي وحْدِي. صباح 4 يناير 1984؟ هلْ أدّعِي أنّ غيري أحقُّ به منّي؟ أيُّ حماقةٍ تبْعثُ على السؤالين! وهل هما غايةُ انشغالي. هذا الصباح؟ دعْ رأسَكَ مسنودا على آجُرّك الصديق. تحسَّسِ القيْظَ جيّداً. والغسلين يفضحُكَ. بشرَةً. وعيْنَين مُغْمضتين. كأنّك كما يجبُ أنْ تكون. مغموراً بقُوّةِ يأسك.

صباحٌ. ويومٌ. لأيّام تتعَاقبُ. كلّما شرَعَ أحدٌ مِنّا في بدايةِ سؤالٍ أو معرفةٍ تضيق عنهَا القيمُ والأخلاقُ. جاء اليوم. بعُنفهِ. ولهيبِهِ. ليقولَ: أنتَ هُنَا لا هناكَ. حدودُكَ ألاّ تكونَ أنتَ. سؤالاً. أو معرفةً. عشقاً. أو لذاذةً. هُنا فقط. ضِمْنَ أصُولِ الجمَاعيّ الذي يتأكّدُ. شُكراً لهذَا اليوم. وصاحبِ اليوم. وأنْتَ اضربْ عنُقَ هَذا المكتُوبِ الذي ينْسِخُ مكتُوباً. وخلّص الجماعةَ مِمّا ليْسَ جماعيّاً.

بهدوءٍ أُسنِدُ رأسي. عمّا قريبٍ ستفيضُ حماهُ. وعليْهِ ألاّ يَرَى إليه أحدٌ. أحدٌ عابرٌ. أحدٌ ماكِرٌ. أحدٌ مزعوبٌ. أحدٌ مستسلِمٌ. أحدٌ في الخارجِ يُطيع وفي الداخلِ يحْتَجُّ. أحدٌ كان صديقِي. رأسُكَ على آجُرٍّ من طينٍ ومِلْحٍ. ونارٍ. رأسي. عمّا قريبٍ ستذوبُ عروقُهُ. وألْيَافُهُ. ليخْلُصَ الكلامُ بصمْتِ سكينةٍ أبديّةٍ لنْ تمْنَعَ عنّي صفَاءَ مشاعِرِي.

(2)

هذَا الصباح. 4 يناير 1984. صباحُ توقيفِ «الثقافة الجديدة». عشر سنوات تحْتَرِقُ أمام بصري. زمنٌ يحترقُ. لغاتٌ وأسماءٌ. نصوصٌ وأجْيَالٌ. مغامرةٌ وحيويّة. سؤالٌ ومعرفة. مغربٌ ومغربٌ. أمامَ بصري تحترقُ. رنين الهاتفِ يكْفِي. وكُلّ شيءٍ يحترقُ. أعضائيَ تلْتهِبُ والبرْدُ يشتدُّ عليّ. الرنين يظلُّ رنيناً يتواصَلُ. في حفرةِ صدْرِي. هَذا مآلُ كلِّ مغامرةٍ تهْتدِي بالسؤالِ والمعرفةِ في مغربٍ يرفضُ على الدوام أنْ يكُونَ مبدعاً. خلاّقاً. ولنا المتاهُ. نحْنُ جميعاً. أجداداً وأحفاداً. متاهٌ يتجدّدُ. عبر عصُورٍ إلى الهاويةِ بنَا تمْضِي. هَلْ هناك هاويةٌ أفْجَع مِنْ ألاّ نكون؟

هكذا كان ذلك الصباح يا ابْنَ خلْدُون. وأنْتَ يا ابْنَ عربيّ. وأنْتَ يا ابْنَ رُشْد. وأنْتَ أيّها المقّرِيّ. لا أشكو لكم. أو لأحدٍ غيْركُم. رأسي على الآجُرّ. عيْنِي على لسانِ الدّين بن الخطيب. قَلْبِي معَ المعتمدِ بْنِ عبّاد. وصرْختِي تكْبُر في كتابةِ الشّابّي عن أوّلِ أصدقائِهِ مِنْ شعراءِ المغربِ الحديث. متاهٌ وصمْتٌ يتردّدانِ على سَريرتي في الأوقاتِ كلّهَا التي تألّفَ منها ذلكَ. هذا الصباح.

نبأٌ لا يتْلوهُ ضِدُّهُ. نبأٌ يعسر عليّ تفسيرُهُ. أوْ تأويلُهُ. أو شرْحُهُ. نبأٌ

بمفرده. رنين وحيد. في صباح 4 يناير 1984. نبأ يكْفي. ولا تسْألْ عمَّا يلزمُهُ. يرنُّ الهاتفُ لتشْهَدَ الحريقَ يتجدّدُ. في زمن تجرّأْتَ فيه مع غيْركَ. بحْثاً عن ذاتٍ متقطّعةٍ بين بلادٍ مُلِيلَةٍ تتسمّى بغروبِ الشّمْس.

وكعادتِهِ ينْقُر الصباحُ فِدْريشَ النّافذةِ لتُطِلَّ على احتراقٍ لا يتوقّفُ. بئرٌ منَ النيرَانِ هذِهِ البلادُ الغريبَةُ. المُغربَةُ. وانشر صرختَكَ علَى شُعَبٍ مِنَ الرّماد. مكتوبٌ تتعوّدُ على أنينِهِ. في صباحٍ نازلٍ بحريقِهِ ورمادِهِ. ليكونَ صباحَكَ الأبديَّ. على مقرُبةٍ مِنْ عين تائهةٍ أو صامتةٍ. وخدَتُها تتهجّجُ. ثُمَّ هناك. ترَى.

العين الكاذبةُ ليسَتْ عيْناً. والعين الناطقةُ ليسَتْ عَيْناً. أيضاً. عين ترى. فقط. وبلهيبِ الرؤية تكْتفِي. رأسُكَ على آجُرٍّ فاسيٍّ. وجعٌ قديمٌ. ما أقْرَبَ هذِهِ العهودَ إِلى عيْنيكَ! في صباحٍ يؤرّخ للصباحاتِ التي قَبْله وصباحاتٍ ستعثُر عليْهِ صحيفة ذاتَ يوْمٍ في عُنُفِ الذكرياتِ القادمةِ منَ الغُبارِ وأمجادِهِ.

(3)

وهل أقولُ لنفسي لِمَ كانَ اليأسُ أوّلَ ما استوْلَى عليْكَ واستحْوَذَ. هذا الصباح؟ لو طرحتُ السؤالَ علَى هذَا النحْوِ لكنتُ ملازماً لأوْهام مُرَاهقةٍ بغيْرِ تاريخ المغربِ الثقافيِّ استرشدَتْ. لكنتُ. في الآنِ ذاتِهِ. خاضعاً لتلْكَ المقولاتِ الوافدةِ عليْنَا في الستينياتِ والسبعينيات من بطولاتٍ لا شأنَ لنَا بهَا. لكنتُ. إذَنْ. أسيرَ فهْمٍ مريضٍ. حديثٍ. لليأس.

لمْ أقُلْ لنفسي ما كانَ قادنِي إِليْهِ الشعْرُ مِنْ فصاحةِ الأملِ. بين دم ودم. بين آلام وآلامٍ. بين منْعٍ ومنْع. يأسي لا يحتاجُ لفصاحةٍ حديثةٍ أو قديمة. أُطْلِقُ يأسي في صُورةٍ بجعٍ. وأنا أفْتحُ فدريشَ النافذةِ. لتأكُلَ النّارُ ما شاءَ لهَا أنْ تأكُلَ منِّي. وفي أرضِ المَعلّم نيتْشَه تحفُّ بي طبقاتِ اليأسِ. تعْظُم حتّى تتشكّلَ المأساةُ بأصْواتِهَا الإغريقيّة السابقةِ على سقراط. ومِنْ رئتِي يطفحُ صوتُ أبي العلاءِ.

بُورِكْتَ. يا يأسي. هذا الصباحُ. أيها الأخُ الوفيُّ لصباحاتٍ شاخصةٍ أمامَ بصري. مجلّةٌ صمدتْ عشر سنواتٍ، في وجهِ زوابعَ لا تحصى. وها هي في

هَاوِيتي تحترق. برنين. واحد. وأمرٍ لا تقدِرُ علَى ردّهِ. يأسٌ يتنكّرُ لكُلّ بطولةٍ أو شهادة. لأنَّ هاويتَكَ هي هاويتُك. منذُ أنْ كانَ ابنُ خمسِين يركضُ مذعوراً بين أزقّةِ فاسَ. باحثاً. عن نزعةٍ. منهَا ينجُو من الفقهاءِ. السادةِ. الحُكَماء.

أحْرِقُوا مجلةً. كتاباً. قصيدةً. لكنّكُمْ لنْ تبلُغوا يأسي. بالمتاهِ والصّمْتِ سأسيّجُهُ. ظنُوني سأختفِي بهَا. لتكْتَمِلَ العُزلَةُ. في زمنٍ سيُقْبلُ بالولاَءاتِ لهؤلاءِ المانعين علينَا أنْ نكُونَ. انظرْ إلَيهِمْ يخضعُونَ بشبْهِ بُرْدةٍ أوْ وَليمَةٍ. واليأسُ قوّتُكَ الأخيرةُ. حيْثُ أنتَ. وحيثُ لا أنْتَ.

(4)

لِتُجَادِلْ نفسي نفسي. بِمَ يحْسُنُ البدءُ بالتصديق؟ بمَنْ يكذِبُونَ عليّ وعلَى أصدِقائي وعلى تاريخي أمْ بقُوّةِ يأسي؟ جدلٌ مريرٌ. أعْلَم أنهم كاذِبُونَ. ووطنيتُهُمْ كذبتْ علينَا هي الأُخْرَى. معَ ذلِكَ.

هذَا اليأسُ مدْعُوٌّ لتصفيَةِ الحسابِ مع الانفعَالاتِ المتردّدةِ. بدونِ القبْضِ على جمْرةِ التاريخ يسْتَطيعُ تردُّدُ الانفعالاتِ أن يُقنعكَ. في لحظة ضعْفٍ. أنَّ يأسَكَ مجرّدُ انفِعَال. والحريقُ الشاخصُ أمَامَ بصركَ هو الحالةُ المألوفةُ لخلافٍ سريعٍ بين السيّدِ الأبِ والسيّدِ الابن.

أنْ تُجادلَ نفسُكَ نفسَكَ معْنَاهُ أنّكَ تسْعَى لمعرفةٍ بها تتعرّفُ على طريقٍ أُخرَى. أنّكَ سترْحَلُ وسطَ أهْوَالٍ تغريكَ بالنّدَم. على يأسِك، ومتاهكَ، وصمْتِكَ، وعُزلتِكَ. والضروراتُ التي حوْلك، هيَ الأُخرى ستضغطُ على أنفَاسِكَ. جرّبْ أنْ تُجادلَ مَرّةً أُخرَى. اقرَأ تواريخَ تتوافدُ عليْكَ، مِنْ جهاتٍ بها كُنتَ احتميْتَ. وألْقِ بيديْكَ إلى النّار. في هذَا الصباح.

حقّاً. سيصعُبُ عليّ بعْدَ الآنَ أنْ أصدّقَ أملاً. وللنشيدِ أنْ يستَقصِيَ أوجاعَ يأسي، قبْلَ سقُوطِ تلكَ العتماتِ اللاّمعةِ مِنْ نفسي في وحَلِ القناعةِ. والطاعةِ. والنّدَمِ. والتّبْريرِ. وحُسْنِ معاشرةِ ما يناهضُ يأسي. غمامةٌ عابرةٌ سأصادِقُها. لن نتبادَلَ كلاماً. أوْ حنيناً. سأرَى إلَيْهَا وهي تتحوّلُ مِنْ شكْلٍ إِلَى شكْلٍ. تنحلُّ أرْخبيلاً وأعشاباً أو تتكاثفُ قطعة موسيقيّةً لا أُدرِكُ نهايتَها.

(5)

هذا الصباح. 4 يناير 1984. يخضُر لمرّةٍ قادمة. يؤكّدُ لي يأساً عليْهِ أنْ يظلَّ يأساً. رغمَ أنّهُ لَمْ يمُرّ. صباح 4 يناير 1994. عشر سنوات. كمْ مضَى على ذلكَ الصباحِ الذي لم يمرّ؟ هو هنا. يدافع عنْ يأسي. عنِ المحافظةِ على عدَمِ توازُنِي. في الصباحِ. والصباح. رأسي على آجُرّ. شطحةٌ على ورقةٍ مِنْ بقايَا الجسَد.

ما الذي عليّ أنْ أفترضَهُ أوْ ألاّ أفترضَهُ؟ تيهَانٌ في أزقّةِ مدينةٍ ربما بعُدَتْ عنّي، إلى الأبَد. في مقْهَى الصفّارين، أجْلِسُ الآنَ. أشْرَبُ كأساً مِنَ الشّايِ المحرقِ. حرفيُّون بمطارقِهِم الخشبيّة، يطوّعُون النُّحاسَ اللين. يطْبعُونَ نقُوشاً وخطوطاً هندسيّةً علَى وجْهِ الأواني، لزوارٍ لا يعرفونهُمْ، حتْماً. أوراقُ الدُّلْبِ خضْرَاءُ. مُشِعَةٌ. شرَاجبُ يُطلُّ مِنْهَا شبحٌ. وشبحٌ. بابُ مكْتبةِ القرويّين مُغْلَقٌ. رأسي مسنُودٌ علَى الآجُرّ. صمتٌ للصباحِ القادِمِ. متَاه.

38. طنْجِيس

(1)

طنْجِيسْ لصيْفٍ وصيْفٍ. لربيعٍ أحياناً. واسمُكِ القديمُ طنجةُ. طنْجِيسُ. نعثُر عليْهِ اليومَ معلّقاً على واجهَةِ حافلاتٍ تخترقُ الشوارعَ أو تتابعُ حركةَ المقيمين في الجبلِ. أو الباحثين عن الشواطىء بين رأسِ سْبَارْطيل ومغاورِ هرْقل. اسمُكِ القديمُ تداولَهُ الفينيقيُّونَ والرومانُ. كما استوْلَى الونْدَالُ عليْهِ. وقريباً منْهُ عبر موسَى بنُ نصير وطارقُ بنِ زياد. بحْثاً عن الوصُولِ إلى الأندلُسِ.

طنْجيسُ اسمٌ آخرُ للرحيلِ. ها هُوَ ابن بطوطة يحزمُ حقيبتَهُ ويشدُّ عِمَامتَهُ عازماً على سفرٍ سَيظلُّ غريباً في تاريخ الرحّالةِ. طنجيسُ اسمُك في الصينِ يرِنُّ وفي تمبُوكْتُو. خطواتٌ على الماءِ. لتبلغ الجزيرةَ الخضراء. وأمامكِ. في جبل طارق. كان أمين الريحاني يبكي. شوقاً لرؤيتكِ. ورؤيةِ المغرب. قبْلَهُ تماماً، كان مَاتِيسْ. وجدَهُ دُولاَكْرُوَا.

الصَّيْفُ. صيْفٌ. وطنجةٌ. طنجيسُ تدبُّ في العروق. غصناً رطيباً. عليه كتابةٌ هِيرُوغليفيةٌ. لستُ مسؤولاً عنْهَا. تسْطعُ في مجْرَى دمِيَ القديم. تعالَ أيُّهَا المراهقُ الفاسيُّ. أنا برزَخُ الأسْمَاءِ. تقولُ لي طنجيسُ. طنْجةٌ مِنْ هُناك. رياحُ الضوْءِ والعتمة. بين بحْريْن. وقارّتين. وحضارتين. عاليّةٌ أنَا. في أغنيةِ الحُسين السّلاَوي. الأسوارُ والسّوارِي يبدأ علوُّهَا منَ البحْرِ إلى جبَلٍ وجبَلين. سُلمٌ من البياضِ والأزْرقِ النّيليّ.

اسمٌ آخرُ للرّحيلِ. طنجيسُ. وأكادُ أسمعُهَا تخطفُ القلْبَ في صحْوَةِ اللّيْل. هرَقلُ لم يمرَّ من هنا. لكنَّ الأسطورةَ مترسّخةٌ في المغاور. بكفّيْهِ وساعديْهِ أبْعَدَ اليابسَةَ عنِ اليابسةِ. وفي الجهَةِ الجبليّةِ الخلفيّةِ، من عُلوّ مقْهى المنارةِ، تستغْذِبُ مَرجَ البحْريْنِ. ماءٌ في ماءٍ يتداخَلُ. ماءٌ على ماءٍ يَنامُ. ماءٌ بمَاءٍ يتميّزُ. ماءٌ تحتَ مَاءٍ يتألّمُ. أو يُغنّي. طنجيسُ. اسْمٌ آخرُ للرّحيل.

هَذَا برزَخُكَ أيُّها المراهقُ الفاسيُّ. عيْنَاكَ علَى الأزْرَقِ النّيليِّ تسْتقْصِيَانِ. شيْئاً منْكَ. أو منْهُ. لا تتسرّعْ في تسْمِيَةِ ما لا تعْرِف. هيّىءْ صمْتَكَ وخدّهُ. وانْظُر إلى صفائِحِ الأزْرقِ. متكوّناتٍ لتوّهنّ. متبدّلاتٍ في لاَ نهايَتِهِنّ. صفائحُ تصْفُو. لتغْلُو. أزرقُ نِيليٌّ. ضرباتُ الأبْيَض محدّدةٌ بمساحَةِ جُدْرانٍ لهَا شسَاعةُ الضّوْء. اصْعَدْ أيُّها المراهقُ الفاسيُّ إلى صمْتِكَ. واصْعَدْ إلى أبديّةِ سمّوْهَا. طنجيس.

(2)

لصيْفٍ وصيْفٍ. لربيعٍ أحياناً. ولطفولةٍ أيْضاً. كانَ عليَّ أنْ أقرأ الكتب لأهْتَدِيَ إلى اسْمِ طنجيس. وفي الطفولةِ كنتُ أتهجّى طنجَة. باسمها المتداول في عهدها الإسلامي. الدار البيضاء. الرباط. طنجة. مرّاكش. أسماء مدُنٍ لكُلِّ واحدٍ منها كان له في الطفولةِ مُعْجَمٌ بهِ نعيِّنُ خيالنَا عن جغرافية العالم البعيد عن خارج فاس. للدارِ البيْضاءِ المالُ. للرباطِ السُّلْطَانُ. لمرّاكُشَ الأهْلُ. ولطنجةَ السفَرُ الأقْصَى ورؤيةُ ما لَنْ نَراهُ.

عمّي. الرومانسيُّ. الحديثُ. هو العارف وحْدَهُ. في العائلة. بشؤونِ طنجة. أبي كان على الدوام مطيعاً لزوج عمّتِي. العيساوي. ومعَهُ يسافِرُ إلى مولاي عبد السلام بن مشيش. بهدفٍ دينيٍّ. زيارةُ مولاي عبد السلام. عبر إذاعةِ طنجة كنا نسْمَعُ تحية عمّي للعائلةِ مصحوبةً بأغنيةٍ لفريد الأطرش. وعند عودتهِ أفرحُ بلُعْبةٍ. وجميعُنَا يتفرّجُ علَى ساعةِ اليدِ السويسريةِ التي هي أنْفَسُ وأغربُ ما يحرصُ على شرائِهِ لنفْسِهِ. ساعةٌ بإطارٍ مذهب. وحزامٌ معدني على قياسِ المعْصَم. انضباطُ دقّاتِ الساعةِ والاشتغالُ الذي لا يقبلُ العطبَ عنصرانِ جماليّانِ، قبْلَ كل شيء. والساعةُ في المعصم بحزامهَا المعدنيّ دليلُ حداثةِ جيلِ

فاسيٌّ تخلّى عن الطربوشِ التركيِّ. ساعةٌ بحزامٍ معدنيٍّ وطربوشٌ وطنيٌّ موضوعٌ مائلاً، فوق الفريزيِ. هذهِ حداثةُ العائدينَ منَ السّفرِ الغريب. إلى المدينةِ ذاتِ الأسوارِ العالية. طنجَة.

(3)

طنجِيسُ اسْمٌ مرَكّبٌ مِنَ الماسِ والنّرجسِ.
وفيكَ ابتدأتْ طنجيسُ.
فرَحاً بميلادِ الشهْوَةِ.
ثمّ التمرُّدِ.
فراشةٌ أوْ خرافَةٌ. أنتِ.
هناكَ في الحالةِ. الدائمةِ.
الّتِي.
ليْسَتْ سياحةً. أوْ
قضاءً لوقْتٍ ضائعٍ منَ الوَجْدِ.
أنتِ.
رقصةٌ لقدَمين تَائهتين.
بين اللاّنهايَةِ.
وبين أزقّةٍ أحافِظُ على غموضِهَا. في فَاسَ.
تبعُدينَ. وألْهَثُ.
حتّى يُدركنِي البرْزَخُ.
والطيْفُ الأندلسيُّ.
ونفحَاتُ. حريّةٍ. مُفتقَدَةٍ.
عاجِزٌ ذاكَ الأبُ. أوْ. هذَا.
عن تطويعٍ.
بذْرةٍ. أبداً. إلِيْهَا أنا ظامىءٌ.
قُلْ هيَ الشمْسُ الساريةُ. في جميع أعضائِكَ.

الأثرُ المحاربُ لكُلّ طَاعةٍ.
النّفسُ الثانيَةُ التي. تُنَاديكَ.
اخْرُجْ. أيُّهَا.
المَرَاهقُ.
الفاسيُّ. مِنْ أنفَاقِكَ. المتعَاقبَةِ.
عليْكَ. في الزّمهريرِ والقيْظِ.
انشرْ. هذَا البياضَ.
علَى سَريرَتِكَ.
هَذَا المتبدِّدَ.
الذِي يهتَاجُ فيكَ.
طنْجيسُ.
اخْرُجْ. مِنْ عادَتِكَ. الّتِي لا تتعرّفُ. فِيهَا.
علَى غيركَ. فيكَ.
علَى لذّةٍ. لنْ تسْعَدَ بغدَهَا. بأيِّ توازُنٍ.
كُنْ. أنتَ. طنجيسَ أعمَاقكَ.
عنفُوانَكَ الخالِصَ.
بَهَاءَكَ الذي.
يُقرّبُكَ. مِنْ.
قلَقٍ. بِهِ.
يتضَاعفُ قلَقُ الوجُوذ.

(4)

في 1966. وطئتُ قدمايَ أرْضَ طنجِيس. صحبة أصدقاء. أذكر من بينهم محمد الديوري ومحمد الخمار الكنوني. هل صداقةُ الشعر هي التي هيأتْ لي القدومَ إلى طنجة أمْ صداقةُ التمرُّد؟ يصعب عليّ الآن التمييزُ بينهما. طنجة برائحة البحر. وامتدادِ الأزرقِ النيليّ. والرمل. والأزقّةِ المؤديةِ إلى غرفة في

الطابق الأوّل من بيْت قديم بين عتماتِ الدروبِ المتشابهة، الواقعة خلف السُوق الدّاخَل. كنتُ واحداً من بين أولئك الفاسيّين الذين أصبحوا يتعوّدون على طنجيس. الذين يبحثون فيها عن حريّةٍ لا يمكنُنَا إدراكِها في فاس. لنَا ما نشاءُ من العربدةِ. والكأسِ الأولَى التي نتباهَى بطعْمِ نبيذِهَا الرديءِ. وإغراءِ النساءِ العَاريّات.

في السنةِ ذاتها عرّفَنِي محمد الخمار الكنوني بالصديقِ القادم محمد شكري، الذي أصبح يُسمّي نفسه بأبِي الرُوحي. وأنا أوافقهُ دائماً على ذلك. لصيْفٍ وصيْفٍ. لربيع أحياناً. ولَنْ ينزَعَ مِنّي أحدٌ طنجيس. هي الآن. وبعْدَ الآنَ. تأكيدٌ لذلك المتاهِ الناشىء في فاسَ. من عُلوّها انحدرتُ. مُسرعاً. مُدَنْدِناً، في 1968، باتجاه الميناءِ لأرْكَبَ الباخرة، في اتجاهِ الجزيرةِ الخضْراءِ. فمدريد. فباريس. قَبْلَ عبُور المضيقِ عاشرْتُ، لأيامٍ، خلْقاً من الهِيبّيين. أميريكيّين وأوروبيين. ورامبُو لا يفارقُنِي.

طنجيسُ. لصيْفٍ وصيْفٍ. من 1966 إلى 1968 إلى 1970. طريقٌ سِريّةٌ لتمكين القصيدةِ من تمرُدها. على القواعدِ وعليَّ معاً. نقطةٌ عليا للصعُودِ نحْوَ أنَايَ المتصدّعةِ. ولربيع أيضاً. أغادِرُ فاسَ. والدراسةَ. والجامعةَ. لأتعلّمَ مِنْ طنجةَ كيف أقرأُ الأدبَ الحديثَ. الهادِمَ للعقْلِ. واليقينِ. والقناعَةِ. والمحسُوسِ. والقيمِ. هارباً من هذا وشقيقاتِهِ إلى بنَاءٍ مغايرٍ للذاتِ وللعالَم. هُنَا التقيتُ بالأدبِ الأميريكيّ والإنكليزيّ. هُنَا تعرّفْتُ على أسماءِ تينيسي وِليامْز. آلنْ غينْسبِرْغ. جاكْ كِرَوَاك. ويلْيَامْ بُورُوزْ. جامعةٌ مضادةٌ. لحياةٍ مضادةٍ.

(5)

في الاسكندريّة بحثتُ عن طنْجِيس. لم أعْثرْ على الإسكندرية ولاَ علَى طنجيس. عن الاسكندرية رحَل آخِرُ اليونانيّين. ولم يتركُوا أثراً لقصائدِ كفَافِي. طنجِيسُ بدوْرِهَا رحَلَ عنها أبناؤها من الآفاقِ المتناقضةِ. غرْباً وغرباً. السوقُ الدّاخَل أو فندق ڤيلا دُوفرَانْسْ مجرّدُ ذكرى لأصْوَاتٍ تختلِطُ لغاتها. الغرباءُ المستريحُونَ على مقاعد المقْهَى ربّما كانوا يودّعُونَ طنجيس الماضية. في الكتب والموسيقى. ربما كانُوا. مثلي. مأخُوذين بأصواتِ ما تبقّى.

البحْرُ. منَ العلُوِّ. بحْرٌ وبحْرٌ. الأزرقُ النيليُّ يضْمُدُ في جهَةٍ تضيقُ. جدرانٌ من بعيدٍ تسْطعُ. والريحُ شرقيّةٌ. هذا الصباح. وأنا أرى إلى البحْرِ. والأُفقِ. زغاريدُ تُقْبِلُ عليّ. منْ نساءٍ مجهولاتٍ. بياضٌ يوقظُ لذّةَ الرحيلِ. من صيْفٍ لصيْفٍ. ويصمْتٍ أدْخُل هدنةَ الدوربِ العتيقةِ. منحشراً في ارتعاشاتِ الأزرقِ النيليّ. هناك عواصفُ أخرى. أكاد أسمعُهَا. وأنا أنزِلُ. بتؤدَةٍ. إلى طبقاتٍ سُفْلَى. من العتمةِ. والصّمْت.

39. بقَـايَـا

(1)

بقَايا تسكُن فيكَ حتّى تتعشْكلَ شِعَابُها. بقايَا تُسرج بين انطفَاءةٍ وانطفاءَةٍ كأنها جُرْمٌ لأنفاسِكَ الأُولى. بقَايا مِنْ صفاءٍ ومِنْ عطشٍ عنكَ تبتعِدُ بك. لا لتتذكّر بلْ لتحيَا. أشياؤك التي شاركْتَ فيها غيرك بطريقةٍ هيَ لك وحدك. هناك. في السريرةِ نزلتْ. ثُمّ نزلَتْ. باحثةً عنكَ. فيك. هاربةً من الزمهريرِ والقيْظِ معاً. لتبْدأ تاريخَهَا المنفردَ معك. منازلَ وإحسَاسَات.

هذهِ البقَايَا. منفلتةً من الطرُقِ المستقيمة كيْ تكون. لمعاناً أشدّ. دفئاً صاعداً. حركةً لا توجّهُهَا جاذبيّةٌ مَا. تتصادَمُ أحْياناً في عينك الثالثةِ. وأنتَ ترى إلِيْك. تَرَى إلِيْهَا، منْ بعيدِ أنْفاسك التي عثرتَ. ذات صباح. على أشلائها العزيزةِ. تنْعَمُ بالصباح. والسكينةِ. والظنونِ. والتّيهِ. والوحْدَةِ. والتشاؤُمِ. واليأسِ أيْضاً. لا تَعْكِسُ. بل تلْمَحُ. ومدارِكُ أُلفةٍ قديمَةٍ تُسرعُ إِليك.

صباحٌ يتكرّرُ. البقَايا هيَ البقايا. تنبثقُ من عُمْقِ التباسِ الوشْوَاشات. قريباً من الرّمْلِ والتكويناتِ الحجريّةِ وانعقادِ الماء. تلْكَ البقايا. تتجنّبُ ماضياً مضَى لتنطقَ. لُغةٌ لها من بقَايَا الأشيَاءِ بقدْرِ ما لها مِنْ متعةِ أساطيرَ بها انْسَاقتْ ذَاتي إِلى مجهولها. لم تسْعَ إلى تقليدِ لُغةِ الطير. هي وأشياؤُها. البقَايَا. بين الممرّاتِ والزّوايَا الخفيّة التي وضعت وشومَهَا علَى صدْرِي.

وأخْلِطُ البقَايَا بالبقَايَا. أعْصِرُ البقَايَا مِنَ البقايَا. ذلكَ هُوَ شأْنِي. في صمْتِ

أتاخِمُهُ. بعْدَ خُسرانِ أحْلامَ. وصداقاتٍ. ومواعيدَ. أنْتِ لي أيَتُهَا التي سمّيتُكِ البقَايا. في مسْرَحِ أزقّةٍ فاسيّةٍ. قلْتُ الآن بكِ سأهْذِي. لا مجَافاةً للصروحِ. ولا تعباً مِنْ أوْزَار زمَنِي. فقط لأن البقايا هيَ أوّلُ مَا انحدرَ منَ الأزمنةِ التي لم أعِشْهَا وظلّ في الدخيلَةِ هاذيَاً. متموّجاً. بقَايَاي.

أبْحَثُ عنكِ في قصائدي. أيّ خسارةٍ أستشعرُهَا وأنا أفتقدُكِ. خالصةً. كوكبٌ على كتفِي اليُمْنَى. كوكبٌ على كتفِي اليُسرى. لقد تحرّزْتُ منْ شرورٍ لم تكُنْ ترْضَى بما يصنعُني إنسَاناً يختفِي بطيْشِهِ. بُورِكْتَ أيُهَا الطيْشُ. وأنْتِ أيَتُهَا البقَايَا باركِي طيْشاً أتَى بِي إليْك. في آخرةِ الدّمْع. هل يكفي أنْ تستحْسِنَ؟ أوْ أنْ تَستقْبِحَ؟ جوابِي ملازمَةُ مَا يظلُّ سِرّاً ضاحكاً. راقصاً. في رُكْنٍ لهُ نُقْصَانُ اللغةِ. عفواً. في ما اعتقدْتُ أنّهُ الشفُوف.

(2)

ضوْءُ الشمْسِ على آجُرّ جدارٍ متآكلٍ. آخِرُ حرْفٍ في صيْحةِ المؤذنِ. أحذيةٌ قديمةٌ معروضةٌ للبيْعِ. نُشارةٌ ترسبُ في قعْر عين الماءِ. زجاجةٌ بمِكبّهَا المعدنيّ المصبوغ وجْهُهُ بالأبيضِ وظهرُهُ بالزيْتِيّ مشدودةٌ إلى ركيزةٍ. عشّابٌ يشرحُ لامرأةٍ ما لا أفهَمُ. آثارُ آيةٍ قرآنيةٍ بالصُّمَاقِ على لوحٍ خشبيٍّ ضائع في الجامعِ. سقّايةٌ ينزلُ ماؤها من أنابيبَ نحاسيّةٍ في منتصفِ اللّيْل. سقيفةٌ مرّ تحتها ابنُ عربيٍّ أو ابنُ خلدون وما زلتُ أتوهّمُ ذلكَ. قطعةٌ مربعةٌ من رخامٍ عليها تزاويقُ أسمّيهَا. إمضائي. ظلالُ قصبٍ يقي الموادّ والتّجَار والزبائن والعابرين في الأسواقِ من الحرّ. دروبٌ تفاجئك بلعبة متبدّلةٍ للعتماتِ والأضوَاءِ. تابوتُ امرأةٍ أكمَلَ نجارٌ صنعهُ ومتعلّمٌ يدهنُهُ بالزعفرانِ. زنقَاتٌ خلْفيّةٌ لا يدركُ السائحونَ أنّها سِرُّ المتعاقبين الذين تركُوا مدينةً ولم ينسَوْا أبْوَابَها.

تلك البقايا. هي التي اختارتْنِي. طفلاً يتجوّلُ ثُمّ يتجوّل. لا يسأل لِمَ يتجوّل. ولكنّهُ هكذا. يكادُ يحفظُ النقُوشَ كُلّها. على الجبْسِ أو عَلَى خشبِ الغرعَرِ. من الشبابيكِ يطلُّ على أنفاسِهِ المتقدةِ بالصّمْتِ. وفي الأضواءِ يكتشِفُ سُلّمَ الألوانِ ينبسِطُ ويتعدّدُ. إنهُ هنا كان البارحةَ. وكان الغدَ. معاً. بأعضائه يتفحّصُ توازُنَ الأقْوَاسِ الهرمَةِ. بدلاً من التاريخ يَرَى أشياءَهُ. يتعرّفُ على اللاتناسُقِ مِنْ خَلَلِ التناسُقِ. والحيطانُ شاخصةٌ. أمامهُ.

هذِهِ البقايَا أتحسَّسُهَا أكثرَ أحياناً ممَّا أتحسَّسُ أعْضائِي. حتّى يلتبِسَ عليَّ الأمْرُ فأظنُّها هي أنَا. لا. هيَ حتْماً أنا. أشياءُ صغيرةٌ. خفيفةٌ. طائرةٌ على مقربةٍ. منِّي. متشظيَّةٌ في حطامِ الرُّوحِ. هيَ أنَا. أدرِكْنِي أيها الطفلُ الذي كانَ هناك. ليبْقَى هناك. تعبتْ يدَايَ مِنْ منْفَاي. ضيفٌ على البحْرِ أنَا. ولكنِّي هناك. جسْمِي بأرْضٍ وعيْنَايَ بأرضٍ. دمِي بها أبداً يدُور.

(3)

اتْبعْنِي أيها الطِّفلُ إلى بقايَاي. انْتَشِلْنِي مِنْ هذِهِ المدن الصمّاء. مَنْ مِنّا ينادي على الآخر. أيها الطِّفْلُ انطلِقْ في صباحِكَ الفاسيِّ. صامتاً. تائهاً. عاشقاً. لا سلطانَ لأحدٍ عليْك. جرِّبْ جنونَكَ مرّةً أخْرَى ليغْسِلَ النقاءُ حيرتَك. اتْبعْنِي. وتقدّمْنِي. نحنُ معاً سنلهجُ بالبقايا. وخذْها. وانفُضْ يديْكَ مِمّا يبتغُون. حقْداً. مكيدةً. خديعةً. مؤامرةً. لا أنْتَ منْهُمْ ولا هُمْ منك. انتصِر لبقايَاكَ. في هذا الصباحِ. حَرُّ البقايَا. شبقُ البقايَا.

مَن أتاكَ؟ في هذا الصباح. ومَنْ رآك؟ هل اقتنعْتَ أنّ البقايَا هيَ أعزُّ ما لديْكَ؟ وأنّ لكَ مِنْهَا ما هُوَ أرْحَمُ مِمَا لكَ مِنْ سِوَاها؟ حياةٌ تتعاظمُ فيهَا النّدُوبُ. صروحٌ تتهاوى. نهايةُ أفْكارٍ كانتْ لنا المسكن والطريقَ. كمْ توهّمتُ! فاختر لهيبَ البقايَا بمُفْرَدِهَا. هناك. جالِسْ صاحبَ المعرّةِ. ردّدْ أبياتاً لأخيكَ ابْنِ سليمان وهو يشْهَدُ أمامَ كوكبين أنّ البقايَا قد أصابَتْ جسْمَهُ. حقّاً. ليْسَ لأخيكَ اسْمٌ سِوَاكْ.

هي البقايَا تُنقِذُكَ مِنْ وحَلِ حياةٍ لا مقْصَدَ لهَا. ومِنْ أفْكَار وصِراعاتِ فاسدةٍ. كادتْ أن تُسْقِطَ رأسَك. بلا معْنى. أنا الذي كنتُ مغروراً. مغروراً. بما يناقضُ الأساسيَّ. حياةً وكتابةً. أقول لكَ انتبهْ إلى البقايَا. مِنْكَ. حوْلكَ. فيكَ. انشر لوَاءَ البصيرةِ عليْهَا. إنّها تَشِعُّ في رحِمِ الكلماتِ. خُذْ. مثلاً. هذه السّقّاية. بزلّيجِهَا المركّبِ مِنْ قطعٍ لونيّةٍ ذاتِ أشْكالٍ هندسيّةٍ صارمةٍ ومحدودةٍ. معَ ذلِكَ انظُرْ إلِيْهَا. وحداتٌ تلْتقِي بوحداتٍ. أصفرُ. أزرقُ. أخضرُ. أبيضُ. أحْمَرُ. أسودُ. بلوْنٍ يختلِفُ عن اللّوْنِ المُحَاذِي يصبحُ التنافرُ تآلفاً. لمجموعةٍ زخرفيّةٍ. في خطٍّ أفقيٍّ. هو خطُّ التكوينِ الذي يسْبي عينيْكَ. مرتفعاً في الجهَاتِ كُلّها.

وانظُرْ إلى الأنابيب النحاسيّةِ والماءُ منْهَا ينزلُ. متشابهاً وغير متشابهٍ. ثم طوّفْ عينيْكَ بين الزلّيج والماءِ. ثبتْهُمَا قليلاً. وها هُوَ الزلّيجُ يتشابهُ هو الآخرُ ولا يتشابهُ. حزامٌ من الجبْسِ المنقوشِ. يعزلُ السقّايةَ. في جدارٍ بدوْرِهِ يعْلُو. فلا تُدركُ كيْفَ الأشكالُ تلْعبُ بكَ. دون أنْ تدلّكَ على شيءٍ غير الصّمْتِ.

(4)

وردَتْ عليَّ البقايَا. هذَا الصباح. لتذكّرني بلاَ نهائيتها. وفي صنعاءَ ثارتْ عليَّ بقاياي الفاسيّةُ. هناك التجأتْ فاسُ. وبدمِي المسبيِّ كنتُ أتعرّفُ على البقايا. عاصفةً تجيءُ. أصواتاً تلْمَعُ.. أقساطاً تتدافعُ نخوِي. ثُمّ البهاءُ في ورقةٍ. والورقةُ في لوْنٍ أخضر. والأخضر في غُصْنٍ. والغصْنُ في يدٍ تمدُّ لكَ الغُصْن. وسليمانُ يلوّحُ مِنْ بعيدٍ. حكمةُ البقايَا. أوْ وجَعُ البقايَا. ساعةُ سليْمان عاصفةٌ. قرمزيّةٌ خضراءُ. مَا في العظْمِ غيرُ البقايَا. وهي أنَا. تنْغُلُ.

فاسُ في جسَدِي. في القرمزيِّ الأخْضَر. ومن المقيلِ اختطفتْنِي لمْحةٌ. ها أنَا أسْلُكُ طرُقاً سَهَوْتُ عنْ أسمائهَا. صيحةٌ لا أسمعُهَا. وقدمَايَ مُجدّتَانِ في الخطْوِ. تلْمَسان برودةَ وعتمةَ الصّابةِ. إنه الدربُ المؤدّي إلى سيدي أحْمَد الشاوي. ضريحٌ صامتٌ. ألوانُ الزجاج العراقيّ تضيءُ الداخلَ. ضريحٌ وفراغٌ. كسوةٌ خضراءُ. غشوْتُ مَا غشوْتُ. وبُقَعُ الألوانِ على كاملِ جسَدِي.

البقايَا متآخيَةٌ. في صنعاء وفاس. هو ذَا فضائي المفتقَدُ. أوّلاً. هناكَ هذِهِ الحالةُ. هل أكذّبُ جسدي؟ هلْ أنَا متكلّمٌ بمنطقِ يأسي؟ هلْ نشْوَةُ البقايَا تركَةُ حنينٍ؟ هل الهجْسُ بالبقايا عرَضٌ مِنَ أعراضِ ذاتٍ مريضة؟ عليَّ أنْ أسأل كُلَّ خليّةٍ من خلايَاي. ما أعْلَمُ وما أجْهَلُ. أبْحثُ وأسْألُ. هذِه البقايَا. لمَحٌ أمْ حُطامٌ. لي في الصّمْتِ خَلْوَةٌ أدافِعُ عنْهَا. أريدُ أنْ أتبين. ما هذِهِ البقايَا.

(5)

والقصيدةُ لا تهادِنُ. اكتُبْ بقاياكَ أوّلاً. وفي الكتابةِ ستلفُّكَ الحجُبُ أو هي السريرةُ ستنطِقُ. بسرّ البقايَا. اكتُبْ أوّلاً. منطِقُ الكتابةِ يُفضِي إلى منطقِ الحالةِ. وأنْتَ بينهُمَا. أسئلتُكَ خوْفٌ مِنْ بقايَاكَ. ومِنْ جسدِك. أسئلتُكَ منافيةٌ

لمجهُولِكَ الذي هو أنتَ. تعلّمْ كيْفَ تهتدِي إلى الأسئلةِ القادمةِ منَ المجهُولِ لا مِنَ المعلُوم. كلُّ معلُومٍ باطلٌ في الكتابةِ. وأنتَ بينهُما. كُنْ لبَقايَاك.

اتبعْنِي أيُها الطفلُ إلى وادِي الشرفاء. وبغُرّافِك أوْ بكفّيْكَ تقدّمْ. هو ذَا. ماءُ العين. ينْحَدرُ إليْك. واغْرِفِ الماءَ. ارْفَعْهُ. ازوِ بِهِ شعْركَ ووجْهَكَ. على كتفيْك اسْكُبْ مِنْ ماءِ العين. اسكُبْ على صدْرِكَ وأطرافِكَ. اسْكُبِ المَاء. إنّهُ بقيّةٌ مِنْ بقَايَاك. بخفّةٍ يديْكَ احْمِلِ الغُرّافَ. اسكُبِ الماءَ تمجيداً لخلايَاك وبقاياك. واسكُبْ مرّةً أُخرى. بَقَاياك. بقَايَاك.

40. علَى نهر هِيرقلِيط

(1)

كلما عدتُ لأقرأ ما جرى لحيَاتي الثقافيّة. في الثمانينيّات. تيقّنتُ أني لم أكُن انهزمتُ. بعْدُ. خيْباتي في الأوضاعِ والصداقاتِ. هي خيبَاتِي. هناكَ فقط. ما كنتُ به أكتُبُ وأحيَا. أقصدُ مواجهةً متوثبةً. حيناً. أحياناً. عقْد الثمانينيّات على ذاتِهِ ينشطِرُ. القيمُ. الأفعالُ. المراهناتُ. تنشطرُ أيضاً. والحياةُ مِنْ حولي دوارٌ عنيِفٌ. زلزلةٌ لا ريْب فيهَا. هذه الصروحُ الفريدةُ من يهدِمها. عُضواً. عُضواً. هل سقطتْ حقّاً؟

تأملْ. قليلاً ذلك اليومَ. واليومَ الذي كان بسُرعةٍ. يليهِ. تأمّلْهُ قارئاً. صامتاً. كما أنتَ متآلفٌ مع ارتجاجَاتِكَ. قبل ذلك اليوْم. بغْدَهُ. بما لا أجرؤُ علَى قيَاسِهِ بالسّاعة الرمليّةِ. وهيَ. عنّي غريبةٌ. ساعَتِي منْ نبضَاتٍ. وأنا أعلمُ. أنّنِي. لم أكُن انهزمتُ. حقّاً. حشدُوا ما حشَدُوا. وبغير بُطولةٍ كنتُ أحْيا ولاَ. بشهَادةٍ. نعَمْ. أتأمّلُ. ولا أعثرُ علَى غيري. هُنَا. بين الحدودِ الوطنيّةِ. مَنْ تتسَاوى معهُ المظَالم. التي حشَدُوا. لأجلي. أهْلي هُمْ أوّلُ أعدائِي. ألَيْسَ هذَا يَدْعُو للتّسَاؤُل؟ عنكَ وعنهُم؟ حتّى لا أُدافع عن موْتِي بلُغةٍ وطنيّةٍ أصبحتْ. أمجُهَا. لأنّ هُناكَ. وطناً آخر. لكَ. أنتَ الحالمُ بقلمِكَ وورقَتك. وطنُك الكتَابَة.

لم أكُن انهزمتُ. أستطيعُ رؤيةَ ذلِك. في حياةٍ يتأكدُ فيها انتصارُ ما كانُوا يتوهَمُون اجتثَاتَه. فيما هُمْ كانوا يتواطَأُون. ضدّ أقاويلَ بِهَا تحكّموا فينَا. حسناً.

إذنْ. هَا أَنَا الآن مُشْرِفٌ على ذلك اليوم. وما حشَدُوا. منَ الهاوية أرَى العسَاليجَ. وهي مُتشبثةٌ بالرّياح. مَا الذي فعلُوا؟ ولم فعلُوا؟ لغيري وغيري ولِي. ولهُم تأكيداً. أهذا مآلُ ثقافتنا الحديثةِ على أيْدي أدْعِيائِها؟ منذُ بدايةِ القرْن إلى الآن. في منطقةٍ تُسمِّيها الجغرافيةُ مغرباً. وهي مغْرِبُنَا.

حاولْ أن تتقدّم في الأحْرَاش. في الطرقِ المجهُولة لديْكَ. لا لكيْ تفْهَمَ. ذلك مستحيلُكَ. أنت معنيٌّ بالهَاويَةِ. التي هي لكَ. ولغيركَ. ولثقافةٍ تعوذنا على وصْفِها بالحديثةِ. دُونَما حذَرٍ تقدّمْ. وابعَثْ في العراءِ صمْتَكَ. الذي هو أيضاً ملْجَأُكَ. ومنْفاكَ. وعتبتُكَ المشتَهاةُ. في منطقةٍ قلت إنّك. فيهَا تُقِيمَ. لا اختيارَ لك غير أن تُقيم فِيهَا. شرارةٌ لألمكَ. البعيدِ. في أزمنةٍ تطوفُ. بكَ. كما لو كانتْ تبدَأُ كلَّ لحظةٍ في الطوفان بكَ. وأنتَ لا تعرُجُ. بل تُقيم. ماشِياً. حافيَ القدمين. ماشياً. طيورُكَ مِنْ جسَدِكَ. وأنت تُحارب اليَقِين. في نفْسِك. أوّلاً. إنها مشيئةُ أن تسْعَى في زمنٍ لا يبْلغُه زمنُكَ. زمنٍ مَا يحرّرُ الذاتَ من قيُودٍ. تحجُبها عنّا أن نقُولَ. نعَمْ. لإلْغاءٍ في أشدِّهِ. بل أنتَ تخُون نفْسَك خيانةَ منْ لا يَسْأل. ولا يُخطِىءُ. أنت حجابُ حريّتِك عنْ نفسِكَ.

لم أكُنْ انهزمتُ ولم أكنِ انتصرتُ. منذُ البدء. اقتنعتُ. أن الانتصارَ مدعاةٌ. للشُّكوكِ. بأي لسانٍ سأُمجّدُ المُنتَصِرين؟ هناكَ الطريقُ أصْدَقُ مِنْ أيّ انتِصَارٍ. طريقٌ واخْتِيَار. لِمَنْ يُقاوِمُونَ ما يَنْفِي وجُودَهُمْ. ووجودَ منْ يعِيشُونَ. معهُمْ. تلكَ ذريّةُ السّاهِرينَ. المُسافرِينَ. مِنْ تُخوم ممْنُوعَةٍ. إلى تخُوم. ممْنُوعَةٍ. بحْثاً عمّا يكُونونَ بِهِ. كغيرهِمْ في البلاد. التي تعلمَتْ درْسَ الأخوّةِ. والحريّةِ. هلْ هذا مُمكِنٌ؟ هلْ هُو مستَحِيلٌ؟ لنبدأ في استِكْشَافِ التّخُوم. ثمّ كلُّ شيءٍ سيتّضِحُ لكَ. أيْ سيَبْعُد في الحريّةِ. قاطِعاً أرْضاً لتَعبر. أرْضاً أُخْرَى. شوْقاً، وولَعاً. حتى لا تَمُوتَ.

(2)

أيُّها الطفلُ. ستظلُّ. طفلاً. حافِظ على الطفْلِ. فيك. يقظاً. لا يعبأ بالجيُوش الجرّارةِ. هكذا يصِفُون قِلاَعهُم. وأنتَ كُنْ بكَ أوّلاً. في الأرض التي تقطعُها. عُنوَةً. أمراً مِنكَ لنفسِكَ. وانشُر لوَاءَكَ. على سفَرِكَ. حامِلاً طفولتَكَ.

في الزمهرير والقيْظِ. في الوحدةِ والعذَاباتِ. لا تخْش شيئاً. إن الوحوش التي ستعْترِضُ سبيلَك. قد تركْتَهَا لفَرائِسَهَا. وأنتَ في طريقِ أخرى لأرضٍ أخرى. لا ينازعُك فيها أحدٌ. حريّتُك أرْضُكَ. وكتابتُكَ الوطَن.

تلك الطريقُ الأخْرَى. أنت مُنْشِئُها. لا فِي كِتَاب رُسِمَتْ. ولا. في مراصد الهزيمَةِ والانتصارِ نُظِرَتْ. إنها مخطوطةٌ في آثار الذين مرُّوا من هنَا. قبلَكَ. كما مرُّوا. بعدَكَ. مرُّوا ولم يرهُمْ هؤلاء المسلّحون بمُدِيّهمْ في الساحَات العموميّةِ. طريقٌ تتعرف عليْهَا بحدْسِ السّائلين وهم يُتابعون سفَرَهُمْ. عبر المنعرجَاتِ المُتواريَةِ. كأنكَ فيها وحيدٌ. ولسْتَ وحيداً. كأنك فيها. شبَحٌ. ولسْتَ شبَحاً. بقدميْكَ قسِ المسافةَ. فرسخٌ. فرسخَانِ. وفي كلِّ وصُولٍ ستعرف أن الطريقَ بدايةٌ. دائماً. عبر المنعرجَات اللامُنتظَرة.

هكذا كنتُ أنصِتُ لما تُفْصِحُ عنه قدمَاي. بين خُطوةٍ. وخطْوةٍ. وأنا ألهثُ راكضاً. على الطريق الكُبرى. لا أقصد بين المحمديّةِ والرّباطِ. بين المحمديّة والدار البيضاءِ. لكن. ربما قصدتُ تلك الطريقَ بين المِدَاد والسّهرِ. في الجهاتِ التي تعودتُ فيها أن أقرأ تاريخي المُسمّى حديثاً. تاريخَ ثقافةٍ تُسمى بدورهَا حديثةً. كلُّ شيء حديثٌ. في خطاب المجْدِ. التي لا تنفكُّ عن إتلافِ المعَاني بين المآدب. العزيزةِ. على ثقافَتنا الحديثَةِ.

مدادٌ وسهَرٌ. هل هذا تعريفٌ للطريقِ؟ هناكَ ما يُساعدني على الشّكِّ. في الثمانينيات أصبحَ المِدادُ والسهرُ معركةً مُغايِرةً. لما كان عليه الأمْران. معاً. في السبعينيّاتِ. إنهما هما. وليْسَا. هُمَا في. آنٍ. وها نحْنُ في حضرةِ نهْر هِيرَقْلِيط. الذي علينا تذكُّره. بالضرورة ذاتِها التي استدعتْ قطعَه. منذ أن صاحبتُهُ في أول درْسٍ. من دروس الجدليّةِ. وها أنا أعود إليْهِ. لأنه النهرُ الأبديُّ الملازِمُ للحركةِ. والحيويّةِ.

(3)

هيرقليطٌ. والثمانينيّاتُ. سلاماً لهرقْلِيط. وسلاماً. لمن تبقَّى من أصْدقَائِي. في الأيَام التي أدركتُ فيها أنني لم. أنهزِمْ بعدُ. عقد من الزمَن ينشطِرُ. والطريق هي الطريقُ. تتلوّنُ. تتبدّلُ طبيعةُ الترابِ. الحصَى. الحجَارة.

الوديانِ. المنعرَجاتِ. الأدغَال. الأوديَةِ. المُرتفعاتِ. الطريقُ هِيَ الطريقُ. ولم أختزْ غيرَ ما كنت مسكوناً. بِهِ. شعرٌ وثقافةٌ لزمَنٍ يسرع. والثقافةُ تسرِع. ونحن سعداءُ بانتظارنا لمُعجزةٍ. أو لهبَةٍ. أو بأن لا نكُونَ. اختصاراً.

هيرقليطُ. ها أنَا أنصتُ للقصيدةِ معَ الطيُورِ التي. تهجمُ. لكي أبصرها تحوّمُ في الفضاءِ الحرّ. بين طبقاتٍ منَ الغمَام. بجَعٌ يغلُو. وأرمُقُه. خفيفاً. فارِغاً. إلاّ من عذُوبتِهِ المتقدةِ. متخلّياً عن طلبِ المغنى. وأنت أيهَا الطفلِ كيفَ عدتَ من طفولتِكَ؟ ورافقتَ الطيورَ. رأيتَها بجعاً يغلُو؟ سرُّكَ. فيكَ. يغلُو إلى أطرافِ الغمَامِ. وهي تتشكّل كمَا. تشاءُ. مثلَ هذِهِ الجُمل التي تكتُبنِي. على ورقةٍ. في الشطحَة الواحدةِ والأربعين لظهيرةٍ. أنا. فيها أرَى إلى الثمانينيّاتِ. مسرعةً. هذه الطيورُ في التشكُّل. وأنا بعيدٌ عنك أيهَا الطفلُ. اقتربْ. قلتُ. ثم هَا أنْتَ تبحثُ عنكَ. في الهذَيان الذي يستحْوِذُ على أصابِعِكَ. فكيْفَ لِي. أن. أمنعَهَا من المُضيِّ إلى مقامَاتِهَا الفارغةِ من المعْنَى.

هكذا أنتَ. مِنْ طريقٍ إلَى طريقٍ. والخطأُ بذرةُ الفعْلِ. حين يكُون حَراً. لا عهدَ لكَ بِهِ. وأنتَ. ماذا ستفعَلُ؟ كان الصبحُ هادِئاً. الهاتفُ لا يرنُّ. وشمسُ يناير تُنبىءُ أن ربيعَ هذا العامِ سيكون معشباً. وبقية الصُّبح سأقضيها مُستمتِعاً. بالطيور الهاجمةِ عليَّ. ثم متسائلاً. عن جهتِها التي غادرتْني إليْهَا. الطيورُ والطفلُ وهيرقليطُ. ماذا ستفعَلُ؟ ستشتدُّ عليْكَ وحدتُكَ. صباحُك فارغٌ. إلا من دنْدنةِ غيرِ مفهومَةٍ. هي لباسٌ لكَ. في اللّحظةِ. التي يحضُر فيهَا هيرقليطُ. بنهْرِهِ الأبديّ. وشذراتٍ من نيتشَه. وصيحةِ امْرىء القيْسِ. قِفَا.

(4)

طريقٌ تبْدأُ. في التأمُّل. والصمْتِ. في العتمَةِ والوحْدةِ. كُن لي أيُّها الطفْلُ الصّاحبَ والمُصاحبَ. سمعتُ أحداً. هُو أنَا ولسْتُ أنَا. يُردّدُ عليَّ نداءَهُ. وأنا أكتبُ قصيدةً قصِيرةً. بحركةِ يدٍ لها مثيلٌ في حركَة خطّاطٍ صينيٍّ. قرأتُ عنه يوماً. أنه إن أخطأَ. كانت تلك نهايتَه. لمْ أصدقِ الحكايةَ. ولكني. صدقتُ أنه استجمعَ أنفاسَه. تهيأَ قبل أن تحْمل أصابعُه الفرشاةَ. وفي صمتٍ. لا يشاركه فيه أحدٌ. خطّط ما منحَهُ لذةً بها انتَشى وهو يُفرغُ كأسَ الخمر في حلقهِ الورديّ. في

الساعاتِ الأخيرة من الليلةِ المكْتملة بقمرِها وبأغْصانِ الصّفْصافِ علَى. نهْر. هيرقليط.

هناكَ. على الطّريق الكُبرى. كان العابرونَ قبْلي. يلوّحُون. من بعيدٍ. بما تبقّى من ذُبالة الفوانيسِ. القصيدةُ القصيرة تحتاجُ لصرامةِ اقتصَادها. وانفلاتِها من مَداراتِ المعْنَى التي تطوّق القصيدةَ. بالنقادِ والقواعدِ والعقَائد. لا تريدُ شيئاً. إنها تريدُ فقط. فراغَها. مناهضةً للسرعَةِ. والتوازُنِ. حتى تتحرّر من أعباء ليستْ لهَا. هي وحدها. ترقُص. معَ الصّباح. والغيماتِ التي لا أفهمُها. وأنا سعيدٌ بذلك. أبياتٌ تتعاضَد. أبياتٌ تتوالجُ. هي الباحثةُ عن مُرتماهَا. في الطوفان الحُر للطيُورِ. والبجعِ الذي يغْلُو.

(5)

طريقٌ. وهذه أهوالُها. دائماً مفاجئةٌ من الجهةِ المباغتة. حيث لا أنتظرُهَا. أهوالُ أن تكون عاشقاً لحرّيتكَ. في أرضٍ هي الثغرُ. كُنْ لنَا أوْ لاَ تكونْ. اخْضَعْ لأمرنَا أو نهايتُك هي ما تمْلِكُ. تخيّلْ أنك ما زلت وَاقِفاً. ولكنّك. مهْما ابتعدتَ. تلك الطرقُ مفضيةٌ إلينا. في الوقت المناسبِ. وهُمْ يلاحِقُون الجهاتِ حتى تَضيقَ. والوقتُ. حتى يذبُلَ العشقُ. بين لحظةٍ ولحظةٍ. وأنت ستتعلّمُ كيْفَ. ستُفرغ صرْختَكَ من كُلِّ نَداءٍ. مدادٌ وسهَرٌ. مدادٌ وليلَةٌ قادمةٌ بأوجاعها الشخصيةِ. هل تندم علَى طريق واختيَار؟ أتساءَلُ. وصدفةُ المنعرجَات لا تغِيبُ. كلُّ ما قادك إليْكَ. ينحلُّ مع الغيْماتِ. والطيورِ المهاجرةِ. في الجهَاتِ التي تردّد عليّ. فافهَمْ. وأنا في غيبةٍ. تستغْصِي عليّ.

في أثناء الثمانينيّات انتهتْ طريقٌ. لتبدأ طريقٌ. عند المحيطِ الأطلسيّ. ووردةٌ ترتطِمُ ببصركَ خفيفةً. هي الحياةُ. لاَ. هي المَماتُ. لاَ. طريقُكَ مُضمِتَةٌ. وأنا. أيها الطفلُ. سلّمتُكَ لهذيانِك. على ورقَةٍ تُرعِبُك. دمكُ وموْتاكَ. معاً. على ورَقةٍ ستشهد أنّها لنفسِهَا. بحرية أنتَ تجهلُها. على الجانبِ. في الطّرف المحجوبِ. ورقةٌ بعْدَ ورقةٍ. أسرابُ طيرٍ. فافْهَمْ.

41. هلْ جاءكَ النّبأ؟

(1)

هناك صواعقُ تنزل في زمَنٍ لكيْ لا ننساهَا. صواعقُ تشِمُ أهلَ الأرض. في مكان النزُول. مباشرةً في ذواتنا. تنْزل في الأفكارِ والحساسيّات. في الأنظمةِ والأبنيّة. بدون إذْنٍ من أولئك الذين يعتقلون جهاتِ الصّواعق والأعاصير. تخترقُ الجامِد الذي كانَ من قبلُ جاهزاً في المكان. والذواتِ. على السّواء. تنزل لتصْعقَ القلوبَ وحدائقَها. الاعتقاداتِ ومُنشئيهَا. على غيْر هُدًى تنزلُ. كأنما هي البدءُ الذي لا يكفُّ عن أن يكونَ. بدْءاً. له الترجيعُ والتكْرِيرُ. من زمنك إلى زمنِك. وأنت تتأمّلُ يومَك وتاريخَك ووجودَك وعدمَك. على مقرُبة من الصّمت.

تكفيكَ صاعقةٌ واحدة. لا وحيدةً. في زمنِك. ليأخذك الصعقُ إلى السراديب. وأنت ترتجُ لتنصت. تتابع الصدَى فيك. في أحوال ما يُحيط بك. مساءَ صباح. ما كان قلقاً يتأكد. في المدارات الوليدةِ. تسْعى كأنك افتقدتَ الذي كُنْتَه. ذاتَ زمنٍ. لتبحث عن أنتَ الذِي لا تعرف عنه شيئاً. سوى هبّةٍ. تنشُر في جسدك الحمّى. والأصداءَ التي لا عهد لك بها. في الزمنِ الذي كنتَ تتوهّم أنكَ. تستوْلي عليْه. في كلماتٍ. والكلماتُ في أنفاسٍ. والأنفاسُ في زجاجةٍ. شفّافة إن شئتَ أن تقُول. أو لتقُلْ إنها عذبةٌ. فقطْ. حتى عندما تستعْصِي. عليكَ. بين الضُّحَى والضُّحَى.

هذه الصواعقُ التي كنتَ قرأتَ عنها. وبها امتزجْتَ. في لحظة من حياتكَ. لم تعُدْ مجرد مَا قرأتَ. بل هي الآن متشبثةٌ بأصابعك. تنفذُ من المسامّ. على النحو الذي هي تختاره. إنها أحياناً سُموم. أحياناً هلوساتٌ. أحياناً ما لا تستطيعُ ضبطَه. بين الأحمر الذابل والرماديّ المتقد. في الهُنَيْهةِ المفاجئة. وأنتَ بين صمتين. أو بين مفازتين قريبتين من هضبةٍ. عليها وقفتَ. ثم لم تتركْ أثرَهَا يذوب في صمتكَ. بل هي الآن تنفذُ إلى الدواخلِ لتُبصرك. منذهلاً بأفعالها الدورانيةِ. خالصةً. مختلطةً ومشُوبةً. من يدري؟ هذه الصاعقة التي لم تعُدْ مجردَ كلماتٍ على ورقةٍ. إنما هي في جسدِكَ غيرُ متباطئةٍ. حادةٌ. وعنيفةٌ.

وأنت لستَ معزولاً عن غيرك. في بلدِك وأرضكَ. هي لكَ ولهمْ. جميعاً. تنزل لتأكل من عظْمِكَ. ولحمكَ. خاطفةً. عاصفةً. هذه الصاعقةُ التي ابتدأتْ يوم كنتَ منهمِكاً في صوغ أسئلتكَ على نفسكَ وعالمكَ. جاعلاً من الآخرينَ ومنكَ. ملاذَكَ الأول للقلقِ. حيث لا أحد يسلّمُك إلى السكينةِ. وأنتَ في القراءةِ تمزّقُ ما تبقّى من يديْكَ. لعلكَ تعثر في النهاية على يدِك. مغسولةً من أردانها. والصاعقةُ التي تنزل هي الصاعقةُ التي تمزق. بينكُمَا الصداقةُ السريّةُ. أو بينكما المجهُول الآخِذُ بك إلى صوتِ الصاعقةِ وهو يحْفِرُ المجْرَى عميقاً في خَلدِك. وملكُوتِكَ. المشتملِ على قليلٍ من الظنون.

أجلْ. ظنونٌ قليلةٌ. وها أنت في حِضْن الصاعقةِ. مكتوبةً على جسدِكَ. نافذةً إلى خلاياكَ التي تكشّفتْ لك بين الصمتينِ. كأنّكَ إليها كنتَ تتوجّهُ. عازفاً عن معرفةٍ معلومةٍ. في عهدِك الأولِ الذي يتسمّى بالقناعاتِ الضروريّةِ. كي تكُون واحِداً مِنْ هؤلاءِ الساكنين على الأرض. ولا حجةَ لك. بعدُ. في الاختيار أو عدمه. أنت المُودَعُ في قالَب كلماتِ القبيلة. كلما عنّ لك أن تُمسك بالأطراف الأولى للعالَم الذي ينبُتُ فيكَ وحولَكَ. معكَ وبكَ. ثم لا تعثُر على غير كلمات القبيلةِ لكي تسمعَ وترى. عبر الآخرين. إلى صميمِكَ الذي يتحرّكْ كلمات. كلماتٍ. بها تتلمّس الطرقَ المفضية إلى غيرك. طاعةً وسمعاً. وأنت تفتقد فضاءَكَ الشخصيّ. ما دُمْت بكلمات القبيلة تعيشُ في فضائك. أعْنِي فضاءَهُم. كما تريد له كلماتُهم أن يكُون.

(2)

والصّاعقة نبأٌ. في اللحظةِ البيضاء تقرأه. قادماً إليكَ. ربما من الكوْن. ربما من الإبدالات العنيفةِ. ربما من السلُوكات المترددةِ. ربما من الأفعالِ العديمةِ الفائدة. وهيَ ليسَتْ كذلك. ألا بالنسبة لمن يَعْجزُ عن استبصار النبإ. وهو قادمٌ. بعزّته. على وقْع ذبذباتٍ تخف أو تتسارع. ولكنها في البدْء ذبذباتٌ لا تبين. ولا تبين. كيف أُدركها؟ أواجهُها؟ أسعى إليهَا؟ أحيطُ بها من كل ناحية غامضةٍ. عليك وعليّ. معاً؟ ثم هناك أقتربُ بالتردد الذي لا يتباهَى. أو بالعُنفوان الذي هو شيءٌ منكَ. في الساعاتِ الأولى من صوْت الصاعقةِ. النبأ الذي يعصِفُ بكَ. حتى لا تكُفّ عن الإنصاتِ. ربّما وحيداً. إلى التموُّجات المتسعةِ. شيئاً فشيئاً. بين يديْك المُمزّقتين. وأنت ترقُب اللحظةَ التي تبين لك الحالةُ. لتنصت بدقةٍ إليكَ. في الجلَبة والتوزُّعات.

هكذا شرعَتِ الصّاعقةُ أوّلاً. وأوّلاً. أشياءُ وكلماتٌ وأفْعَال. منذُ أواسط السّبعينيّات. ونحن نعْتقِدُ أنّنا أسيادُ العالَم. بين بيروتَ والدّار البيضاء. أو بين سَانْ مِيشيلْ والسِّين. كل شيْء قادمٌ لا محَالة. في الوقت المعهودِ من قبلنا. مُحرقاً وجارفاً. لا أحدَ ينتظر ما لم نكن على علْم بهِ. في البدايات المنقُولةِ عن كُتبٍ. وعن قناعاتٍ لا تكف عن أن تكون قناعاتٍ لمن هم بعْدَنا. كما كانت لمَنْ قبلنا. والصاعقةُ تختفي في الجزء المُخْتَفى من كلماتِنا. لأنها هناك أيضاً كانت تشتغل. لا أحدَ يدرك أنها نقيضُ كلّ ما تعودْنا عليْهِ. في كلماتِ القبيلة البعيدة والقريبةِ. نحن الهاربُون من سلطة الأب القاسيّ علينَا.

أخذ النبأُ يتشكل ونحن لا نصدّق. أي لا نُنْصِتُ جيّداً. جلبةُ الأفكار والقناعات. ومن يجرؤ على الإنصاتِ؟ تلك ريبةٌ تفضي بك إلى مقصلةٍ متعددة الصّفَائح والنّصال. كل واحدةٍ منها يجزُّ رقبتك قبل أن تنطق. علاماتُ وجْهك وحدَها كافية للإفصاح عما يتشكل من نبإٍ. في سرّك. تتقدم بشيْء من الصّمت. حتى تستكمل العنفَ كلَّه للكلماتِ التي ليست للقبيلة. بل لما هُو أسبقُ. لكَ. في الدخيلة. وما يرتجُ فيها. لحظةً بعد لحظة. وأنت تصارع الكلمات على ورقةٍ. تنظر إلى الصفِيحَة أو النّصْل. هل تجرؤ؟ لاَ تجرؤُ؟ هل المنصتُ إليك هو أنتَ أم أنتَ وغيرُك؟ ومَنْ هو هذا الذي تُوشوش في أذنه؟ قد تكونَ ريبتُك

في نفسك أخفُّ من ريبتك في الذي اخترتَ أن يكون رفيقاً لك في الوشوشة. تتقدّمُ نحوَ نفْسِكَ. طائعاً لكلماتِك. وأنت تعلمُ أنّك تفتقد من سينْصُرك على نفْسِك.

(3)

سأكْذبُ على نفْسي. لو قلت إن الصاعقة كانت ستأتي. على النحو الذي. أخذ النبأُ يتشكل به. إنه افتراءٌ على جسدي الذي لصرخْتَه أستسلم كلما استبدتْ به الصرخةُ. كنتُ. بالأحرى. ألتقطُ شفرةً تدلني على زمن نقاوم به الخيبات. ولكنها شفرةٌ ناقصة. حقّاً. كذلك كانت ناقصةً. وقد احتاجتْ لعقد من الزمن كي تُضيف حزفاً إلى نُقصانها ليتضح النبأُ قليلاً. عبر المساراتِ والخطابات. عبر الأفعال والأفكار. عبر الكلمات والإيقاعات.

لستُ أدري لم أصبحتُ أتردد على البحر. الصخورُ والأمواجُ والأفق. أو المدى السماوي والرملُ والسحبُ الخفيفةُ وحركةُ قوارب الصيد. هذا البحرُ الذي كان غريباً عني يلتبس بخطواتي. وأنا إلى البحْر أمضى. قد يكون مدعاةً للبحث عن استراحة موقتة. في فضاء أملسَ. ها هو البحر يقابلِ المرتمَى الأبعدَ. سمِّهِ السّفَر الحُرَّ في الصمت. سمِّهِ أيضاً منازلَ الرحْمةِ. نبأٌ يتشكل. وفي كل لحظةٍ هناك ما ينضاف إلى حروفِ الشفرة الناقصة. ذهاباً وإياباً. في الصمت. والشكوكِ المنعقدةِ. في الظهيرةِ. حيث يكون بوُسْعِي أن أظل متحركاً بين بُقَع صخرية يصعب أن تبلغها الجلبةُ.

وأنا هنا أرى إلى الأمواج المتشكلة. موجةً فموجةً فموجةً. تلك الأمواجُ التي تتشكل دون توقُّفٍ. إنها مجردُ أمواج. ماءٌ يتجمع ليعلو. ثم يعلو ليندفع. ولك أن تستلذَّ به مرتطماً بالصخر. أمواجٌ وصخورٌ. هواءٌ يهبُّ من جهة الشرق ولا تحسُّ أنك تبحثُ عن شيء. هناك الماء والزرقة والصخورُ والقوارب وأنتَ. ربما كان هذا كافياً ليصبح نوعاً من الشعيرة المبتغاةِ من أجل إتقان الصمت. وأُلحُ في أن لا ترغمني الأمواجُ على الإنصات لسواها. هذا السِّوَى الذي عادة ما كان مُفْترياً على الماء والبحر. في الظهيرة والمساء معاً. أنا هنا جئتُ لأغطس يدي في نهايةِ الأمواج. أغطسُها وأتلذذُ بالصمت.

الأمواجُ والبحر. ألستُ أمام مشهد الأبدية؟ ولمن هذا الضجيجُ الطافح من

الركن الأقصى؟ وتلكَ الأصوات التي أسمعُها وأرى إلى أصحابها وهم يهتفون بأناشيدهم الصباحيّة؟ إنني متيقن من أنهم لا يأبهُون بوجودي على السّفْح المنحدِر نحو البحر. يهتفون. وأصواتهم تختلط ببعضها بعضاً. كأنهم لم يغادروا البحرَ منذ الأزمنة الغريبة عنّي. أشترك معهم في المكَان. ولكنهم يحملون براميلَهم وقِفَافهُم. وفي المنطقة الصخرية. المتاخمة للبحر يهتِفُون. ويقهقهون. كلماتُهم لا أفهمَهَا. ولا أعتقد أن لي رغبةً أكيدةً في فهْمِهَا. إنهم. يهتفون. وأصواتُهم تتموج. تنخفض لتعلُو. وأنا أتلذّذُ بالصمت.

(4)

شيءٌ من النبإ. لم يفض إليّ به البحر ولا الأمواج. هي القصيدة كانتْ أقربَ إلى الصاعقة. ولا علمَ لي بذلك. القصيدةُ التي لم تعد تريد أن تقول شيئاً. كيف لي أن أُجْبرَها على ما لا تريده. إنني بحاجةٍ إليها. حاجتي إليها أصبحتْ حادّةً. والنبأُ الذي يتشكل. عليّ ألاّ أخشاه. على أن أتهيأ لهُ. صدري لن يقْوَى عليه. أعرف هذا تماماً. وكلما أتممْتُ استعدادي للهروبِ كانت القصيدةُ تطاردني. ذلك النبأُ هو ابنُ الصّاعِقَة. صرُوحي الأخيرةُ كفّتْ عن أن تكون أخيرةً. يوماً بعد يوم تتسع حروفُ الشفرة.

أيها الجسدُ ساعِدْني على التحمُل. إنني أهْوِي إلى غوْر لا ملْمُوسٍ. غوْرٍ يذهب فيه الكلام ولا يعود. يدِي التي كانت لي لمْ تعُدْ هي الأخرى يَدِي. إنها عضوٌ يثقل علَى الكتفِ. وأنا أعلمُ أن الصاعقة تتشكّلُ. بقوّتها. دون أن أُدرك تماماً أن كل شيء سيهوي. البحث عن الذات. أبرزُ صفات السبعينيات. تلك المشاهدُ المتآخية افتقدتْ ما كانت به تلتئم. الاسم يتفتّتُ. على العتبة. هل هذه الصاعقةُ لي وحدي؟ تأكيداً أنها ليست كذلك. ولكنها تأكل من عظامي. بوحشيّةٍ تأكل. هذه الصاعقةُ. تنزِلُ. لا من السماءِ. حتْماً. تنزل من حيث لا أعلم. تحتها الصروحُ الصغيرةُ التي تنسحِقُ. ذراتٍ من غُبار.

(5)

والنبأُ لم يكن كامناً في الأمواج والبحرِ. إنّه كامن في الأشياء والكلماتِ والأفعال. تتسع لتكبر حروفُ الشفرة. وأنا على المحيط الأطلسي أستفردُ

باللحظةِ. أذكّر نفسي بما لا تُدرِكُهُ نفسي. وشوشاتٌ تهيأتْ لتصبح حالةً. لها السموقُ المطلوب لأبتعدَ عن افتعالِ الأمل في شيءٍ مَا. أجرّب حدودَ الكلماتِ في زمن يتبرأُ منهَا. حسناً. هذه الصاعقةُ. بجوْفِهَا الناريّ. هل أتوهمها أم أنني كنتُ أتوهّم نقيضَها؟

لعلي. هنا قادرٌ هذه المرة على الإنصاتِ للنبإ الذي تشكّلَ الآن. كما كان عليه أن يتشكّلَ. ذبذباتٍ لوشوشاتٍ. وأنا أسْعى. في ناحية ما. مجهولةٍ عنّي. تماماً. ولا أذكر أني أعِدُها بشيء. كلماتٌ تتقطّع في الصباح والصباح. الصاعقةُ بالحِمَم. والهديِر. في أعْضائي. مع بداية التسْعينيّاتِ. في نهاية قرنٍ. وأوهامٍ. أستعجلُ الاقترابَ منها. أمامَ نفْسي. نفسي العاريةِ من أوهامِهَا. أمامَ نفْسي.

42. دُكْنَةٌ لاَ بُدَّ مِنْهَا

(1)

لي أحوالٌ أصبحتْ تلازمني. وأنا أعرض على نفسي عوالمَ لم يكن لي بها من قبلُ هذه الصِّلات. ماشياً في الطرق والشوارع أو مختلياً في مكان. أنزل الدُّرجَ أو أواصل السير في القيظ وتحت الأمطار. تلك أحوالي الطارئةُ عليَّ. في منتصف النهار. وأنا أبحث عن الباقي من العالم في جسدي. هذه الأحوالُ التي تصيبني في زحمة الاختلاط والانفتاح. والغبطةِ أحياناً. يداي مخلوعتَان. عيناي مرميّتَان. في حفرة. عميقة ومعتمة. هذه الأحوالُ الطافحة من كلمة أو فعلٍ. يبدو أنها عزيزةٌ على نفسي.

وهي ليست كذلك. في المساءات والصباحات الوافدة عليَّ من الحياة اليومية ومن خيالاَتي. كلها تلتئمُ في دكنة لا بدَّ مِنها. صُوَرٌ للوضوح. في جسدي. على الأقل. وأنا بينها أنتقل بين الأزمنة والأمكنةِ. مَنْ منكم يدلُّني على بقايَا الصرخَةِ في شراييني؟ أسأل نفسي مُعْتَقداً عن يقين أني أسأل غيري. وأنا لا أسأل أحداً. نفسي أو غيري. هي أحوالٌ طائفةٌ بي. قادرةٌ على اقتلاعي من يقينياتي. تبعثُ بالمستقر في حياتي. دكنةٌ تخترق الزمنَ بطيورها الغريبة. ألوانٌ لا تتشابهُ. أجنحةٌ من غبار. وهذا المدى الصامت الذي لم يتعرف بعد على صمت الدواخِل.

هناك ما يَشِعُّ في المساء والصباح. ويداي منبسطتان على أوراق. فيها أقرأ مآلاً عليَّ التسليمُ به. قبل فوات الأوان. إنها لعبة جديّةٌ هذه المرة. أن تظل

صامتاً في الأوقات التي لا يعرف عنها غيري شيئاً. أوراقٌ. ما الذي عليَّ أن أفعله الآن بحياتي؟ سؤال يسخر مني. حتماً. هناك ما لم يعد يقبل بالشكوك. وما يستحيل البدءُ به. أحوالٌ. في مقهى كنتَ تفضّلُها. وأنتَ الآن تقتعد كرسياً ولا رغبةَ لك في شيء. ترى إلى العابرين وكأنهم يمثّلون على خشبةِ مسرح. السياراتُ آلاتٌ متسارعة وفي أحشائها أشباح. أشجار تواصل خضرتَها في عينيْك. ثم لا تركّز على أحد. لا تنصت لحوار دائر بين شخصين أو بين جماعة. كل ذلك يمر خارج الرغبة.

دكنة تلامسها متلبّدةً في جوفك. وأنا منصرفٌ إليك. وإليها. هذه الدكنةُ. عادةُ التآويل غير مقنعة تماماً. طبقاتٌ رمادية يلامس بعضُها بعضاً. رمادي متخثرٌ. أحسه يتموج بين الفينة والفينة. هل أنا الآن أقاوم ما أخشاه؟ أم أنني أرى إلى الحادث في جسدي وعلى وجهي ذكرَى زمنٍ مضَى؟ صور متلاحقة تلعب بكلماتي الصامتة. عالم جديد. إنه صمتي. نعم. كان دائماً صمتي. وها هو يستقيم مرة أخرى. على هيئةٍ تكاد تكون فارغة. طبقاتُ الدكنةِ تعرض عليَّ أنحاءها. من ريشٍ وماءٍ. وأنسى أن الطبقات في كتفي تنتعش. كلُّ طبقةٍ تنسى أختها لتبعُد في الفراغ. من الكتف إلى الصدر. أو من الكتف إلى الساقين. برودتي ثابتةٌ. بقايا ذكريات كنتُ بها أعطي للحياة معناها.

(2)

هذه الأحوال. معها. يتحول موتُ بعض أصدقائي إلى نافذة تتسع. بين الدار البيضاء والرباط. كنا رغم خلافاتنا نحس بألفة بيْننا. لا نجرؤ مراتٍ على التداول في اختلافاتِنا. ولكننا كنّا. على الدوام. ننصت لبعضنا. نضحك من أيّامنا ومما سنكون قريباً. نسياناً مُضاعَفاً لما كنا نحلم به. ثم لا يأخذنا النوم. نواصل الحوارات عن الشعر والعالم. نتحاشى أن نتذكر. نكتفي بالتعليق على خبر ثم نبلل أجسادنا بالضحك. هذا يكفي. كنت أقول. ما دمنا لا نتوهم شيئاً. نبحث عن بقايانا في جدار أو رحلة أو وجه كان مرَّ بنا ولم نفْطِنْ إلى أنه سيلازمنا حتى لحظة حديثنا. كنا نجْتمِعُ بحريّتنا. وحولها يسمح كلٌّ منا لنفسه أن يختبر قوّةَ الآخر على الضّحِك. من المصائر التي أصبحنا شاهدينَ عليها.

ذلك الموتُ أشعرني أن الوقت قد حان. صبواتٌ عليّ استقدامها لمقاومة المسار اللامنتظر. حيث من المحتمل أن أكون أمام ما تجنّبتُه باستمرار. ومَنْ يذرِي؟ لعلي لن أعثر على شجاعتي القديمة في مواجهة وقاحةِ العالَم. لست متأكداً من حتم أن أكون على النحو الذي اخترتُه لحياتي. هو الموت. يأتي. في زمن يعلن عن قساوة وشراسةٍ في آن. لن يختلط عليّ الأمرُ. لقد أصبحت متيقّناً بأن ملازمة النافذة أرحمُ من سواها. لا بمعنى استدعاء سوْداوِيّة مُفْتعلة. أبداً. قصدي. أن الدفاع عن حريتي أصبح صعْباً. صعْباً. ولا يمكن التكهن بالمآزق التي ستُغير عليّ. في اللحظة المفاجئة بين العالم وبيني. هناك أكثرُ من سبب. وأنا لا أدّعِي بطولةً. كنتُ أختار لحريتي حَصانتَهَا. ولا أدري تماماً. هل ما سأفعله ناتج عن اختيار أمْ عن خوف. من الاحتمالاتِ التي يصعبُ تقديرُهَا.

الموتُ. هي الحياةُ بصيغَةٍ أخرى. لا تنفصل الحياة عن الموت. هما معاً يتجاوبان في الدكنة ذاتِها. قديماً تعودتُ على ذلك. يوم كنتُ أرفع بصري لأرى الحياة فلا أعثُر عليها إلاّ من خلال الموت. الغيابُ مؤجّجٌ للحضور القويّ. الذي لا نخذِلُهُ. لمجرد أن هناك ما يستدعي الموت. ورمادُ الكتب كان دائماً ينطِقُ. أصدقائي هم الآخرون كان يفهمُون ما أقصد عندما أشرحُ لهم كيف أن الكتابةَ ذاتُ مصادِرَ مجهولة. ولكل واحدٍ منا مجهولُهُ الذي لا يمكن له بدونه أن يكتب. المجهولُ ربما كان هُوَ الموْت. والكتابة هي تأكيداً مقاومةُ الموت. الدمُ والموتُ. والتصدّعاتُ التي كوّنتْ أنفاسَنَا. في منطقةٍ أصبحنا ننتمي إليها بالمُوسِيقَى والوشُوم.

لم أكفّ عن التفكير في موت عددٍ من كُتّاب ومبدعي المغرب العربي وهم يفتتحون شبابهم. هذا الموتُ الذي يستولي علينا يتعذّر تصديقُهُ لمجرد أنه فائِضُ الطبيعَة. أنا لا أصدّقُ ذلك. وغيري له الحقُّ في السخرية مني. لأني ألازم النافذة المتسعة بين مدينتين. الواصلةَ إلى طنجة وفاس ومراكش وأكادير. في كل واحدة من هذه المدن هناك من ودعناه بحيرة السائِل. والعوالمُ تصدعت في حينِهَا. مترافقةً مع هذا الموت المتعدد. لا نتيجةً لهذا أو لذلك. لكنّها حصلتْ في الوقت ذاتِهِ. والدكنةُ تستولي على أنفاسي. في هذه الأمسية. أمام الحديقة الكبرى بالمحمدية. لا أتعوّذُ مِنْ حضُورِهَا. في هذه الأمسية. لأنني لم أخترعها. ولست مسؤولاً عنها.

(3)

لا أخاف الموت. بيني وبينه أُلْفَةٌ. حالةُ الصمت العظيم. هو الموت. والنهار الذي ينتصف لا يجتلب ضرورةً هذا الإحساس الذي يشرع في الاكتمال. ثمة مرحلة أو رحلة. هي كذلك. وفي الموت بياضٌ يغطّي الرأس والجذع والأطراف. قماش أبيض. ورائحة البخور. هل هكذا سيكونُ موْتِي؟ من العبث أن أعبأ بذلك. ما هو أسبق هو كيف نقاوم الموت. في كل لحظة من حياتنا اليومية. كيف يتيسر لنَا أن نظل أوفياءَ لهذه المقاومة. عوالمُ التصدعات هي ما يدفعني لتبصُّر المآل. وهل أنا بحاجة لتفكير كهذا؟ مسألة الموت غالباً ما نؤجلها ثم نؤجّلها. وأنا يلازمني الموْت. لا أقْدِرُ على تأجيلِ التفكير فيه. بطريقة يصبح فيها الشعرُ والموتُ أخويْن. حميميْن. كل منهما يضيء للآخر نصفَ وجهه المحجوب. عبر العصُور والحضاراتِ. وهؤلاء الشعراء الذين استوْعَبُوا ذلك جيّداً. بصرف النظر عن اللغات والدوائر الميتافيزيقية التي نحن مشروطُون بهَا.

لم ينْتَهِ شيءٌ ما لنقولَ إن علينا البدءَ في التفكير في الموت. هناك دائماً مجهول الكتابة. وهو يفعل فعله في انبثاقها. كلما حان الوقتُ لأخذ الموت مأخذَ الجِدّ. الحكايات التي نرويها بعد توديع عزيزٍ علينا لا تنفع في استحضار مقاومةِ الموت. ندفن أمواتنَا ونمضي. على عجَل. إلى تفَاهاتنا اليوميّة المعتادةِ. كما لو أن الموتَ منفصلٌ عن حياتنا. كما لو أن قشعريرةَ الموت تسكُن الميّتين وحْدهُمْ. حين يأتي احتضارُهُمْ. عبثاً أحاول إقناع نفسي بمثْل هذا الاعتقاد. والكتابةُ بدورها تُضيف إلَى عدم اقتناعي ما أرغبُ في المحافظة عليه. فقط. هناك تلك اللحظةُ التي سيكون عليّ فيها أن أحاوِلَ الصرخةَ. لأني عاشق للحَيَاة.

الصرخةُ. من سيسْمعُهَا؟ لا أنَا ولا غيري. كذلك رأيتُ نفسي في حلم. وأنا أمدُّ الساقين إلَى داخل القماش الأبيض. حولي أشخاصٌ لا أعرفهم. إنهم يحمِلُون القُماش الأبيض إلى أعلَى. والكلُّ صامتٌ. لا ينطق بشيءٍ. بصرخة أو نحيب أو مواويل. عيْنِي علَى الشرق. بياضٌ تراءَى لي شرقاً. وما هو بشرْقٍ ولا غرْبٍ. كلمةُ الشرْقِ وحدَهَا. ساقاي تتدليان في القُماش الأبيضِ المحزُوم من أسفَله. وحولي منْ لا أعرفهُم. صامتين مثلي. يرون إليَّ. وأنا في صحوة

مُنْكِرَةٍ. كلمةُ الشرق. ونثارٌ من الدم يقذفه لساني. مِنْخرةٌ موضوعةٌ فوق صخرةٍ. وأنا أمدُّ الساقين. في بياض القُماش. والصمت.

(4)

هل أنا متشائم؟ هلْ أنا متفائل؟ أنا أكتبُ فقط. وحلمي هو حلمي. أستيقظُ من النوم. ولا أفهمُ شيئاً. هناك قشعريرةٌ تالية للموت. هل هذا هو الموت؟ ولمَ الموت الآن؟ بوُدي لو أصبُّ ماء بارداً على جسَدِي. وأكتبَ في دفتر. بعيدٌ هو قصدي أن أدوّن ما رأيتُ في الحلم. ولكنّهم أصدقائِي. لا أعرف منْهُم أحداً. يحملون وجوهاً لم أتمعّنْ فِيهَا. لأنّني لا أودّع أحداً. هناكَ القُماشُ. وأنا أتساءلُ بعْدَ الحلم. أتساءلُ هل يدي هي الأخرى قادرة على الكتابة؟

تلك الدكنةُ لا ترتبط بالحلم. وبالصّحْو. لا تقترن بِهِمَا. هناك حلمٌ. كان ذات ليلة. ثم الدكنة التي أخذتْ في الالتئام. منذ بداية التسعينيّاتِ. في دخيلتي. وكأنني أحْيا بهَا حياةً أتفحّصُها في الكتابة. لتزْدادَ عتمتُهَا. عليَّ. بها. وفيهَا. أعيد قراءةَ تصدُّعاتِ العَوَالم. أبحث عن ضرورةِ الشّعْر في زمنِ الدكنة. الذي هو الزمنُ المتاخِمُ للرجاء في سفرٍ لا يتحدّدُ بزمن. زمنان يتصاحبَان في الصّيْحَة. وكأنَّ الذاتَ الواحدةَ تعيش أزمنتَها المتعددةَ. من أفق مكْسُوٍّ بالجبال إلى أفق ينبسِطُ قريباً من أمواج البحر.

(5)

دكنةٌ وأصدقاءُ يموتون. كما كان أبو القاسم الشابي ماتَ في الفجر. على سريرٍ أبيض. وهذا المساءُ ببعض رطوبته الساحليّةِ يبرُد في أعضائي. متأمّلاً في عنف العالم. متوحّداً بالصمت. والهواءِ الذي يتحرّكُ. هناك جدارٌ وشبّاك مستطيلان. يعلُوان قليلاً. إسفلتٌ معمّمٌ في الساحة. والسماءُ في مكانها دائماً. هذا المساءُ. في الطرف الهادىءِ من الكلماتِ. أشخاصٌ يخفُّ ضجيجهُمْ. حقّاً. أصدقائِي. موزّعُون بين صمتهمْ. أنصتُ له. ولهُمْ. كيف أقاومُ الموْت؟

43. اللّغةُ العزِيزَة

(1)

لغتي. التي أفترضُ أنها لغتُكَ أنت أيضاً. أقصد بالمخاطَب. هذا المغربي الذي كان معي في المدرسة. وإلى جانبي تعلّمَ. وهو قبل ذلك كان ابنَ أو حفيدَ أحدِ رجالاَت الوطنيَّةِ. في فاس أو غيرهَا. عبر المدُن الكبرى منَ الشّمال إلى الجنُوب. مخاطَبٌ له القرابَةُ المألوفة مع منْ علّمُونا أن العربيةَ هي أنفاسُنَا التي بدُونها سيتحوّلُ الجسَد إلى حُطام. في كل حيٍّ كان الوطنيُّون ينتقلون من بيْتٍ إلَى بيْتٍ. كلامُهم كان حاضراً بيْنَنَا. ونحنُ نتعلّمُ. بغير إرادةٍ منّا. ما يقولُهُ الواحدُ للآخَرِ. عندما كنا ننذَهِلُ لسمَاعِ الكلِمَاتِ التي لا نفْهمُهَا. لا أحدَ منّا يجرؤُ على أن يسأل عنْ معْنَاهَا. حتى جدّتي. التي لم تلْتحِقْ يوماً بمدْرَسَةٍ. ولا حتى بجامِع. بدوْرِهَا تُنصِتُ باهتمام. تهزُّ رأسهَا. ونحن متأكدُون من أنّها. لا تفهمُ شيئاً. مِمّا سيقولُون. كنّا. هي ونحْنُ. في عمُرٍ تعليميٍّ واحدٍ.

والعربيةُ تتجوّلُ في الأسواق والقلُوبِ. حاملةً لآياتٍ وأحَادِيث. حاملةً لشعاراتِ الوطنية والأناشيدِ. نحنُ لا نفْهمُ سوى أن العربيةَ هي معْنَى الاسْتِقْلاَل. جدّتِي لم تكُنْ تعرِفُ ما معْنَى العربيّةِ ولا ما معْنَى الاستقْلاَل. لكنّها. كانتْ تهُزُّ رأسَهَا. بخِفّةٍ. الاستقلالُ والعربيةُ. الاستقلالُ وتقْسِيمُ الزّنْقاتِ بحبْلٍ إلَى يمين وشِمَال. الذاهِبُونَ والقادِمُونَ منظّمُون. كلُّ فريقٍ في جهَتِهِ. أصحابُ الشّمال وأصحابُ اليَمِين. في الحياةِ الدُّنيا. وبين أزقّةِ فَاس. القادمُونَ والذاهِبُون. والعربيةُ. نشيدٌ يصْعدُ في هَوَاءِ الصّباحَاتِ وبُرودتِهَا التي تتحوّلُ إلى زمْهرِير. النشيدُ مطْلُوبٌ مِنّا. في السّابعَةِ صباحاً. لنحيِّيَ الوطن. سماءَهُ وسهولَهُ ووِدْيَانَهُ

وجبالَهُ وتِلالَهُ. نحيّي أرضاً خَلاءً. وسَماءً. لأوّلِ مرّةٍ لا يسكنُها الملائِكَة. مِنَ الجامِعِ إلى التجمُّعاتِ الوطنيّة. تظهر سماءٌ بدَل السّمَاء. مِنْ مأهُولةٍ بالملائكَةِ إلَى مُجرّدِ كلِمَةٍ. سماءُ الوطَن.

والعربيّةُ التي عوّدُونَا على حُبِّهَا هي أختُ الوطَن. أختُ الدِّين. وأنَا لا أفْهَمُ كلَّ هذَا. أقرأُ العربيّةَ. وأَضِيعُ بين صوامتَ وصوائِتَ لا أريدُ أنْ أفْهَمَ منها شيْئاً. يلذُّ لِي أنْ أنطِقَ بها وأكرّرَ النطقَ. وعندما أبلغُ الجَحِيم يقشعرُّ بدنِي وأُصاب بكآبةٍ. أحبُّ العربيةَ بدون جَحِيم. بدُونِ سَلاَسِلِ وأغْلاَل. سلاسِلُ وعُودُ السّفَرْجَل الذي كان يتوعّدُنَا به الفَقِيه أو يضْربُنا به مِنْ غير اكتراثٍ بموْقع الضَّربَات. وهذه السلاسلُ. والخالدونَ فيهَا أبداً. أعشقُ الجُمَل الفرِحَة. الجُمَل التي أَنطِقُ بها فأحسُّ أنّي طائِرٌ بين هَوَاءَيْن. ثم وأنَا في مقْعَدِ المدْرَسَةِ أكتَشِفُ أصواتاً غريبةً على أُذنِي. رُبّما كان إلقاءُ المعلّم. ربما كان صوتُ تلميذٍ يتهدّجُ. وفي ذبذباتِ صوْته أنين أو ابتهاجٌ منحدِرٌ كلٌّ منهما من مَناطق مُعْتِمَة.

هذه اللغةُ. العربيةُ. التي ابتدأتْ. بالنسْبة لي في الجامِع. ثم انتقلتْ معها مِنْ مدرسَةٍ إلى مدرسةٍ. لم يكن يتحرّكُ فيها ما كانُوا يقُولُونه ويردّدونَهُ. الاستقلال. كانت الأصواتُ والكلماتُ والجُمَلُ والنصوصُ تتّسِعُ في الصّدْر. وأنا ألْهو. منفرداً بهذا كُلِّه. لم تكُنْ لديَّ لُعَبٌ. العربية هي لُعَبِي المفضّلة. وأنا أقرأُ. ثم أقرأُ. لأكتشفَ لاحِقاً مجْدَ هذهِ اللُّغَة. نصوصٌ شعريّة. قِطَعٌ قصِيرَة. والعربيةُ يتنامى مجْدُهَا. حسَب معرفتي بالشُّعراء والكتّاب. لم يكُنْ يهمُّني. قطْعاً. أن أُناقِشَ مصْدر هذهِ اللُّغة. ولكِنْ هناكَ ما كان يُقنعني بأنني في صُحْبة لغةٍ جميلَةٍ وفاتِنَة. كلمةٌ بمفردها تسْتولِي عليَّ. أحياناً. ثم لا أُطالب العالَمَ بشيْء آخر. في أزقّةِ فاس. المفتوحةِ على زُرقة السَّماء بين جدارَيْن. وهواءَيْن.

هل تعلمتُ العربيةَ لأدافع عنهَا؟ لستُ أدري. رُبّما كنت لاَ أُجِيدُ الدفاعَ عن القضايَا. أنا طائِش. حقّاً. في رأسي سُحُبٌ تتراكَض. وعلى لسَاني صمْتٌ أنْعم بمذَاقِهِ كلما كان العالَمُ حولي متهافِتاً. هذا ما أذكّر به نفسي كُلّما أصبحتُ متورّطاً في معركة لا أختارهَا. العربيةُ أعشَقُها. لأن هناك شعراءَ وكتّاباً وهبُوها البهَاءَ الذي لا مردَّ لَهُ. وأنا أعْشَقُهَا لهذِهِ الإبداعيَةِ التي صانَها شعراؤُها وكتّابها. هم الحافِظُون لهَا. عندما أقرأُ أو أُنصِتُ إلى نصٍّ عربي يترقرقُ منه السّلسبِيلُ.

أحسُّ بأن لي لغةً لها حقٌ أن تسْحَرني وتُبعثِرَ أنفاسي على عتبة الشّطْح. فأنا ضعيفٌ أمام جمَالِ العربيّة. لغةٌ لها كواكِبُها ومجرّاتُها. نفحَاتُها وسَاحِراتُها. لها باختصارٍ هذه الصدمةُ التي لا توجَدُ بدونها أيُّ جماليّةٍ متفرِّدَة.

(2)

تأكيداً أن علاقتي العاشِقَة بالعربيّة كانتْ نِتَاج بحْثِي عن الشّخصيِّ الذي تُلبّيه لي النصوصُ العربية. عندما أبحثُ. لم يكن العشقُ ممْكناً لمجرّد أن أقرأ أيَّ شيء. هذه حماقةٌ. وغباوَةٌ أيضاً. وكان يستحيلُ عليَّ أن أسْتَسْلِمَ لغوايَةِ العربيّةِ لو أنني كنتُ أتعامل معها بمنظُور الوطنيّين. لغةُ الدِّين والعرُوبَة. هذه الكلماتُ كانتْ أكبرَ منِّي. حتْماً. وأنا لا أفهمُهَا. ولا غيري من الأطفال الذين كانوا أحْسنَ منِّي حظاً. العشقُ كان انبثقَ عن ارتعاشَاتٍ. في كل مرة أشْعُر بالارتِعَاشَاتِ تحتدُّ وتصْفُو. وفيها تحوّلَتِ العلاقةُ العاشقةُ إلى شَاقُولٍ بِهِ أقيس بهاءَ النّصُوصِ بالعربيّةِ أو بغير العربيّةِ. صدمةٌ وارتِعَاشٌ. هو الجسد يفتقِدُ انضباطَه. وأنا لم أعُدْ محايِداً. أمام العربيّةِ. أغنِي أمام جمالِ كتَابَاتِها المتفرّدَة.

تلك الأيامُ النائيّةُ عنِي. الآن. كانتْ تحمل لي شُؤماً يتضاعف احتدامُهُ في الدّخيلة. بعد الاستقلالِ. مباشرةً. بدُون تأخِير. أصبحتِ العربيةُ علامةً على التخلُّف والتقليد. مَنْ كانُوا بالأمس يقْرِنُونَ العربيةَ بالاستقلالِ أصبحُوا يسْخَرُون مِنَ العربيّة. أمامَ عينِي. أنا الذي سمعتُهُمْ بأذُنِي. مِنْ قبلُ. أصْبَحُوا يسخرون منْ هذه اللغةِ. وكنتُ أحسُّ أنهم جميعاً يسخرون مِنّي. مِنْ غباوَتي. فجأة أصبح الحديثُ بالعربيّةِ. الكتابةُ بالعربيّةِ. المراسلةُ بالعربيّةِ. الضحكُ بالعربيّةِ. كلُّ هذا مثال سُخْرِيَة وإهانَة.

هؤلاءِ جميعاً كانُوا مغارِبة. من أهل المدُن ومن بين المناطِق المأهُولة بالنّاطقين بالعربيّة. الفرنسيةُ عنوان الامتياز. والفخرِ. والانتماءِ إلى الحياة الحديثة. الفرنسيةُ. تحديداً. وأنا لا أفهمُ شيئاً. تماماً. كيف لي أن أفهم؟ أنا ما أزال طفلاً يُشرف على المُراهقةِ. وأيام الطفولةِ الأُولى انحفرتْ على جسدِي. لا سبيلَ إلى التخلُص منها. أبداً. أو على الأقل آنذاك. تلكَ أيامٌ مَهيبة. بأناشيدها ومُظاهراتها. وأنْباء دَمِها. لا أستطيعُ أن أنْسَى ذلك. والعربيةُ التي أخذتُ أكتشِفُ جمالَها. كيف أفعلُ مع هذا كلّه؟ الساخِرُون. يكادون يبْصِقُون على كُلِّ متكلّم

بالعربيّة. وكثيراً ما رأيتُ المتعلّمِين بالعربيّة يحاوِلُون التخلُّص مِمّا تعلّمُوا ندماً على ما كَانُوا.

تلك الأيامُ هِيَ صدْمتِي الأُولَى. في الحياةِ الجديدةِ. كانتِ السياسةُ عصيّةً على فهْمِي. ولكنّ اللغةَ. التي تعلّمْنَاهَا. الاستقلالَ الذي كانوا يذكّرونَنَا به. لم هذه الإهانةُ وهذه السخرية؟ أسئلةٌ تتبلْور في صمْتِي. وفي حيرتي التي كنتُ أراقبها وهي تتحدر بين اللحم والعظْم. أُبصرها وأستغرقُ فيها. جسَدِي بكامله يختَار. واللحمُ يتمزّقُ. ممعِناً في الصمت والحيرةِ. هكذا أصبحتُ. ولا أصرّحُ لأحدٍ بما أُعاني منه. تلك مَهانتي العظْمَى. في اللّيالي والصّبَاحَات. حيث البحثُ عن الامتياز. أقصدُ المالَ والمناصِبَ ذات المردوديّةِ هي معيارُ الانتماء إلى المجْتمع الجديدِ. مجتمعِ الذين أغْلقوا على الاستقلالِ في خزّان المصالِحِ. والفوائِدِ المادية. التي هي النهَايةُ. الولايةُ. الهيْبةُ. المجْد.

(3)

وها نحن الآن في التّسعينيات. نعيشُ مُجدّداً تلك الحالةَ. في أعْقابِ حرب الخليج مباشرةً. بعد أن كنا في السّبْعينيّات والثمانينيّاتِ قد تأكدنا مِنْ أن العربية لا تُؤذِي أحداً. مِنْ أنها يمكن أن تُنعِشَ القلْبَ. والأنفاسَ. حينما امتزجتِ العربيةُ. في السّبعينياتِ. بالشبيبة المُحْتَجَّةِ. وبالعرُوبةِ. فلسطينياً. حينَما أصبحْنَا نُتابع حماسةَ الشّبِيبَةِ وهي تقرأ الشعرَ وتطالب بالعربيَّةِ. حينما كانت الحياةُ بالنسبةِ للمغاربةِ تخْتلط بما هو عرَبيٌّ. في الوقت ذاته الذي تبْحَثُ فيه عن ذاتِهَا. بارتعاشةِ الأعْضاء كلِّها. آنذاك كانت العربيةُ تتحوّلُ بحيويتها إلَى مجالٍ للتّعبير والاستِعْمَالِ. هناكَ وهُنَا. من البيتِ إلى الشّارع إلى العمَلِ. والناسُ يمزجون مغربيّتَهُم بعرُوبتِهِمْ. كتاباتٌ تفوقُ التوقعاتِ. والبدايةُ اندماجٌ في عربية بها ننْتسِبُ لعروبَتِنَا. وبتعلُّم الفرنسيّة نُتْقِنُ العربيّةَ. نُنعِشُها أيضاً.

والتسعينياتُ زمنٌ لاختطافِ أحْلامِنَا. مُثُلٌ ورمُوزٌ تهْوِي مع العربيّة. عالَمٌ يتشظّى أمامَنا. القيمُ ليسَتْ لنَا. ونحنُ لا نبحثُ عن قتْلانَا. لم يعُودُوا جزءاً مِنَّا. إنهُمْ هناكَ ميتُون. هذا يكْفِي. لا تسْأل عنْ أحدٍ منهُم. صمتٌ مفاجِىءٌ سيهجم علَيْك. وأنتَ لا تدري مِنْ أين أتاكَ مَا أتاك. سماؤُك الصغيرة تفتقِدُ اطمئنانَها. إنها تختَفِي وراءَ كلِمَاتٍ رماديّةٍ. هي ما نتعامل به. في حياتِنا الانتقاليّة. ثم تصْفُو

الكلمات. ليبدوَ كلُّ شيءٍ في تمامه. هلْ أنتَ مِنْ هُنَا؟ هل أنت مِنْ هُنَاك؟ وأنا لا أفهمُ شيئاً. هذه اللغةُ التي يتجنّبها ويتبرّأ منها أهلُكَ وأقربَاؤُكَ. هي العربيةُ التي شطّبتْ عليها الإدَاراتُ العموميّةُ والمصالحُ الإداريّةُ والاجتماعيّةُ. حتى الشؤون الاعتياديةُ. شؤونُ التحيّة. صباحُ الخير. مثلاً. لم تعد تَسْعَدُ بالعربية. لغةٌ ميّتة. جثّةٌ تتضح زرقتُها. في الموتِ والموْت.

تلك عادَاتُنا الجديدةُ. وذلك وطنُنَا الجدِيدُ. في التّسعِينيّات. عالمٌ يتّحِدُ لنتمزّقَ. يدافع عنْ لُغتِهِ لنسْحَق لُغتَنَا. يُباهي بذاتيّتِهِ لنُحْرق ما تبقّى لنَا من قدِيمنَا الجَمِيل الذي كان يفْعل في حياتِنا وموْتِنا معاً. ونحن مُنصاعُون. في كل يوْم نزدادُ عبوديّةً. ونزداد تنكُّراً لأنفُسِنَا. بُشْرى لنَا بِالأصَالةِ. يوم يكونُ الناسُ منهمِكين في حقارَتهِم ويتذكّرون أنهُمْ بحاجةٍ لطربُوش أو شاشيَةٍ. نفخر بهَا ونحْنُ نجهلُ السؤالَ عن الوجُود والمصير. تلكَ هِيَ أصالةُ العربيّةِ. يوم الجمعةِ وفي رمضَان. وعظٌ ودُعاءٌ وصلوَات. ثم ماذا تريدُ أكثرَ مِنْ هذِهِ اللّغة؟ يزعَمُون أنهم يُدركون لأيِّ شيء تصلُح اللُّغات. محافلُ سياسيّةٌ تختصُّ بالشّعْبِ الفقير الذي يحتاجُ للعربيّة. أو للُغاتِ المحليّة. كيْ يتمّ الإقْناعُ. ويبلغُ الخطابُ إلَى أهلِهِ. بشُوشاً وراضياً بفوزه. في الحياتين. الدينيّةِ والسياسيّةِ. ونحْنُ. المجنونُون بالأسَاسِيِّ. في الحيَاةِ. ذئابٌ أو كِلاَبٌ. لا بأس.

(4)

تتخلى عنكَ أنفاسُك وأنتَ في قرارَةِ السّدِيم. مع التسعينيّاتِ. عهدُكَ الجديدُ. بعالميّتِهِ. وحقُوقِ إنسانيّتِهِ. وديمقراطيّاتِهِ. عالمٌ هوَ لغيركَ. فقطْ. في اللّيالي والصّباحَاتِ. يتخذ عالمُك الشخصيُّ شكلَ كهْفٍ حَالِكٍ. تريد المكوثَ فيه لأيّام. رحِمُ المعْنَى. المعَاني. هل هناكَ ثمّةَ ما تدافع به عن موْتِكَ. بكُل شجَاعة؟ أمّةٌ تتبدد تحتَ بصرك. والسادةُ يملون عليك حكْمَتَهُمْ. التي صنعُوا بها جميعَ حُروبِنَا ودمَاراتِنَا. وأنت مجنونٌ. مُتّهَمٌ مهدَّدٌ. لعِين دَنِيءٌ. لا تتكلم بلُغةٍ هي غيرُ ما أصبحنَا به نرْتقِي إلى سِوَانَا. عبوديةٌ. لاَ. تبعيّةٌ. لاَ. ومَاذا إذنْ؟

نحن أيضاً لنا الحقُّ في الخُروج من أوْهامِكُم. عصرنا بلا شفَقةٍ يدمّر الأوْهَام. ونحْنُ. يميناً ويساراً. عفواً. حديثِين وحدِيثِين. نذكّركُم أن العربيةَ هي

من بقايا الإيديُولوجيّاتِ المُنهزمةِ. ونحنُ نريد أن نلحق بالعالم الذي لا يسْتشِيرُنَا. والعروبةُ كلمة خادِعَة. لأنها لم تكُنْ ذاتَ يوْمٍ. كان الإسلامُ. وأرضُ الإسلام. وهذه العروبةُ هي وهمنا الكبيِر. في عصرٍ. ندرك أن علينا نسيانَ أوهَامِنَا.

العربيةُ نخصُّ بها الحياةَ الأُخْرَى. بذلك كُنا في التّاريخ. وبه سنكُون. ونحْنُ الآن نفتتح اللغةَ التي تحوّلتْ. كما قال كاتِبُنا المُمجَّدُ. إلى لغتِنَا الأُمّ. أطفالُنا بتلكَ اللُّغة. الفرنسيةِ يتكلمُون. وفي بدايةِ كلِّ فصْل دراسيٍّ تتعاظمُ مآسي العائلاتِ الحريصةِ على الامتياز. فالناسُ. يميناً ويساراً. لا يجدُون لأبنائهم مقْعداً في مدارس البعثة. ونحن نُحَمْلِقُ في صمْتِنا الذي يتجاوزُ كلَّ توقُّع. في المناطِقِ التي نعتقد أنّها محصَّنة. هؤلاء البائِعُون للخُضَارِ أو جباةُ ثمنِ التّذاكر عند ركُوب الحافِلاَت. يسخرُون منكَ. لأنّك لا تفهَم ما معنى أن يكون النطقُ بغير الفرنسيّةِ إهانَةً. لكَ. في تلك اللحظةِ. وما سيليها من لحظاتٍ ستزدادُ إهانتُكَ. وأنتَ لا تفهَم.

(5)

هذه اللغةُ. إذنْ. ربما كان تاريخُها الحديثُ. في المغربِ. مِنْ فاسَ إلى مرّاكش. هو نفسه تاريخُ حياتي القَصِيرة. وعليَّ أن أتفحّص كلَّ شيء. حتى موتَنا الذي لا يكُون على النحْوِ الذي نبتغيهِ. لغةٌ غرِيبة. يدافعونَ عن الهُويّة الثقافيّة حين لا يتعلّق الأمرُ بالعربيّةِ. العربيةُ هي الإسْلاَم. أكانَ يهدّدُ العالم أم يضْمَنَ الحياةَ والآخِرَة. والعربيةُ هي الوباءُ الأخيرُ الذي لا حيلةَ. مَعَهُ. غير الاسْتِئصَال. في الأمكنةِ كلّها. عليْكَ أن تتجنّب العربيةَ كي يحترمُوك. ويرفعوا رأسَك. إلى عُلُو المآدبِ والخِيَام المنصُوبة منذُ عهْدِ الشرفاءِ الأدارِسَة. وأنتَ ثقُلتْ رأسُك على كتفيْك. لا تفهمُ شيْئاً. كُتْلتُكَ تصْطَدِمُ بالآجُرّ المطبُوخ في أفران الفخارِين. جدارٌ كان يعْلُو لمجدٍ لا لُغةَ لهُ. والصُّداعُ يشتدُّ. لعلّك تُبصر هذا الشتِيتَ الذي هُو أنْتَ. لا تدافِعُ عن شيْءٍ. حتّى عنْ موْتِك. ترى إلى عربيّتِكِ بجَرَبِهَا تتسكّعُ. باحثةً عن ظلِّ شجرةِ دلْبٍ لتموتَ فيه. بعيداً عنّا جميعاً. وهؤلاءُ الأطْفَالُ. يَصِيحُون فيهَا. وهي تُخْفِي وجْهَهَا. هُنَا. لتخْتلي بجَمَالِهَا. تَمُوت.

44. معَ الهوَاء

(1)

لا أطالبُ هذا الصّباحَ. وباقِي الصّباحاتِ التي فاضتْ من أبديّتِهَا. بغير الهواءِ. ذلك قليلٌ. ربّما. وهلْ أخشَى أن أطالبَ بالقَليلِ. هذا القليلِ. الذي أواظبُ على تفقُّدِهِ. في الصّباحِ. وأنا أستعدُّ لمعركةٍ أعْلمُ أنها ستخْتارني. دونَ عِلْمٍ. منّي؟ هواءٌ. قلِيلٌ. بعيدٌ. مسروقٌ سلَفاً. منّي ومنْكَ. نحْنُ معاً. في الصّباحِ الذي نحسُّ فيهِ بانْسِدَادِ مجاري التنفسِ. بين الحشُودِ القادمةِ من ضَوَاحِي الخرابِ. تتخشّبُ الرئتانِ. والعروقُ تزْرَقُّ. ها هي بشرةُ الوجْهِ مترهلةٌ. والقدمَانِ مُترجْرجتَانِ. هل أكذّب حاجَتِي للهواءِ؟ عليَّ أن أضاعفَ من تحقير وسَاوِسي. حتى أسلَمَ من مطالبةِ نفسي بفائضِ الهَوَاء.

عندما يبدأ الصّباح. إذنْ. أفتحُ النوافذَ. بيديْن متوتّرتين. أحياناً. لأُلقيَ برأسي إلى الهواءِ. المختلطِ بالضبابِ أو ببذُور الشّمسِ الخفيفَة. أفتحُ الفدرايشَ. لأشمَّ الهَبّة الأولى. من جهةِ البحْرِ. عينَايَ ترْتَفِعَانِ بتُؤدة إلى الفَضَاء الأزرقِ. منْ هناك يشرَعُ النهارُ في المجيءِ. نحْوِي. كأنّه بحّارٌ عائِدٌ من رحْلتِهِ. في ليْلِ الأطلسيّ. تركَ مرْكَبَهُ عند صخرةٍ رمليّةٍ. وعادَ. إلى شوَارع المدينَة. مارّاً بالقُربِ من نافِذَتي. وأنا أتطلّع إليْهِ. أُحيِّيه. كالعادةِ. نهارٌ بهوائِهِ الخالِصِ. أكادُ أنْسَى أنّني أُلقي برأسي. أو أنني أراقبُ توازنَ جسدي. تجْلبُنِي رغبةٌ في تسليم كاملِ جسَدي للهواءِ. أريدُ. أكثرَ مِنْ ذلكَ. هذه الأعضاءُ. أنظر إليْهَا وهي طافيَةٌ أمَامِي. وأنا في دوْخةٍ لا مصْدر لهَا.

هذا الهواءُ يذُوبُ. في خلاياي. في صباحِ أقيسُ به يوْمِي. أو أقيسُ به مَصِيري. الذي لا يزدادُ إلا التباساً. مع الأيّامِ. رغْم توقُّعاتِي أنّه سيكونُ أوضحَ. على الأقلّ. بخصُوص المعاركِ التي لا أختارُهَا. أوْ ما عليَّ أن أعيّنَهُ كضرورةٍ للاستمْرارِ في الكتابةِ من المكان الحرّ الذي لا مكانَ سِوَاهُ. كنتُ أعتقِدُ. وكُلّما انصرمتِ الأيام تبين لي وهْمِي الذي لاَ يزدادُ إلاّ وهْماً. أنا لا أعتذِرُ لأحَدٍ عَن. الهواءِ. الذي يتضاءلُ في الفضَاءِ اليوميّ. منَ العلاقاتِ العامّةِ إلى المسؤوليّات الشخصيّةِ. هواءُ ينذُر. أو يتضاءَلُ. إلَى الحدّ الذي لا يمكن معهُ السعْيُ على الأرضِ. كما يسْعَى مثلي. في البِلاَدِ التي نقرأُ عن حريّتِهَا. عنْ قِيَمِ الثقافة فيهَا. عن الإنسانِ. فنُصاب بالحُبسَةِ.

لهذا الهواء أحتاجُ. متعدّداً وخالِصاً. سأقول لنفْسي. يهمُّ. بعد الآن أن أتجنّب تسميَةَ كلِّ شيْء يغرونني بِهِ. هواءً. في موْسِم الإغراءاتِ. أغنِي. موسِم الاندحاراتِ الكبرى. لأن الهواءَ الخالصَ أصْبح ملوّثاً بما يكْفِي. في البحْر واليابسَةِ. وهما يتعرّضان لهجُوم الفاسِد والمُعْدِي.

هنيئاً لهؤلاء الفرحِين بما لديهم من الاطمئنَانِ. لكي لا يُطالِبُوا بالهَوَاءِ. لمن ينأوْن عنّا. ويتوغّلُون في ضواحِي الخَرابِ. هؤلاءِ الذين يجدّدُون سعادتَهُمْ. علَى أرصفةِ بيْع كل شيْءٍ. مُقابل الفوْز بسُلطانٍ علينَا. جبروتاً ومكْراً وخديعةً. وهُمْ في مُضيِّهِمْ إلى ضواحي الخراب يتخلّصُون ممّا كانُوا. أوْ ما أوْهمُونَا أنّهُم كانُوا.

في أيِّ فضاء سأعْثُر على الهَوَاءِ الأوّل؟ عندما أسألُ نفْسي أكونُ قد خطوْتُ نحو الشرورِ. إنني بالسؤالِ أضعُ الخطوطَ على الحدُودِ. بين ما يجبُ السُّؤالُ عنهُ وما لا سؤالَ عنْهُ. فضاء قديمٌ أو حديثٌ. فضاءُ المعاشرةِ أو العُزلة. فضاءُ الحربِ أو الهدنة. وأنا لا أعرف تماماً. ما هذا الذي يكبّل أطرافِي. حتى لا أندفعَ أكثرَ. في هذا الصّباح الذي يعودُ إليَّ من حيث لا أدرِي. صباحٌ من صنْفِ الحيرةِ والتردُّدِ. حتى لا لسانَ لي. نظرةٌ بلهاءُ. تكتمِلُ علَى وجْهِي. يبدُو أنّني مخلوقٌ مؤهّل للنبْذِ. أجلْ. هذا النبذُ المحقّقُ. في الطُرقِ المستقيمةِ. وليْس هناكَ سِوَاها. بين الكتابةِ والحُبْسَةِ.

(2)

الهواءُ يخرُجُ. أيضاً منَ الغابَاتِ المُتتاليّاتِ. بين المحمديّة وابنْ سلِيمَانْ. صباحَ الأحد أكونُ طفلاً أو كهْلاً. وأنا أعْبر المسافاتِ. يتهيأُ لي حيناً أنّني ذلكَ الطفلُ الذي غادرَ بيتَه. قديماً. منَ العدوة إلى وِسْيلاَنْ. ليراجع دروسَه أو يتوحّد. صامتاً بقصيدةٍ وكتَاب. يحدثُ لي أن أشعُر أيضاً أنني ذلك الشيخُ الباحِثُ عن هواءٍ تعوّدَ عليْهِ. وهو يقطعُ الطُرق إلى مكَانٍ ضائع بين السُهول المُعشوْشِبَةِ. وفي الحالتين معاً. أكونُ مدافعاً عن حقي في الهَوَاءِ. مُتجهاً صوْب النّسيان. تلك السماءُ واضحة في أطول فتراتِ السّنة. حرارة معتدلةٌ. ولي قدرةٌ على المَشي. سأمْشي حتّى أسمع جسدِي مُنفلِتاً مِنّي. ومنْ أوهامِي. ينفصل عنّي ويبتعدُ. شيئاً فشيئاً. يحذّرني من اللحاقِ به. يصرخُ ويتوعّدُني.

للجسد وضعٌ مغايِرٌ. تماماً. عندما ينفصل عنّي ويركُضُ راقصاً. كما لو كان يكْتُبُ. في سراديبه يركُض. هواؤُهُ. الكتابةُ. هناك يضيعُ بين بِلاده الغريبَةِ عنّي. بنباتاتها الوحشيّةِ. وهوائِها المخصُوص. الذي يحيطُ بي. نقاءً وشُكراناً. هما نهاية ما أبتغيه في حياةٍ ارتياد واستكْشافٍ. لي ولهُمْ. للجامدِ والنّابِضِ. عجباً. كيف أن هذا الهواء يكسُوني بقلقٍ هُو سبيلُ حيويتي. في وضعٍ كهذا. يرقص الجسدُ وليداً. يعتصره تولُّهٌ بالغرائبِ التي تُعيد إليْهِ مخلُوقاتِهِ. وهي تُفاجِئُهُ. على الدّوامِ. لأنها مخلوقاتُ الرّقصِ. والهواءُ أول ما يكلّمُهَا. في العُنفوانِ السّابقِ على النّهايةِ. كلُّ مرّةٍ يذكّره الهواءُ وبلا نهايته. وهو مطيعٌ. ودُودٌ.

تجْهلُ المحمديّة أقواسَ المدُن القديمةِ. باستثناء قوْسِ بابِ القصْبةِ. الشبيهِ بالأقواس البرتُغاليّة. لهذا يكونُ الهواء ميْسُوراً. الفسحةُ والصباحُ. نُخيْلاتٌ بسعْفاتِهَا المتدليةِ حتى تلامَسَ التراب. في الجهةِ المقابلةِ يتّسع المحيطُ الأطلسيُّ. سفُنٌ تنادي عليْكَ. باسْتمرارٍ. كي ترحل إلَى هواءٍ يستغْنِي عن الخرائطِ والأقواسِ. وأنت تمْشي مُنحرفاً وراقصاً. بجسدِك الآخرِ الذي يخرُج منْكَ. منفصلاً عنكَ. حاضِراً فِيكَ. ولَعاً وسُؤْدَداً. ماذا تُريد أكْثر مِنْ هذَا. في صباحِ الأحَدِ. من المُحمديّة إلى ابنْ سلِيمَان؟ هواؤُك الصّمتُ. هواؤُك عصافيرُ الدّواخِلِ. هواؤُك مخلوقاتٌ تتفقّدُ فيهَا القُدرةَ على المنَاعَةِ.

أُوه. كمْ يلزمُني من هذا الهواءِ لأمشيَ في الاتّجاهاتِ المحجُوبةِ عن الذين

يغتقلُون اللغةَ في قواعدِهِمْ. ويدّعُون أنهم حُماتُها مِنَ العَذوى؟ سأواصل المشي على هذه الطريقِ السّراديبيّةِ. القادمةِ دائماً من مُستقبل الكلمَاتِ. والتخيُّلاتِ. هنالكَ تتبعْثرُ الطرقُ المستقيمةُ لينفرِدَ المخلوقُ بمخلُوقاتِهِ. طراوةُ العَوَالِم. وهي تُسْلِمُنِي من أرضٍ إلى أرْضٍ. فلا يبقى مُشَخّصاً. أمامي. إلا الهواءُ وأنَا. ذلك الصباحُ الذي يأوِيني هو الصباحُ ذاتُهُ الذي يحمِلُنِي. بأمرٍ منْهُ. إلى الهواءِ. وأنا أتفحّصُ جسدِي وهو يرقُص. أسهُو لُحَيْظاتٍ. ثم كلُّ شيءٍ يتّضِحُ. مع الهواء الموغلِ في الأُلفة. متشبّثاً بالخريفِ. أو الربيعِ. ولكنّ الشتاءَ والمطرَ. هل تتخلّص. بسهولةٍ من لذاذَتِهِمَا؟

(3)

يُعِينُنِي الهواءُ على استراحاتٍ مُتقطِّعَةٍ. فيها أستطيعُ التنقُّلَ. مِنْ جسَدٍ إلَى جَسَدٍ. وفيها أُدركُ أن هناكَ ما لا سيطرةَ لي عليْهِ. وهي القناعةُ التي ترسّخُ لديَّ كُلما اصطفيتُ الهواءَ صديقاً. وكتبْتُ. مثلاً. أبياتاً أُكرر العودةَ إليْها لأراقِبَ ألْوانَها. هواءُ الألْوانِ. هلْ يحتفظ به شيءٌ غيرُ الكِتَابةِ. ولمَ لا تجرؤُ على الهَواءِ عنْدَما يتّحِدُ بالألْوانِ. ثم يندلِقَان على ورقةٍ. متشابهةٍ في بياضِهَا. ومع ذلك فهي ليْسَتْ هِيَ. تيَقّنْ مِمّا أدّعِيهِ. بغضّ النظرِ عمّا يكون بيْنِي وبيْنكَ من وضُوحِ العبَارةِ. فأنْتَ معِي. وهَذَا هوائِي. يدلُّني علَى ما أُفصح لكَ عنْهُ. وأنا لا أقولُ شيْئاً. أكتبُ. وأمْشي. راقصاً. من المحمّدية إلى ابنْ سليمَانْ. ساعاتٍ تمتدُّ. ولا أعبأُ بالمواقيتِ. ربّما يكونُ المنعرجُ مُطلاً على الدّوالي. بعْد جنْيِ العنَبِ. فأرى الصُّفرة الممتزجَة بالذّبُولِ. ولا تسقط الورقةُ. إنها معلّقةٌ. بالهَواءِ. وذاتُ شفافيّةٍ تزيد من عِشقِ النّبيذِ.

تبدُو الكتَابةُ عن الهواءِ قاصِرةً. إنْ هي لمْ تكُن محمّلةً بإرْثِ مريضٍ. بدلاً عن ذلك تستهوينِي الكتابةُ مع الهواءِ. إنّه حِوَاري مع الصّديقِ. الهواءِ. عندما أعثرُ عليْه. مُصادفَةً. أو استكْشافاً. أجدُني تلقائيّاً في حِوَارٍ. الهواءُ وأنا. لا أفترِضُ الحِوَار. قبْل أو بعْدَ. تلقائيّاً. يعثُر كلٌّ منّا على البدَايةِ. حوارٌ مع الهَوَاءِ في الصّباح. الظهيرةِ. المساءِ. الليلِ. السّحَر. والهواءُ صديقي. روائحُهُ تسبقُنِي. هيَ الوشْوشاتُ الباعِثةُ على الصّمْتِ. وفي الصّدْر تتدافعُ الأنْحاء الموجِبَةُ للغِبْطةِ.

مع الهواءِ أكتبُ. نكْتب. جسدٌ يخرج ليتخلّصَ مِنّي. جسدٌ ينفصل ليرقُص معِي. وأجْسادِي تتعدد بتعدُّد الأراضِي التي يُفسِحُها ليَ الهَوَاءُ. كيْ أكونَ ضيْفاً عليْهِ. عليْهَا. الهواءُ والكتابةُ وأنَا. تثْلِيثٌ قد يتحوّلَ إلى تربيعٍ. الهواءُ والكتابةُ وأنا والمحوُ. وكلُّ ما عدَا ذلكَ يتحرّر في الهُنيْهةِ الضروريّةِ من قسريّات التصنيفِ والتّجْزيءِ. في غمْرة الحوارِ يستعيدُ كلّ منا فِعْلَه المتأصلَ. فلا أعرفُ بعد ذلكَ ما سرُّ الكتابةِ مع الهواءِ. ساعات النهارِ تكْتسب دورةَ الزمن. وها أنا في حضرة الديمومةِ التي أعثُر فيها على حُريّتِي. بتوقُّداتِها. حيثُ الهواءُ بمخلوقَاتِهِ. ينفردُ. والخوفُ يتبدّدُ.

مع الهواءِ يكونُ الحوارُ صافِيَاً كما يحتمِلُ أن يكونَ متناقضاً. ولي كلُّ هذَا. في أساسيّاتِ الكِتَابةِ. لا خَوْفَ عليّ مع الهواءِ. رقصٌ يتوافق مع التذكُر والسهْوِ. وأنا أسْعَدُ بذلِكَ. هنا تَلْمَعُ كلمةٌ. وهناك تتفتّتُ إلى ذرّاتٍ. فلا تتأكد بعْدَ هذا هَلِ السهوُ أصلُ التذكُر أم التذكُر أصلُ السّهْوِ. حركاتٌ خفِيفةٌ تفْصل بين عالمينِ. وحُلْمينِ. ثم أين أنت؟ سأتجنّب الأسفَ. أو القطوبَ. لي الحيرةُ. حيرتي بين التذكُر والسّهْوِ. وأنا. في الحقيقَةِ. أواصل اللعبةَ. حسب رغبَةِ الهواءِ. أكتبُ. وجسدِي يرقُص كاتباً. هل أنا متعجّل؟ ثمة حَجَلٌ بلون الرّمادِ والطّين. مع ضرباتٍ ناريّةٍ في نهايةِ ريش الجناحين. إنه يخترقُ فضاءَ الكتابة. والهواءُ بالحجَل ينتفض. هواءٌ يتموّج. هواء ينْساب. هواء يتقاطَعُ. هواءٌ وكتابةٌ. حوارٌ يستطيب أوقاتَ النّهارِ لأجْلِ السّهرِ. قريباً من ضوْءِ الغُنْبَاز.

(4)

هذا الهواءُ. صدِيقي. هواءُ حريّتي وإنسانِيّتِي. أن أكتُبَ. ويكونَ لي وجودٌ لا يهدّده جهلٌ أو استِيطَانٌ. هَوَائِي. مَنْ يهدّده اليومَ؟ يتوالدُ في أحْشائي ألمُ ألاَّ أعْرِفَ. بالضبطِ. كنتُ من قبلُ قادِراً على التّمييزِ. لأفْهَمَ. وأُقاومَ. ثم هَا أنَا اليوْمَ. تلْتَبِسُ عليّ الخطوطُ والحدودُ. وهواءُ الطبيعةِ ليس هوائِي الأخيرَ. هواءُ الثقافةِ والكتابةِ هو ما أسْعى إليه. حريّتي وإنْسانيّتي. في الصّباحِ والصّباح. بين اللُّغات والمصَالح. بين الحضَارات والانهيَاراتِ. وأنَا. رُبّما كنتُ. أستقْصِي آخرَ القِلاَعِ. خرائبي وأنَاشِيدِي.

غاوياتٌ تخلّصن من غِوَايتهنّ. وهذا المدارُ. يبدأ اليوم. يأساً. في الجوْف

اختناقٌ سيظل حبيسَ زاويتِهِ حتى ينطفىء الوغدُ. والأمرُ. عليّ أن أتيقّن من يأسي. حتى أبلُغَ السراديبَ. منشغلةً بمخلوقَاتِهَا. لا مِنْ وخلٍ. بلْ من نَارٍ. عليَّ بهذا الطَوافِ الأشدِّ إيلاماً. لأتحقّق من عمَايَ. جليلاً وعَارِماً. سعيداً ومُحرقاً. في آن.

لي هذا كلُّه. بحْثاً عن هواءِ. أنفْاسٍ تتشظّى. والصباحُ. لوحْدتِكَ. في هذه الزاوية التي سمّيْتَهَا كتابةً. ذات يوْمٍ. فلم تعثُر إلاّ على جنَازةٍ. لكَ ولكَ. في المناطقِ التي سيّجُوها لتخْتنِقَ الأنفاسُ. وتحترقَ. بحريّتِكَ. في المكَانِ الذي ليس مكاناً. وفي اللغة التي ليْسَتْ لُغةً. في الوحْدةِ. كما يبْدُو. على شاطىءِ الأطلسيّ. وأنت تُصادِقُ الهواءَ. في نهايةِ قرْنٍ. رافقْتَ منتصفَهُ. واهتديْتَ. إلى أن أرضَكَ. بعيدةٌ. مستحيلةٌ.

عليَّ أن أتماسَكَ. في هذا المسَاءِ. أنا الذي أحتاجُ لصمْتٍ غير قليلٍ. منَ المحتمل أن يكونَ هواءُ الصحراءِ ودويُّها. كافييْنِ. لكَ ولِي. نحْنُ المتّحديْن. المنفصِمَيْن. الأخويْن. العدوّيْن. أنتَ وأنتَ. في رحلةٍ أخرى. هواءٌ. كلما ذكرتُهُ اقشعرّتْ أعضائِي. هل أنصاعُ؟ هل أكذّب؟ هل أتحايلُ؟ هل أتِيهُ كما تهتُ قديماً؟

(5)

تلك طريقتي. الآن في غَزْو نفْسي. أو أنْ أطالبَ بهوَائِي. لا أطالبُ أحداً. وأنا أطالبُ. لحظةَ الصباح آيبةً من مُنتجَعِهَا. هناك كنتُ. سابقاً. أُعاوِدُ التأمُّل في عالَم نُسائِلُهُ بقوّةٍ ألا نستسْلم أبداً. ليَ الهواءُ. الكتابةُ. الهواءُ. الصداقةُ. وأنتَ أيُها الفتَى. منْ قادَكَ إليَّ؟ ودلك عليَّ؟ حجَلٌ يخْترِقُ الكتابةَ. والفضاءُ جمرةٌ تنْتقِلُ إلى غيرنَا. في المساءَاتِ المُتتاليَةِ. حيثُ كانُوا ولن نكُونَ. الهواءُ مخلوقُ الكتابةِ. في زاويةٍ مُضمِتَةٍ. كان علي فيهَا أن أتعلّمَ المُقاومَةَ. من أجْل الكتابةِ مَعَ الهواءِ. قليلاً ويغمُر الناحيةَ صمْتٌ. هواء اللّيْلِ يبردُ. ومع كُلِّ خُطوةٍ تُسرعُ أكْثَر. هُنَا الهواءُ يتطلب كتابةً تُصارع الموتَ. انظُرْ إلى الزّبد. على رمْلِ الشّاطىءِ. انظُرْ إليْهِ. إنه لا يكْترِثُ بالخُلودِ. يمرُّ الهواءُ. بيْنَنَا. أنتَ وأنْتَ. خفيفاً. طافيَاً. هلْ هذا الهواءُ هوائِي؟

45. رؤيةُ نفْسِي

(1)

هل كنتُ أستغيث بأحدٍ. وأنا ألهثُ وراء نفْسِي. لرؤيةِ نفْسي؟ سؤالٌ ينبعث اللحظةَ من توافُد الشطحاتِ على أصابعِي. وهي تعثُرُ علَى مِزَقٍ. تتآلف في أرخبيلٍ. هادىءٍ. رُبّما. عاصفٍ. رُبّما. لرؤيةِ نفْسي. وهي تتفتّتُ لتلْتئِمَ. وقْعاً. على شاطىءِ المُحيطِ الأطلسيّ. في هَامشٍ. لا سُلطة لهُ علَى أحدٍ. هُنا. كنتُ أحافِظ على حريّةٍ وأسيّجُها بالصّمْتِ. حتى لا يُدركنِي وهْمُ أنْ أتخلّى ذاتَ مساءٍ. بين المآدبِ. عنْ نفْسي. وهلْ كنتُ أستغِيثُ باللاّشيءِ. الذي بمُفردهِ ينتصر علَى الكلِمَاتِ. جاعِلاً من الهوْلِ مُرتكَضِي. هُوَ الطريقُ. في ليْلَةٍ مفتونَةٍ بالفَراغ؟

أسألُ. وأنا أُبصِر العوالمَ تَدعُوني إلَى التشظِّي المُحتّم. أكادُ أكونُ محايِداً. يتساوَى لديَّ ما كنتُ ومَا. لم أكُنْ. فأنَا هذا كلُّه. وقائِعُ وأحاسِيسُ. أفعالٌ ورغائِبُ. ثم. هكذَا جرّبتُ أن أسْعَى. متضامِناً مع الصّمتِ. كيْ لا يكِيدَ لي كَائِدٌ. بمُبرّراتِ القيَم. الأخْلاقِ. الواجِبِ. هذه الكلماتُ التي لا تعْنِي لِي. غير الخُضوعِ. بلباقَةٍ. لمَا لستُ أنَا. والخضوعُ للنّهايةِ التي تَتكررُ كلّما تجرأَ شخصٌ وقالَ. لِي موعدٌ مع نفْسِي. هي النهايةُ القادِمةُ منَ الجهةِ المُغْفلةِ. وهيَ. بعُنفها تهجُمُ. دونَ أن يُدركَ المهجُومُ عليْهِ. جهةٌ. غير الاستِسْلام. إنها المُتكرّرُ الذي لا ينتظِرُ. ولا يتركُ فرصةَ انتظارٍ. هناكَ كلُّ شيءٍ. يُتقِنُ المكِيدةَ. والكلماتُ تتباطَأُ. ثم تسْتقبلُ مصيرَها. هاويةٌ. فتاتُبةٌ. مُحتّمٌ كلُّ هذا. وأنْت ترَى.

في الصَّباحِ. كالعادةِ. ولكنّها. هذِهِ المرةَ. عادةٌ من صنفٍ لا عهدَ لي بِهِ. أحسُّ الدُّوارَ يظفَرُ بشُعيلاتٍ أكادُ لا أعرِفُ كيْفَ أحدّدُ مكانَها. والرجّةُ فِي الأعْضاءِ تلتئِم. اصْرخْ قليلاً أيها الصديقُ الذي لاَ يخُون. احْمِلْ نفسَك. على بقايَا كلِماتِكَ. الأخيرةِ. خارجاً نحْوَ نفْسِكَ. منَ المُغفَلِ. الذِي تعوّدْتَ عليْهِ. في الرّباطِ. أوِ الدّار البيْضَاءِ. وأنتَ لا تدْرِي. ما القادِمُ. حقّاً. ولكنه متجهّمٌ. مكْسُوٌّ بأسْلِحَةِ الحقيقةِ. الفتّاكَةِ. دائماً. ليُرغمكَ. على الخجَلِ. والمُضِيِّ. في جَنازةِ القِيَمِ. منْ أجْلِ أن تُلقيَ بذَاتِكَ أمامَ جبرُوتٍ. لا حدَّ لمكْرِهِ. هناكَ. الحياةُ. الموتُ. المصيرُ. وعِلْمُكَ محدودٌ. بحاسّةِ الشمِّ. وحْدَها تكادُ تُدرِكُ. والنهايةُ. أقربُ مِنْكَ إليْكَ.

حقّاً. ها أنا أمامكَ. أيُّها المتكرّرُ في تَاريخِي. الذِي لا أسمِّيه بغير تاريخ البطْشِ. تتسربُ في اللّحظةِ الموعُودةِ. لحظةِ البحْث عن نفْسي. وهُناكَ. اللعبةُ محاصرةٌ باحتمالٍ وَحيدٍ. أن تسْتسلِمَ. قبل فواتِ الأوانِ. وأيُّ أوانٍ هذَا الذي يدعُوني إليه البطشُ؟ فِي صُوَر متلاحِقَةٍ. ولا رحْمةَ لهَا. في كلماتٍ فخْمِيّةٍ. ولا رُوح في أحْشائِهَا. كُنْ ما نُرِيدُ. أصِغْ إلى ما نُملي عليكَ. انْحشِر في مُقَام غيركَ. وابتعِدْ عن غيِّكَ. هكذَا يتكلم المتكرّرُ المحتّمُ. وأنتَ في. نهايةِ القرْنِ. ما زلتَ تبحث عن الكلمةِ التي وعدتْكَ نفسُك بهَا فَلاَ تعثُر إلاَّ علَى الرّجْم. وهو يضاعِفُ سُلطانَه. تحْت ناظِريْكَ. الجدرانُ الأربعةُ عاليّةٌ. عاليةٌ بقدرة ألاَّ تكُون. كما عهِدْتَ. في العُصور التي نمّقُوهَا ووضعُوها في كِتَابٍ لا يبين منْهُ غيْرُ البطْش.

تلك الجدرانُ في منتصفِ النّهارِ. موعدِ الظهيرة. وهي تتّقد في النُّخاع الشوكيِّ. لاَهِبَةً. كأنّ الحِمَم الماضيّةِ والآتيةَ اجتمعتْ. في انضباطِ الشّاقُولِ. ساقطاً. من علْيَاءِ السّرمديّةِ. ليذكّركَ أن ما انتهى يجبُ أن ينْتهِيَ. وأن الوقتَ قدْ حان لتتأكّد مِنْ نهايَتِكَ. على يدِ المُغْفَل. المنتشرِ كالسّرطانِ. في الفضاءِ المُحيطِ. بكَ. السّاكن فيكَ. الهاجِم عليْكَ. وأنتَ واجبُك أن تدْرِيَ. وتتأكّد من أنك تدْرِي. كلَّ احتمالاتِك. في ضرورَة الخضوعِ. هُنَا لُغتُكَ. هنا مِقْصلتُكَ. هنا حُلمُكَ. هنا قبركَ. وذلك القنديلُ ألْقِ بِهِ إلى الحفرةِ ولا تعُدْ ثانيةً. لتبْحَث عنْهُ. لأنّه ليْس لكَ. هُو. فقطْ. للُغةِ تعلمتْ حريتَهَا. بقوانين عليْها ثارَتْ وتمادَتْ في مُهاجمَتِها. فيهَا أنشأتْ قانوناً آخر لحريّةِ الذّات.

عجباً. هل يتكرّر كلُّ هذا العنفُ. ثم يسكتُ المريدُ. ضِدّاً على العزلةِ التي أمرتْهُ الكتابةُ بها ذاتَ يوم؟ ها هُو مُلقًى به أمامكَ. وأنت تنظرُ إلى مآلِكَ. شظيةً. شظيةً. حتى تتيقّن مِنْ أن الهجْرة وحدَها السّبِيلُ. في الهامِشِ المُحتَجَزِ بين الرّباط والدّارِ البيضَاءِ. هامشٌ. يحميكَ من البطْشِ. ومنْ تاريخ ألاّ تكُونَ. نُخيلاتٌ مُتسارِعَةٌ في شارع. صُخور مُسنّنةٌ على مشارِف المَاءِ. أفُقٌ أملسُ ينْحنِي حتّى يلامِسَ العتمَات. أمواجٌ تخرجُ من كُهوفِهَا ليشرعَ الكونُ في الحيويِّ. هامشٌ مِن صمْتٍ لا يخُون. هذَا الصباحُ. لِي. أردّد سِيمَتِي. طائشةً. وأنَا بها فرِحٌ. بعيداً عنْ هذَا القَلِيل الذي لستُ من ألأفهِ. إنه مكانٌ موضوعٌ لمن يبحثُون عن صنُوفِ ما لاَ يهمُّنِي.

(2)

ومَا الذي كانَ أمرني برؤيةِ نفسي؟ هل اللغةُ أمِ الحنين؟ العزلةُ أمْ صخبُ النّهايَةِ؟ القصيدةُ أم العتَماتُ؟ يَطيبُ لِي أنْ أسألَ. أوْ تحديّاً يجِبُ أنْ أسألَ ليكُونَ القلقُ مُكتمِلاً. على عتبةِ الصّمْت. وأنا أستقْصِي. حقّاً. لأنّي معرضٌ لاختلاطِ المسالِكِ. وأنَا بهَذا. لا أُدافِعُ عن وضُوح مّا. لا أدافِعُ أيضاً عن التخلّص مِنْ أيِّ حنين. ذلك شأنُ نفسي. أن تقودَني إلَى الأمْرِ برؤيةِ نفسي. في مُنتصف النّهَارِ. حيثُ لا شفيعَ سِوَى الكتابةِ. أسألُ وأنا مُنهَمِكٌ في نِسْيَانِي الذي يُغرِيني. جُملٌ تفيِضُ وأخرى تتخفّى. فِي اللحظةِ التي أطلبُ فِيهَا وضُوحاً ينقذُني منَ المُتكرّرِ والمُحتّم. ذلكَ مصِيري. أوْ لعلّهُ مصيرُ مَا هُو أقوَى مِنّي. والشّعْرُ مُتهَمٌ بالهُرُوبِ إِلى عُزْلتِهِ. كمَا لوْ أنّه أخطأ يوْماً وهُوَ يَلِجُ في عُزْلَتِهِ.

السؤالُ والعُزلةُ. الحنِين. لِمَ لاَ؟ يُخيِّلُ لِي أحياناً أني أفترضُ حيَاتِي. وكتَابتِي كلُّهَا مجردُ افتراضٍ. هذا مُحتَملٌ جدّاً. وعليّ الا أنكره أبداً. فالحياةُ والكتابةُ عالمانَ يَلتبِسُ بعضُهما بالبعْضِ الآخر. في الكتابَةِ أخترعُ حيَاتِي. حياةٌ ليسَتْ أقلّ ولا أكثرَ مِمّا عِشْتُه. لاَ. حياتي هيَ ما كتبْتَه أيضاً. هذِهِ الحياةُ المكتوبةُ لا سبيلَ للتأكّد مِنْ كِذبهَا. وأنا لا أُبالي بالمُطابقَةِ بين حياتَين. حيَاتَانِ في حياةٍ واحدةٍ. ومَنْ يتوهّم أنهُ يعيش حياةً واحِدة؟ في الكتابةِ هذا الرتقُ والفتقُ. هذا التّرمِيقُ الذي تصنعه اليدُ بالكَلِمَاتِ. وَاليدُ أجهلُهَا. تماماً. في

الصّباح تعودَتْ علَى اكتشافِ الحرُوفِ التي يغيب عنْهَا حمْلُهَا. حروفُ الأصابعِ وهي تتعثّرُ. في جهةٍ خَبيئَةٍ بين ثنيّةٍ. وثنيّةٍ. من الصّمْتِ والقشْعريرَة.

يستبدُّ بي سُمُّ الحنينِ. تلك العتبةُ التي وطئتْهَا قدمايَ ذات لحظَةٍ نسيتُهَا. ثُمَّ إليَّ عادتْ. منسكِبةً ومعتّقةً. حنين القدمين وهُما تخطُوان في أزقّة هي الآن. لِي. أحجارٌ ومنعرجاتٌ. أبوابٌ من خشَب ونُحَاسٍ. قناطرُ تمْثُلُ أمَامِي. رائحةُ البصَلِ النازلِ من سمَاءِ الخريفِ. أجري لأبلُغَ عتبةَ المدرسةِ. وفي محْفظَتِي دفاترُ وكتبٌ ومنشفَةٌ وريشةُ الحبْرَ. على طاولةٍ في قسْم دافىءٍ. السبورةُ وصورٌ معلّقةٌ من حياةِ الباديَةِ الفرنسيّةِ. إنّني من بين أكبرِ تلاميذِ القسْم سِناً. ذلك يُخجلُنِي. ولن أتخلّص من خجَلِي. ومن خشْيَةِ ألاّ أفْهَم. هو ذا البيْكَارُ الذي أخَطّطُ به دائرةً. قلمُ الرّصاصِ والدائرةُ. مثلثٌ تلامس زواياهُ محِيطَ الدائرةِ. مساحةٌ باللّوْنِ الأحْمرِ. زوايَا ألجأُ إليْهَا لأحْلُمَ.

والحنين ماءٌ. سأشْرَبُ السّاعةَ مِنْ ماءِ موْلاي إدْرِيس. انظُروا إليَّ أيُها العابِرُون. إنّني أشْرب فقَطْ. ماءٌ عذْبٌ. والطيوبُ الشرقيّة تفِد عليَّ. مثلَ غيري. مِبْخرةٌ يرقّصُها رجُلٌ سيظل حلِيفِي. هكذا أنْتَ. أيُها المُنشِد الطائِفُ بي. طُفْ مرة أخرى ورُشَّنِي. بماء الوزدِ. ردّدْ تنغيمَ الأصواتِ التي أصبحتُ أفتقِدُهَا. غيمةٌ فاسيّةٌ تنزلُ في صدري. مواويلُ تهُبُّ عليَّ مِنْ أندلُسٍ. قمرٌ وفَاس. طُفْ بي. أنْتَ حليفِي. في الصّمتِ. وليلةُ القدْرِ بمَائِهَا. أُلْقِي بجسدي في المَاءِ. نافورةٌ تشْطح فِي الكلِمَاتِ. زليجٌ كتبتُ عليه أسْمائي كلّها. ألوانٌ من مَاءٍ ونَارٍ. حافِظْ على اللاّتوازُنِ حتّى يكونَ مسْعَايَ. ماءٌ يندلِقُ. والنوافيرُ نِدَاءٌ. نِيرَانِي مُتّقِدَة ولا حاجةَ بي لسِوَاها. جبْهتي مُتصدّعَةٌ. معَك أطُوفُ بنفسي. وأفسِحُ للطيُوبِ. منْ أقْصَى الموتِ. في فَاسْ.

(3)

ستشْتدّين. أيتها العزلةُ. ستشْتدّينَ. في الصّباح والصبَاحِ. أعْرِضُ على بصري خرائطَ الخُطوات. وفي كلِّ مرة أقولُ. إلَى أيْنَ أيتها العُزلَةُ أنتِ بي متّجِهَةٌ. ضاقَتْ عليَّ الأرضُ. في النّواحِي المحيطةِ بي عقابٌ لا يتوقّفُ عن أنْ يكونَ عقاباً. هذا ما بقِيَ لي. ولن أقومَ بإحْصاءِ الطُرق القريبةِ منْ خطواتِي.

عليّ. بدلاً مِنْ ذلِكَ. أن أكونَ متيقّناً مِنْ اشتدادِ هذه العُزلةِ. في هامشٍ يُنصت إلَى البحْرِ. وما أحافظُ عليْهِ. بقسْوةِ الأيّام. هل أعدّدُ خيْبَاتِي؟ هل أُتابعُ النذيرَ. وهوَ يتعاظَمُ؟ لم تكُنْ تلكَ عادَتي. ولكنْ. هَلْ هناك ما يكْفِي منَ الأراضِي الحُرَّةِ. التي بها أُطمْئِنُ نفْسي. وأصدقاءُ. ليزدادَ صمْتُها. بين المسَالِك؟

أرضُ الكتَابةِ أرْضِي. وفي الكتَابةِ لي وطنٌ. وأصدقاءُ. قديماً كنتُ أنصِتُ لنداءِ أرْضِ الكتابةِ. كنْت أتوقّعُها حرّةً. لي ولغيْري. مِنْ أجْلها غالبتُ وواجهْتُ. حتّى لا يسْرِقَ منّي أحدٌ هذه الأرضَ المشتركةَ. حيْثُ تُصاحِبُ كلُّ لغةٍ أخواتِهَا. أخوّةُ المغامَرةِ. وقديماً تعهّدْتُ أن أعطِي جسَدِي لهذِهِ الأرْضِ. فيهَا أُقِيمَ. وفيها أُسافِرُ. بحْثاً عَن الصداقاتِ. والأرضُ الحرّةُ انكشفَتْ لي. في السّهَر البذْئِيّ. مع أساتذةٍ كانُوا على الدّوام ينادُون عليّ. في هذِه الأرضِ. قلتُ لنفْسي. إنّي أراكِ. عابرةً. تائِهَةً. حُرّةً. وأراكِ. تختارينَ الساعةَ والصّداقةَ. وفيهَا أنتِ قريبةٌ منَ السّابقِين واللاحقينِ. المُقيمين والعابرينِ. قُرّي عيْناً أيّتها النفْسُ. وتابِعِي الطريقَ. طريقَكِ أنْتِ. تعلّمِي أنه لا ينْتهِي إلاّ ليبْدأَ.

وهلْ كذِبْتُ علَى نفْسي؟ أمْ كذِبتْ عليّ الأرضُ والطّرِيقُ؟ يلْزمُنِي أنْ أسأَلَ. وأَنا أشَاهِدُ الأرضَ التي تضِيقُ. واللغاتِ الّتي تمْحَقُ اللُّغات. أسأَلُ لأدرِكَ مِنْ أين تبدأُ الطّرِيقُ. ومِنْ أيْنَ تفْتَحُ الأرضُ حدُودَها اللانهائيّةَ للصّداقَاتِ. تلْكَ مشِيئَتي. في نهَاية القرْنِ. والذينَ يحرِمُون عليّ أرضَ الكِتَابةِ مُنْتَصِرونَ. بقانونِ الطّاعَةِ والخُضوعِ. يَسْرقون الأرضَ لكيْ لا يكُون لنَا. بعْدُ. مُتّسَعٌ لحريّةِ أنْ نكُونَ. كيْفَ لكَ أنْ تسْعَى في أرضِ الكتابةِ وأنْت مهدّدٌ دائماً. بالكفّ عنِ الكتَابةِ؟ أوْ خيانَةِ حُريتِهَا؟ سيفٌ في وجْهِكَ. سيْفٌ علَى رقبتِكَ. سيْفٌ في أنْفاسِك. سيْفٌ لخُطوَاتِك. وتدّعي أنّ لكَ أرْضاً حُرّة. ولكَ حريةَ السفرِ في أرْضِك.

(4)

موعِدٌ مع نفْسي. هيَ الشّطحاتُ تنهضُ آمِرةً بمَا لم أكُن أتوقّعُه. لرؤْيَةِ نفْسي. وأنا أُطيع حريتِي. حرية الإنصاتِ لهذَا الأمْرِ. في هامِشٍ بحْرِيٍّ. وعزلةٍ تشْتدّ. لتشْتَدّ. والصباحُ سيّدُ الأوقاتِ. ينسابُ فِي أصابع يَدِي. يضْحَكُ.

يغمُرني ضحِكٌ آثِمٌ. أنا عاشِقُ الإثم. منذُ أن قررتُ ذاتَ يوْم أن أصاحِبَ الصُّدْفَةَ. وأكتبَ. أصابِعِي تضْحَكُ. والهريرُ. يهشّم القواعدَ التي لستُ مسْؤولاً عنهَا. أنا مسؤولٌ عنْ حريّتِي. بمفرَدِها. أعْرِضُ عنِ القيمَ المَانعةِ لِي. والأهوالُ مرتكَضِي. لنْ أصبُوَ إلَى شيءٍ مخَالفٍ لذلِكَ. والذين يُحاكِمُونَنِي. بقيَمِهِمْ. وأخلاقِهِمْ. يعْثُرونَ عليّ. حيْثُ. لا يتوقّعون. في الحنينِ. أو اللغةِ. في العزلةِ أو الشّسَاعَةِ.

نفْسي. هي هِدَايَتِي وغِوايَتِي. وعندما كنتُ أخْتلِي بالأحْجار لم يكُنْ أحدٌ يُدرك أنّي أدافِعُ عنْ أسراري. في العقْبةِ الزرقَاءِ. ضوءٌ خافت يتسرّبُ منْ أعالي الجُدران القديمة. في الأعَالي زرقةٌ وفراغٌ. والجذْرَانُ مدعمةٌ بأعمِدَة خشبيّة تميلُ إلى السّوادِ. إنّها بُنْيَةٌ. من خشبِ الأرزِ. أحجارٌ عاريَةٌ. مع ذلكَ فهْيَ تُخفي تاريخَها. تأكيداً أنّني لنْ أتعرف على أسماءِ البنّائين. ولاَ علَى الأيْدِي التي لمسَتْ هذِهِ الأحْجَارَ. مع ذلك فأنَا أكادُ أُنصت لأنينٍ. هل هُوَ أنينُ امرأةٍ هجَرها زوجُها وأغْلق عليْها بابَ البيْتِ؟ هل هو أنين عاشقٍ كان يقْضي ليلتَه تحْت الشرفَةِ. ولا ينَامُ؟ أمْ أنين طفْل ضاعَ في المتاهَة؟

عقبةٌ زرقَاء. والأحجارُ في مكَانِها. مُضاءةٌ بما يتسرّبُ إليْهَا من الزّرقة والفَراغ. ضوء مُعتِمٌ. والزرقةُ حِكَايةٌ. نسيها القاطِنُون. عندما كنتُ أصْعدُ العقْبَةَ. في مرّةٍ سابقَةٍ. وكان عُمْرِي يتجاوز العشْرةَ. سمعتُ رجُلاً مُسِناً يقولُ لي هُنَا ستُولَدُ. ولم أفْهَمْ ذلِكَ. ثم عندما قرأتُ المتنبي سمعتُ الصوْتَ ذاتَه. وانكشفَتْ لي زرقةٌ لمْ أغادِرْها إلَى الآن. زرقةٌ في السّفَر بين فَاسَ والكِتابَةِ. وما زلتُ أبحثُ عن لغْز الميلادِ. سفرٌ. وأرضٌ مهدَّدةٌ. أحجار أعودُ إليْهَا. وفي النداءِ القادِمِ منَ الزرقة أتشبثُ. بالإقَامَة.

(5)

زرْقَاءُ هِيَ نفسي. أصْعَدُهَا. في نهايةِ القرْنِ. ولي منَ الظُّنُون ما يُقدِّم لِي المستحيل. المُتكرّرَ. أبداً. والمستحيلُ الآن لا تختصِره الكلِمَاتُ. إنه. قبْلَ ذلِكَ. مشاهَدةٌ متواصِلَةٌ لهذَا الذي به نكُون. أقْصِدُ إلغاءَ زمنٍ ورغَائِبَ. أوْ لعلّهُ أكْبرُ مِنْ ذلِكَ. إلغاءُ ما كانَ بِهِ أوائلُ العرب الحديثين يبشّرُونَنَا بِهِ. ثم. ما أنْتَ

تراهُ. في المغرْبِ أو المشرقِ. هل نحن بحاجَةٍ لحجّةٍ إثْباتٍ؟ للمبتهجين بأملِهِمْ أن يسْعَدُوا بما يشاؤُون. لَهُمُ الحقُّ في أملِهِمْ. لَنْ أطالبَهُم بأن يتركُوا لي سُؤَالي. فأنا أعْلَمُ أن هذا غيرُ مسمُوحٍ بِهِ. وفي هذا المكانِ الممْنُوعِ. المكانِ المسروقِ. أواصلَ الكتابةَ. دفاعاً عمّا تبقّى لي. منَ الصّمْتِ والعُزْلَةِ. مِنَ اللُّغةِ والشّساعةِ. هامشٌ بحْرِيٌّ. أقيسُ به مسافةَ حُريّتِي.

موعِدٌ مع نفْسي. أو هكذَا أتوهّمُ. أمزجُ الذّاتَ. بالعَالَم. القريبَ بالبعيدِ. والجهةُ التي أسعَى إليها هي جِهَةُ غيري. الحارسين لأرضِ الكَتَابةِ. وأنتَ. أيّها الطائِفُ. حوْلي. طُفْ في الصّباح والصباحِ. شعلتُك القديمةُ. شُغْلتي. أنا أيضاً. لرؤية نفْسي. وفي الطوفان يكون لنا موعدٌ مع الكِتابَةِ. في زمَنٍ يطلُب منّا جسداً أخْرَسَ. طاعةً لهؤُلاَءِ وهؤُلاءِ. طُفْ حوْلي. والطُفْ بالتّائِهِ في أرْضٍ لهُ وليْسَتْ لهُ. مجرّدُ أرضٍ. زرْقَاء.

46. تَهيُّأتُ لمجْهولِي

(1)

ستٌّ وأربعُون سنةً. ستّةٌ وأربعُونَ نصّاً. لم أرصُد لكلّ سنةٍ من حياتي نصّاً. ولكني. ربّما. سعيتُ لاختراعِ حياةٍ أُخرَى. أو لعلّني كنتُ عابِراً لمظْهرٍ سرادِيبيٍّ. فيه التقيتُ بالذين جعَلُوا منّي ما أنا عليهِ اليومَ. في نِهايَةِ 1994. أشخاصٌ عدِيدُون تآلفوا وتصارَعُوا في دخِيلَتِي. بين الصّمْتِ والكتَابةِ. وهؤلاءِ يكَادُون اليوْمَ. يجْهَلُونَني. أنا المقيمُ في مُنتصَفِ النّهَارِ. ندوبُهم وضحكَاتُهُمْ تعودُ إليَّ من حيَواتي القادِمَةِ. أيْضاً. حيث المجهُول يَعْلَمُ مَنْ سأكُونُ. ومَنْ سيُصْبِحُون. أصدِقَائِي. أعْدائِي. وهم جميعاً يتجادَلُون. بعُنْفٍ. أحْياناً. وأنا أنظر إليْهِمْ. بحيادٍ. غريبٍ. بغير اكتراثٍ أُديم النظرَ. كما لو كنتُ أنظرُ إلى الفَراغِ العَظِيم. الذي يشْمَلُني وإيّاهُمْ. في مكان ليْسَ. هُوَ. الحياةُ. وليْس هوَ الموتُ. ولا أفترضُ شيْئاً.

حيواتٌ عدِيدةٌ. تتجمهرُ علَى عتبةِ الكتَابةِ. شبيهةً بالمَشَاهدِ التي كُنا نألفُها في الصِّبَا. ونحنُ نُقْبِلُ على سينمَا العشّابِين. بابٌ لا مغالِقَ لهَا. وعند شُبّاك التذاكِر تستهوِينَا أفلامٌ بشريّةٌ. أبطالُهَا هُمْ روّادُ السينما أنفُسُهُمْ. أشخاصٌ يتزاحَمُون مِنْ أجلِ مقْعَدٍ غامِضٍ. ما دامتِ المقَاعدُ غيرَ مرقّمَةٍ. افتراسُ الأيْدِي. ونحن صغارٌ. لا نذهب إلى سينما العشّابين إلا بإتْقان حِيَلٍ نُقنِعُ بها آباءَنَا. السينما. مدرستُنَا الثّانِيَةُ. حياتُنا الجديدَةُ. فيها الاعتياديُّ والخارقُ. المسموحُ والممنوعُ. وفيها هذه المشاهِدُ التي نلْتقِي من خلالِهَا بأمثالنا من الأطفالِ.

الغربيِّين. الهنودِ. العرَبِ. هو ذَا عالمُ الطفُولةِ الكونيّةِ يجري تحت أبْصَارِنَا.

شخُوصٌ في مدْخَل السينما. ثم في الداخلِ ظلمةٌ وزَفِيرٌ. أشباحٌ تتحرك في وسط القاعةِ. بائع الشّاي والكَاوْكَاوْ. المُونَادَة والزرّيعَة. الكِيفُ. رائحةُ الكِيفِ الضاغطةُ على الأنْفاسِ. كلامٌ لا يتوقّف مِنْ كُلّ النوَاحِي. وعليْكَ أن تُنصِت لأكْثر من بطَلٍ. مِنْ شخُوص الفيلْمِ وشخُوص القَاعَة. ضحكاتٌ تتمرّد. شتِميةً وسبّاً وقذفاً. مجردُ كلاَم. أو ذلك بدايةُ شِجَارٍ نتابعه بالاهْتِمَام ذاتِهِ الذي نتابع بِهِ الفيلْم. بائِعُو الدّجَاج أنفسُهم مصْحُوبُون ببقية سِلْعَتِهِمْ. ومع عنَاقِ البطلِ لعاشِقَتِهِ. يعلو الصُراخُ. المطالِبُون بحقّهِم في القُبْلَة يتكاثرُون. مراهِقُونَ وكهُولٌ. علَى السّواء. وصوتُ سكّين تمزّق المقْعَد. نشوةً أو انتقاماً. مَنْ يدْرِي؟ حيواتُ القاعَةِ مثيرةٌ مثلمَا هي حياةُ الأبْطَالِ في الأفْلاَم. في هذه القاعةِ المُعتَمةِ. من طابقين. ونحن مقذُوفون في مُتْعَاتٍ تظلُّ محافِظة على نموذَجِهَا. كلُّ مرة نتجمّعُ. ونذْهَبُ. في شكْلِ عصَابةٍ. إلى سينما العشّابِين.

حيواتُ المألوف والمكْبُوت. حيواتُ الهزيمَةِ والانْتِصَار. حيوات الرّغْبَة والتّحققَاتِ. حيواتُ المكِيدَة والأخوّة. هذه كلُّها تتمازَجُ في حياتِكَ. أنْتَ. الذي ودّعْتَنِي لتظهر من جديدٍ. بشكْلٍ مُفاجِىءٍ. عند مُنْعَطَفٍ. بيْن الكُتب. والكِتَاباتِ. بين السّفَر والإقامَةِ. وفي كل مرة يستبدّ بك الحنين أو اللغةُ. في أزمةِ مُنتصف النّهَارِ. وأنت في نهاية قرْنٍ. تسأل. كما تعوّدْتَ أن تسْألَ. في أيّامك الماضيّاتِ. نَعَمْ. إنها ماضيَّاتٌ. وهل تعتقد أن ما مَضَى لمْ يَمْضِ أبداً. وأنّه. مجرّد اختِراع. قادتْك إليْهِ الكتابةُ؟ هذا الدّوار. البطيءُ. القرمزيُّ. ضبطْتَه في جسَدِك. وأنتَ تسألُ. والمُعتِمُ لا يكفُّ عن أن يكون. مُعْتِماً. فيكَ. وبِكَ.

ها هُو الماضي والقادِمُ متساويَانِ في المجْهُول. أنتَ في مُنْتَصَف المجهُول. لا مِنْ أجل الذهاب في اتجَاهِ المعلُوم. أيُّ خُدعةٍ. تراودُك. في هُنيهَةِ الشاطىءِ. والصُخور الصَامِتَةِ. مجهولُك يجبُ أن يُحافِظَ على مجْهُولِهِ. ولن تكتُب إلاّ بهذِهِ الغايَةِ. لا تكتُب من أجل أن تفْهَم. ولاَ مِنْ أجل التخلُّص من أوْهامِك. أوْ أحْلاَمِكَ. ورغائِبِكَ. تكتُب كيْ يبْقَى المجهولُ مجْهُولاً. وأنت لا تقطع النهر مرّتَين. صنوفٌ من الحيوَاتِ التي رافقتْكَ هو ما ينشدُّ إليه بصرُكَ. وتتأمّلُ. ماذَا تتأمّل أيها المُريدُ؟ لا شيء تقريباً. فراغٌ خَفِيفٌ. يلْعَبُ بأصَابِعِي.

وأنا لاَ ألْعَبُ فِي الكتَابَةِ. أتركُ الدّمَ يكتُب تارِيخَهُ. حيواتٌ أُطِلُّ عليْهَا من عُلُو الصّمْتِ الذي لم أعُدْ أرجو غيرَهُ. في زمنِ الالْتباسَاتِ المُدمّرة.

علوٌّ وبيَاضٌ. هكذَا تبدُو لي الأرضُ التي قرأنا عنْها في الكُتب المَرِحَةِ. وذيانٌ تطوف حوْلَنا. ونحن نقطع النهر. بصعُوبة. نقطعُهُ. لتتجدد المسافةُ بين الشّاطِئَن. لغةٌ للسفر. والنهرُ الذي نقطعُهُ هو نهرُ الهَزِيمَةِ. وعليّ أن أكُون واضحاً مع نفْسي. علَى الأقلّ. وما تبقَى لنِهَايَةِ النّهارِ أطولُ ممّا مضَى. حتّى ولوْ كَانَ مُمتَدّاً ليوْمٍ وَاحدٍ. يتيم. لسْتُ أدري ما الذِي كان عليّ أن أفضَلَهُ. وأنا أقطعُ منتصفَ النّهارِ. مياهُ النهر تطفُو بسيُولِهَا. كلُّ مرّةٍ أُقْبِلُ فيهَا. على الرّباط. أكونُ نسِيتُ أنّ لي موْعِداً مجْهُولاً مع مَكِيدَةٍ. منَ الشّارِعِ إلى ممرّات الكليّةِ. وجَسَدِي لم ينْدمِجْ في حياةٍ منَ المَكِيدَةِ. هذا غيرُ إنْسانيّ. حتْماً. تلك حياةٌ. الحزبِ. وأكاد أخْتَلِطُ. لاَ. أقولُ. أنا صخْرَةُ الوَادِي. أردّدُ مع المتنبّي. وفي المَسَاءِ أشْعُرُ بتعَبٍ يختاجُ لأزمنَةٍ برمّتِهَا.

(2)

اكتشفتُ الصحراءَ. وأنا أقطعُ النّهْر. مصيرُ الحياةِ محدَّدٌ بين النّهْرِ والصحْرَاء. تلك حكمة الكتابةِ التي لا تَعِدُ بشيءٍ. يبدو ذلك مُقنعاً. وأنْتَ تتابع الصُّدْفَة. إلى قرار المكيدةِ. غريبٌ. كيف أن الكتابةَ كانت حركَةً قويّةً لالْتِفَافِ أُمّةٍ حول أحْلاَمِهَا. فإذا هيَ. بالنسبة. لِي. ولا أعلمُ ما الذِي سيقُوله غيرِي. هذا الجحيمُ المتواصلُ. في زمَنٍ توهمتُ أنّه زمَنِي. أو على الأقلّ زمنٌ يقْبَلُ بأن أكُونَ ضيْفاً عليْهِ. كلُّ هذا وهْمٌ. والصحراءُ التي اكتشفتُهَا. تحْتاجُ بدوْرها إلَى اختِرَاع. وأُغْرِي نفسي باختراعٍ لا يتوهّمُ شيْئاً. موتاً وحياةً. فقط. من أجل السّفَر. والعبورِ مع العَابرينَ. قبْلي. في الصّمْت.

الصحْراء فضاءٌ خفِيفٌ. أمْلَسُ. نباتُ الشّيحِ. كأنهُ لطخاتٌ منْسِيّةٌ في رُكن مجْهُولٍ. دويٌّ ومدًى. تتوالَى الصيْحةُ. والطرقُ متشابِهَةٌ. لأنها مجهولةٌ. في اتجَاهاتِهَا. المجتمِعَةِ. نُخَيْلاَتٌ تتراءى لكَ. لحظةً. ثم تعودُ الرمالُ إلى أشْكالها الشبقيّةِ. الصحراءُ شبَقيةٌ. امرأةٌ. عارِيَةٌ. تلْمسُها بأصابِعِكَ. امرأةٌ في لانهائيّةِ التشَكُّلِ. هذه النتوءاتُ المنْحُوتَةُ. في جُموح العواصِفِ. والمرأةُ التي عثرْتَ

على عُرْيِها بين يديْكَ. تنهضُ امرأةٌ أُخْرَى. امرأةٌ كونيّةٌ. لكَ ولَهَا. وأنت بكفّك تمرّرُ علَى البشرَةِ. أيُّ رغبٍ لهذَا الجمَال الوحْشيّ. في نهايةِ الصّمْتِ. والدويّ. الذي هو زَفِيرُكَ وشهيقُكَ. عطشٌ يتوالَى. والرحلةُ. تبدأُ في جسَدِ امْرَأة.

كلمةُ الصّحْراءِ. في العربيّةِ. تؤكّد لي ذَلِك. إنّها مؤنّثةٌ. فضَاءٌ مؤنّثٌ. بذلك أوْصَانِي ابنُ عربيّ. وهو يعْبُر الصحراءَ. يجرّب الأهوالَ. والمرأةُ سرُّ الوجُودِ. رنين الكلمةِ أستخلِصُهُ مِنْ جسَدِي. لا مِنَ المدَى المُحايدِ. وهلْ هُو مُحايِدٌ. حقّاً؟ أُنصت للصّحْراءِ وهي تشْتَغِلُ في أعْضَائِي. قديماً. كنتُ أقرأُ الصحراءَ كَكَلِمَةٍ تدلُّ على البدَاوةِ الممْقُوتَةِ. في عُرْف التقليديّين. الذين وقفُوا عند حدِّ استنْسَاخِها. كحُجّةٍ علَى الانتِمَاءِ للفحُولةِ الشّعْريّة. فلاَ شعرَ ولا فحُولةَ. وهيَ بين يدَيْ جسَدٌ يتنفسُ. يتشكّلُ بطيُوبِ الصّبَاح. في صدْرِي. على المُحيطِ الأطلسي. وتلْكَ نغمَةُ اللغةِ. أو نغمَةٌ ما هُو أخطرُ منَ اللُّغة في الكتَابةِ. في انتقالها بين الأحْوَال.

مَنْ يعتقد أن الكلماتِ في الكتابةِ هي انتقاءٌ مُعْجمي يُخطىء اللُّغة. والكتابةَ معاً. يُخطِىءُ الأشياءَ أيْضاً. في الكتابةِ توجَدُ اللغةُ لا في المعَاجِم. وعنْدما كنتُ أقرَأُ عنِ الدّعَواتِ الناصحةِ بالابْتعادِ عن اللُّغة العربيَّةِ. لأنها لُغةٌ ميّتَةٌ. لغةُ الماضِي. الذي لا يمْضي. كنتُ أجِدُ في الدخيلةِ ما يدْحَضُ هذه الدّعَواتِ. واللغةُ الأمّ. اللغة الأبُ. تسمياتٌ لا معْنى لهَا بالنّسبَةِ للكتَابةِ. إنها تصْنِيفُ المتداوَلِ. الذي يخْضَعُ باسْتمْرارٍ لقانون الفرْضيّاتِ. وأنَا. كيف لي أن أكذّب فرضيةَ الكِتَابةِ؟ أُهْمِلُ الفرضياتِ الرائجةَ لأنصتَ إلى الكتابةِ. في الصّحْراءِ. والصحراءِ في الكتابَة.

(3)

شَمِيمُ الصحْراء. سألتقِطُ الحَصَى لأرْوِي حكايةً عن نهْر الكِتَابَة. عندما تمادَى بي الغيُّ. وسبقتْنِي فكرةُ عدمِ مُغادَرةِ النّهْر. يتبدل الماءُ. والنهر يستمرُّ في الجريَانِ. مِنْ منْبع محجُوبٍ عن بصري. ومصبٌّ ألْتقي بِهِ. في حلُم. ثم تنقطِعُ الصُّورة. الدُّوارُ الذي يُصيبني. هلِ الماءُ مصدرُه أمْ مصدرُهُ جسَديَ؟ في مُفْتتَحِ الصّحْرَاءِ استرحتُ من عذابِ الدُّوارِ. مُرتمًى رمليٌّ يمْتَدُّ. بعيداً. يكتسح الأفقَ.

الأولَ. والأفقَ المُوالي. أفقٌ يُفْضي إلَى أفقٍ. والخفيفُ هُوَ ما يسْكُنُ الصحراءَ. أتلمّسُ ذبْذباتِ الدوي. في جوْفِي. والأيامُ تختَلِفُ. هُنا أتخلّص منَ الحكَايةِ. أنظرُ وأُنصِتُ. في النهاياتِ يسْطَعُ اللاّنهائيُ. ليستِ الصحراءُ كِتاباً مِنْ رمَادٍ. جنانٌ تحتَ قدمين شِبْهِ مُراهقتيْن. لسيّدَتِي. وأنا أركضُ. بعَطَشي.

أخْتَارُ في تبرير ما أفْعَلُ. هناكَ الصّحْرَاءُ. والحيواتُ التي جعلتْ منّي شخصاً تائِهاً تعودُ إليّ. في الكتابَةِ لتنفرِدَ بِي. حيواتٌ ورثَتْ طيوبَها الشرقيةَ. وبقايا المقاطِعِ الموسيقيةِ الذائبَةِ في أصَابعي. حرّرْ أيها الفتَى نفْسَك من. ماضِيك. وألْقِ بنفْسِك في شطحاتِ الكتَابة. ماذا سيبْقَى منْكَ؟ رمادُكَ. الصحراءُ تدركُكَ. وعطشُك يمتدُّ. رمادُك الأوْراق والأوْهَامُ. أناشيدُ اتّحدتْ في عُنفُوانِكَ. وأنتَ تكتُب. طبقاتٌ منَ العشْقِ تفيضُ في أحْشائِكِ. مرّرْ بيديْك على البشَرةِ. واسرقْ لذَاذتَها. سيمرُّ العابِرُونَ. وأنتَ عطشانُ. تائِهٌ. تفتّش عن عِظَامِكَ. في الخلاءِ. يمكنُك أن تحافِظ على شهْقتِكَ. في مُنتصف الصّدْر. شهقةُ انْغِمَار في اللاّنهائيّ.

ولكَ ما تشْتَهِيهِ. تأكّد ممّا أدعُوكَ إليْهِ. لحظةٌ منقوعةٌ في دَمِهَا. وأنتَ. التّائِهِ. تلتقِط الحصَى. كلُّ حُصَاةٍ طائِرٌ. والطائرُ لطْخةٌ زرْقاءُ. شمْسٌ علَى جسَدِك. ضوءٌ في أنفاسِكَ. جدّدْنِي أيُها المتَاهُ. يا صَدِيقي. إنّني الآنَ خَفِيفٌ. تهيأتُ لمجْهُولي. حيواتٌ عبرْتُ مطْهَرَهَا. في الصّباح. قبْل أن يرتدّ إليّ طرْفي. تولُّهٌ في الشّتيتِ. صُورٌ تتجاورُ ولا تهْتم بمعْنَاهَا. هي اللاّمعنى بتمامِهِ. شيءٌ من الانجذابِ إلى الخفيف. صورةُ نفْسي. كيف لي أن أتعرّف على آية الرّماد. كتَابٌ. محوْتُه. بيديْن مُرتعشتين. ذلك مجهُولي. المنتصرُ. في منتصف النّهار.

(4)

تحت الحياةِ. حيواتٌ. لن أخْشى مجهولي. سأهتفُ في جلْباب السرّ أن يلتفّ حوْلي. هُو الموقِنُ بأحْوالي. وأنا أكتشفُ الصّحراءَ. في الكَلِمات. والأنفاسِ. ذلك رُكْنٌ منسيٌّ مكّر بِي. هيهاتَ أن أُسْرع في الخُطواتِ. ولكنّي أنكرتُ السُّرعةَ. سأفتّشُ. هنا عن بقَايَاي. رمَادِي. صحراءُ تسكُنِني بأول الضّوْء. أولُ الضوءِ. أحسُّه خفِيفاً. مُنْعِشاً. تلك أغنيتي. أبعْثِرُ الصورَ القديمَةَ.

كي ينطِقَ الرّمَادُ. حُرّاً. في كلماتِي. لا رمادَ يأسٍ شاحبٍ. بل يأسٍ مُعْجِزٍ. مما يدعُونني إليْهِ. ولي صحْرَائي.

أبادر نفسي. بقوّة اليأسِ. منكَ. وأنْتَ منشغِلٌ بلذّة أن ينْدِمَ الحُرُّ على حرّيتِهِ. بلَى. مكاني الكتابةُ. والصحراءُ مجْهُولي. لكَ تهيأتُ. زادِيَ نفسي. ولي كلُّ هذا الفضاءِ الحرّ الذي يرحمني بالوسَاوِس. والأخطاءِ. في الشّارد أتعلّم لغةَ الهتْك. وفي المعابر أعدد آخر صداقَاتي. سأقول للذين أحبُّهم إن لي صحراءَ تحرّرني من الخذْلانِ. والسحبُ الموزعة على النهاياتِ صديقَاتي. أيضاً. بالأزرق سأكتبُ على صحُون الفخّار. الأصفرُ سأنفُخ فيهِ. وهذا الأخْضر سأرفعُهُ رايةً للْحنينِ. ألوانٌ. كلما امتزجتْ بالماءِ انكشفَتْ لي الصحراءُ. طائرةً. في أنْفاسي. وصحونُ الفخّار أخطُّ عليْها شيئاً مِنْ حُريّتي.

أعلامٌ خضراءُ. هل هَذَا الضريحُ صامِتٌ؟ هل الصرخةُ مُكْتهِلَة؟ لن أعْبأ بغير مجْهُولِي. الذي تهيأتُ لَهُ. نواويرُ الغُنبازِ في ورَقَةٍ. نشرتُها لعابِر مجْهُول. مِثْلي. مصبُّ النهر. هل هذا مُهِمٌّ؟ أكاد أَجزم. نافيّاً جهةَ المصبِّ. مُصْطَفقٌ قديمٌ خبَره العابرُون. قبْلِي. وفي الصّباحِ. معَ الأشعّةِ الأُولَى. وابتداءِ الحَرّ. تهيأتُ لمجْهُولِي. صندَلٌ ولُبَانٌ. عبقُ الفصُول. هُنَا. واحِدٌ. وعنْدِي للنّهَارِ. طيْشُ أنفاسٍ. يقُودني طائعاً. بلا ندَمٍ. إليْك.

(5)

مجْهولي. هل هناك ما يُساوي المجْهُول. عطشاً. عشقاً. لألأةً. وابتهاجاً؟ في نهاية القرْن. أو نهايةِ النّهار. أنا أجهلُ ذلكَ. غداً لن أردّدَ. كان عليّ أنْ أكونَ. علَى هذا النحْوِ أو ذاكَ. الطيورُ التي تُهاجر الآن إلى صدْرِي. هِيَ. المجهولُ ذاتُهُ. وفي العبُورِ الذي يتبقى عليّ اختراعُهُ. لن يستجيبَ لحكَايةٍ. تلك إرادةُ أنْ. أختبرَ. الصّحراءَ. بشساعَة الصّمْتِ. ليلةُ الزمْهريرِ أو نهارُ الحَرّ متساويّانِ. معهُما أكتبُ على صحُون الفخّار. ما لاَ أَعْرِفُ أنه سيمجّد نهايةَ زَمنٍ أو نهايةَ. شيْءٍ. خُطواتٌ في الممرّ الضروريّ. مِنْ أجْل شطْحةٍ بها أحْلُم. في حضرة الصّداقَاتِ. بين غمامةٍ وغزالَةٍ. والشمعدانُ بشُعلتِهِ الخَفِيفَة.

هَا أنَا أودّعُ نفْسي التي رأتْ نفْسي. هي الأخرى ستخْتار سِوَاهَا. وأنا

مُستسْلِمٌ لسوَايَ. وداعٌ في ممَرّات الصمتِ. وهي تحْكِي ليَ عمّا مضَى. وأنا أرَى إلى اكْتِئَابٍ مِنْ صنْفٍ يضطفِينِي. لا مبالاةٌ أتخلصُ بهَا من الزّمن والكتَابةِ. في مجْدٍ كان لهُمَا. ذات يوْمٍ. ونحنُ نستظهِرُ قِيَماً. تيقّنْتُ أنها هُناك. أُنصِتُ إليْهَا. عيناي على شُبّانٍ. مُسْتغرِقِين في أحْلام هُمْ بهَا منتَشُون. من كانَ مِنْهُم يَرَاني. وأنا أقطعُ الطريقَ من نفْسي إليْهِمْ. مِنَ الرّباط إلى المحمديّةِ. بين عتماتٍ وأضْواء. ومَعِي صخْرائِي؟ طائف حوْلي يطوفُ. إنه مجْهُولي الذي يُحالفني. في الصّمْت. والعبُور.

فهرس المحتويات

I. العهد

II. الوَصِيّة

للمؤلف

شعر

ما قبل الكلام، مطبعة النهضة، فاس، 1969؛

شيء عن الاضطهاد والفرح، منشورات أ. و. ط. م. 1972؛

وجه متوجه عبر امتداد الزمن، مطبعة النهضة، فاس، 1974؛

في اتجاه صوتك العمودي، سلسلة «الثقافة الجديدة»، الدار البيضاء، 1980؛

مواسم الشرق، طبعة أولى، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1986؛

طبعة ثانية، الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986؛

طبعة ثالثة، دار توبقال لنشر، الدار البيضاء، 1990؛

ورقة البهاء، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1988؛

هبة الفراغ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1992؛

كتاب الحب، عمل شعري ـ فني مشترك مع الفنان ضياء العزاوي

طبعة أصلية، لندن ـ الدار البيضاء، 1994؛

طبعة أولى، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1995.

دراسات

ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب

طبعة أولى، دار العودة، بيروت، 1979؛

طبعة ثانية، دار التنوير ـ المركز الثقافي العربي، بيروت ـ الدار البيضاء، 1985؛

حداثة السؤال

طبعة أولى، دار التنوير ـ المركز الثقافي العربي، بيروت ـ الدار البيضاء، 1985؛

طبعة ثانية، المركز الثقافي العربي، بيروت ـ الدار البيضاء، 1988؛

الشعر العربي الحديث، بنياته وإبدالاتها

دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، (1989 - 1991)؛

الجزء الأول، **التقليدية**، 1989؛

الجزء الثاني، **الرومانسية العربية**، 1990؛

الجزء الثالث، **الشعر المعاصر**، 1990؛

الجزء الرابع، **مساءلة الحداثة**، 1991؛

كتابة المحو، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1994؛

ترجمة

الاسم العربي الجريح

عبد الكبير الخطيبي، دار العودة، بيروت، 1980؛

شطحات لمنتصف النهار

البيت. المدرسة. الكتاب. الصحافة. كلُّها ألزمتني بالمعنَى. وفي كُلِّ مرّةٍ كنت أصطدِمُ بالمعنَى. طاغيةً يطالبني بالامتثال أو شبحاً يتدحرجُ بين الأقدام. أجل! كثيراً ما سكنتُ في ضوحِ المعنَى، انتشيْتُ بِهِ. وبه أيضاً اقتربتُ من الناسِ والأشياءِ والكون. في فاسَ التي ورثْتُ أسْوَاقَهَا وأضرحَتَها، ماءَها وأزقّتَها، موسيقاها وأمثُولاتِهَا، نساءَهَا ومجانينَها. كانَ المعنَى مُسْتَقِرّاً في كلمات. وما حولي كلمات. ثُمَّ كانَ مَا كان.

بعذابات المعنَى تبدّدَ ذلك الوضوح. وذلكَ اللّيْلُ الذي صادفتُ فيه الشعر. وغوِيتُهُ. مرَاتٍ متتاليات. بأوراقٍ شمسيّةٍ قادمةٍ من سِحْرِ الأمكنةِ الحديثة والقديمة. هو اللّيْلُ ذاتُهُ الذي أتشبّعُ فيه بمنتصَفِ النّهار. شمْسُ المعنَى تُنسَخُ للانهايةِ الصمْت. ثمةَ صداقاتٌ توغِلُ في الجفَاء. ولي عذاباتُ المعنَى. وجنازَتُها جنازتي. جسدي على نعْشٍ لا أحِسُّ ببرودتِهِ. حوْلي بقيّةٌ من دَمي. ما لم أكتُبْهُ لم يعُدْ ينتظِرُني. ولي عتماتٌ سمّيْتُها. شطحاتٍ. لمنتصفِ النّهار.

المركز الثقافي العربي
ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت ـ لبنان
ص. ب 4006 ـ الدار البيضاء ـ المغرب

لوحة الغلاف مختارة من أعمال الفنان فاروق حسني